البلاغة العربية والتواصل

نحو درس بلاغي وظيفي يرتقي بالتواصل الاجتماعي والإنساني

تأليف الدكتور لخلافة كريم

من منشورات مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف (ختم)
بالكلية المتعددة التخصصات بالرشيدية، جامعة مولاي إسماعيل

بالبلاغة نرتقي

البلاغة العربية والتواصل

نحو درس بلاغي وظيفي يرتقي بالتواصل الاجتماعي والإنساني

تأليف : الدكتور لخلافة كريم

الطباعة : NET IMPRESSION، 630 حي المسيرة، ورزازات

الناشر : مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف

رقم الإيداع القانوني Dépôt Légal 2025MO3820

ردم ك ISBN 978-9920-24-114-4

الطبعة الأولى 1447هـ / 2025م

جميع الحقوق محفوظة

من منشورات مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف (ختم)

بالكلية المتعددة التخصصات - الرشيدية

جامعة مولاي إسماعيل - مكناس (المغرب)

ص. ب .512، بوتلامين، الرشيدية، المغرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله خالق الإنسان،معلمه البيان، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين بكتاب عربي مبين.

وبعد،

من المعلوم والمقرر عند الدارسين والباحثين في تاريخ البلاغة العربية،أن بلاغة الإنجاز في تراثنا العربي سبقت بلاغة التنظير بقرون؛ فمنذ العصر الجاهلي كانت البلاغة محَقَّقة في كلام العرب وأشعارهم وخطبهم،ثم ازدادت مساحة الإنجاز البلاغي اتساعا ونموا بمجيء الإسلام. ولم تكن البلاغة مطلبا مقصورا على الإبداع، ولا على الخاصة من شعراء العرب وخطبائهم وكتابهم، بل كانت مطلبا تواصليا عند العرب في محاوراتهم في كل العصور، رغم أن المتكلم العربي،حينئذ لم يكن على علم بقواعدالبلاغة،فسجيته وطبيعته تميل إلى الكلام البليغ الفصيح.

ثم تضاعف الاهتمام بالبلاغة في صدر الإسلام وفي العصور الإسلامية اللاحقة؛إذ فتح القرآن الكريم مجالا واسعا للدرس البياني والإعجازي والتفسيري القائم على البلاغة. ثم زادت الحاجة إلى البلاغة لما ظهرت الفرق والمذاهب الكلامية،التي كانت توظف البلاغة والحجاج في محاوراتها ومناظراتها.

هكذا حظيت البلاغة في تراثنا العربي بالعناية والاهتمام، وكثرت فيها التصنيفات، إلى أن بلغت مبلغا كبيرا من التطور والازدهار مع البلاغي عبد القاهر الجرجاني. ثم تعرضت لما تعرضت له سائر العلوم اللغوية من الانحسار وكثرة الشروح والتلخيصات. ومع ذلك ظلت البلاغة في أعين القوم في سائر العصور.

واستمرت البلاغة العربية في الإبداع العربي، رغم فترات الانحطاط والجمود، ونهضت بعد نهضة الأدب العربي الحديث، وأشرقت شمسها من جديد في أعمال الأدباء العرب الكبار، فجاء الإبداع العربي الحديث في مختلف الفنون دالا على بلاغة القوم، وعلى أن

عصور الانحطاط لم تؤثر على الأسلوب العربي الأصيل الذي يبزغ ويشرق كلما توفرت له ظروف الإبداع.

وقد عاد الاهتمام إلى البلاغة العربية في العصر الحديث، تنظيرا وتعليما، ودعوة إلى التجديد، وبرز أعلام وباحثون في المغرب والمشرق، انشغلوا بأمر البلاغة العربية وتطويرها وتجديد النظر إليها، بعدما استفادوا من الاطلاع على المنجز في البلاغة الغربية الجديدة وبعد إدراك قيمة البلاغة وأهميتها البالغة في الحجاج والتواصل والإبداع والتلقي وفي تحليل الخطاب.

وكان للبلاغيين المغاربة الجدد إسهام واضح في هذا التجديد، فصارت المدرسة المغربية في البلاغة مشهورة بأعلامها ومؤلفاتها وأبحاثها ومجلاتها.

سأبين في هذا الكتاب أن البلاغة ليست، مجرد أساليب أو محسنات نزين بها كلامنا، ولا صورا نرتقي بها إلى عالم الخيال في أشعارنا. وليست البلاغة مجرد حجج وأقاويل برهانية ندعم بها خطاباتنا الإقناعية...

البلاغة أوسع من ذلك بكثير، البلاغة ضرورة خطابية نصادفها في كل الخطابات وفي كل أشكال التواصل، في كل المجالات والأوساط. فهي ليست حكرا على الشعر ولا على الخطابة ولا على غير ذلك من الأشكال النثرية والأدبية، بل توجد حيث يوجد التخاطب والتواصل في كل الحقول والمجالات التداولية للخطاب.

وقد كانت البلاغة ولا تزال مصاحبة لفنون الإبداع والتواصل والتخاطب مهما يكن نوعها. لذلك صار الباحثون في البلاغة الآن يتحدثون ويبحثون في بلاغة الخطاب الروائي وبلاغة الخطاب المسرحي وبلاغة الخطاب الشعري وبلاغة الخطاب السياسي، وبلاغة الخطاب الإشهاري، وبلاغة الخطاب الديني، وغيرها من الخطابات الجديدة.

فبالبلاغة – إلى جانب علوم أخرى- نبني الخطاب ونتلقاه، فنفهمه ونحلله ونفسره ونؤوله.

سأدافع، في هذا الكتاب، كذلك عن أهمية البلاغة في حياتنا اليومية، وعن حاجتنا إليها في تواصلنا وحواراتنا في كل المجالات، وسأبرز أننا بالبلاغة نحيا ونتواصل ... وبالبلاغة

ترتقي علاقاتنا الأسرية والاجتماعية والإدارية، وبها يرتقي تواصلنا في مختلف المؤسسات والفضاءات والمجالات والقطاعات.

سأعمل في هذا الكتاب على تصحيح تصورات قصَّرتْ في حق البلاغة، وأزكِّـي تصورات لباحثين ودارسين استوعبت مفهوم البلاغة وأدركت وظائفها وأهميتها في الخطاب وفي التواصل. ولن يفوتني التنويه بأعمال البلاغيين العرب القدامى والمحدثين الذين سبقوني إلى تقرير حقائق مهمة في هذا المجال. سأحاول الاستفادة من هؤلاء جميعا، وسأنفتح على أعمال غيرهم من الدارسين في البلاغة الغربية الذين أنجزوا أعمالا رائدة في البلاغة، وفي الدفاع عن علاقتها بالحياة وبالتواصل وبالسلوك الإنساني وبأنماط التفكير.

وعليه، ستتنوع فصول هذا الكتاب،الذي قررت أن أخاطب فيه الطالبَ الجامعي والمدرسَ والباحثَ وكل من يهتم بالبلاغة وبعلاقتها بالخطاب وبالتواصل.

لذلك سيجد المهتمون بالتواصل الأسري والاجتماعي في هذا الكتاب جانبا مفيدا، ربما غفل عنه الباحثون. وسيتعرف الطالب في هذا الكتاب على أهم مفاهيم البلاغة العربية ومكوناتها ومباحثها، بأسلوب سهل. وسيجد محاضرات في البلاغة العربية، وفي أهم أساليبها ووظائفها، ومحاضرات في علاقة البلاغة العربية بالخطاب تلقيا وتحليلا وتفسيرا وتأويلا. كما سأمنحه فرصة ليتواصل مع خطابات ونصوص متنوعة من تراثنا العربي البليغ.

ولن أنهي الكتاب دون التوقف عند مشكلات تدريس البلاغة العربية في مدارسنا وفي جامعاتنا، بل سيحظى هذا المجال عندي بالاهتمام، وسأعمل على تقديم اقتراحات للارتقاء بالدرس البلاغي في مؤسساتنا التعليمية، راجيا من الله التوفيق والسداد في هذا العمل، فعليه أتوكل وبه أستعين.

د.لخلافة كريم

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بالكلية متعددة التخصصات بالرشيدية

ka.khlafa@umi.ac.ma

الموقع الإلكتروني:

https://drkarimkhlafa.site

https://orcid.org/0009-0001-0209-9708

الفصل الأول

البلاغة العربية: النشأة والتطور

الفصل الأول - البلاغة العربية : النشأة والتطور

تمهيد

يكتسي الحديث عن نشأة البلاغة العربية وتطورها أهمية لا تقل عن معرفة أساليبها ووظائفها في التواصل والتخاطب وفي تحليل الخطاب وتفسيره وتأويله، لأن المتعلم – حاليا – يجهل قصة النشأة، ويعتقد أن التنظير البلاغي جاء صدفة، بينما تختزن قصة البدايات عناصر مهمة في تطور الدرس البلاغي العربي يجدر بالطالب معرفتها. فقد يظن البعض أن علوم البلاغة جاءت من أجل التقعيد وضبط الكلام العربي، وإتمام مهمة النحو والصرف، والحال أن البلاغة العربية صحبت الكلام العربي منذ بدايته، قبل أن يبدأ عصر التدوين والكتابة، ومنذ كان المتكلم العربي فصيحا بليغا لا يحتاج إلى قواعد.

1 - البدايات التأسيسية للبلاغة العربية

1 - 1- أقدمية بلاغة الإنجاز

إذا كان التنظير البلاغي العربي قد جاء متأخرا إلى ما بعد عصر التدوين، أو إلى عهد الجاحظ، فإن الإنجاز البلاغي العربي كان قديما، بدأ مع بداية الإبداع الشعري والنثري العربيين، بل لنقل بدأ مع بداية القول العربي بكل أشكاله وألوانه. لقد أسهم في ذلك الإبداع الشعراء والخطباء والرجاز والكهان وأسهم فيه العرب عموما. فالعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة حتى في محادثاتهم العادية، وفي تحاورهم اليومى وفي محادثاتهم وأشكال تخاطبهم. وقد بدا ذلك واضحا في تفاعلهم مع الشعراء والخطباء، وفي ملاحظاتهم العفوية، وانتقاداتهم الانطباعية، وفي موازناتهم ومفاضلاتهم بين الشعراء. ولا نعرف بداية ذلك، لأن بداية الشعر العربي غامضة، وبالتالي فالإبداع البلاغي العربي قديم قدَم الكلام العربي.

يقول شوقي ضيف: «لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى. إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارا صفيقا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى، فلا نكاد نعرف من ذلك شيئا»[1].

[1] - العصر الجاهلي، شوقي ضيف،ص183

وإذا كان هذا حال الشعر، فماذا عن غيره من ألوان الكلام العربي؟

ويمكننا التمييز في البلاغة العربية في العهد الجاهلي بين فنين اثنين هما :

- فن الشعر
- فن النثر

يقصد بالنثر ذلك الأدب الذي يقصد به صاحبه التأثير في نفوس السامعين، والذي يتميز بحسن الصياغة وجمال الأداء وهو أنواع. وقد وُجدت عند الجاهليين ألوان من: القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان.

أما الرسائل الأدبية فمن الصعب تأكيد وجودها - حسب شوقي ضيف - «لأننا لا نملك أدلة مادية محسوسة ولا نصوص تثبت ذلك». بينما كان الجاهليون «يشغفون بالقصص شغفا شديدا، وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر على الحكايات»[1]. وأكثر ألوان القصص شيوعا عندهم أيامهم وحروبهم وما سجل أبطالهم من انتصارات مروعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة. وقد دون لغويو القرن الثاني الهجري ورواته بعض ما انتهى إليهم من هذه القصص على نحو ما هو معروف عند أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق. ونجد كثيرا من ذلك أيضا في تاريخ الطبري وفي السيرة النبوية لابن هشام. ومن ذلك حكاياتهم عن ملوك المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية. غير أن قصص الجاهليين لحقها كثير من الزيادة والخيال مما جعلها، حسب شوقي ضيف، لا تعكس بصورة دقيقة النثر الجاهلي[2].

لكن ثمة أدب اشتهر به عرب الجاهلية، وتم حفظه، كما حفظ الشعر العربي، وهو أدب الأمثال، وهو من مظاهر بلاغة الكلام العربي، منذ العصر الجاهلي، يقول شوقي ضيف : «إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين، فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة. فالأمثال من شأنها أن لا تغير، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة»[3].

وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف فيها كل من :

---

[1] - العصر الجاهلي، شوقي ضيف ص 399.

[2] - المرجع السابق ص 398.

[3] - المرجع السابق، ص 404

صحار العبْدي (41 هـ– 60 هـ) وأبو عبيدة بن شرِية (وهو معاصره). وكثر التأليف في أدب الأمثال في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فظهرت كتب مهمة في هذا الأدب، كـ"أمثال العرب" للمفضل الضبي و"فصل المقال في شرح أدب الأمثال" لأبي العبيد القاسم بن سلام، و"جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري،و"مجمع الأمثال للميداني". وهي مؤلفات شاهدة على قدم بلاغة الإنجاز عند العرب في أشكال نثرية أخرى غير الشعر.

وبالإضافة إلى أدب الأمثال، فقد كانت "**الخطابة**" مزدهرة في العصر الجاهلي، وكان الخطباء يخطبون في كل موقف: في الدعوة إلى الحرب والسلم، وفي المفاخرات وفي النصح والإرشاد ، وفي الصبر، وفي الزواج. وكانوا يهدفون إلى التأثير في المستمعين بما حققوا لخطبهم من البيان والبلاغة. وقد ساعدتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من فصاحة وبيان وبلاغة وحضور بديهة.

يقول الجاحظ: « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى زجر يوم الخصام، أو حين يمنح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده» [1].

و يذكر الجاحظ عددا كثيرا من خطباء الجاهلية ومنهم[2]:

في يثرب: سعد بن الربيع وقيس بن شماس وابنه ثابت(وهو خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم).

في مكة: هاشم وأمية ونفيل بن عبد العزى.

في القبائل: عامر بن الظَّرِب في عدوان وربيعة، وحنظلة بن ضرار في تغلب، وهانئ بن قبيصة في شيبان. ومن خطباء إياد قُس بن ساعدة[3]، ومن خطباء تميم المفوهين أكثم بن ضَمَرة.

ثم اتسعت بلاغة الإنجاز في صدر الإسلام ونمت، إذ جاء القرآن الكريم، فأعجز العرب بما تضمنه من أساليب البيان والبلاغة،وأدهشهم،فزاد الإبداع والإنجاز البلاغي في تلقي هذا الخطاب وقراءته وتفسيره. وقد فتح القرآن الكريم عهدا جديدا للإبداع والإنجاز البلاغيين،

---

[1] - البيان والتبيين،ج3، ص:18

[2] - المصدر السابق، باب ذكر أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء وذكر قبائلهم وأنسابهم ج1، ص:215 وما بعدها.

[3] - المصدر السابق،ج1، ص:217 .

وأسهم في ذلك الحديث النبوي البليغ المدهش، وكلام الصحابة رضي الله عنهم، في تفسير الوحيين، وفي خطبهم في الدعوة والجهاد والرد على الخصوم، وكذا شعراء صدر الإسلام. ثم تضاعف هذا الإنجاز البلاغي في العصرين الأموي والعصر العباسي الأول مع الفرق الكلامية، والأحزاب السياسية المتصارعة التي سخرت الشعر والخطابة والمناظرة والرسائل في معاركها وخصوماتها، فبلغت البلاغة العربية إبداعا وإنجازا مبلغا كبيرا في الرقي والازدهار بفعل تلك العوامل كلها.

1-2- قِدم بلاغة التلقي عند العرب

عرفت عصور الإنجاز والإبداع البلاغي أيضا ملاحظات نقدية عفوية تضمنت إشارات بلاغية. فالمتأمل في الروايات الواردة عن العصر الجاهلي في هذا المجال، والتي نجدها في كتب النقد القديمة كالموشح للمرزباني والأغاني للأصفهاني وغيرهما، يدرك قيمة هذه الملاحظات وعلاقتها بالبلاغة. بل إن المتمعن في كلام كفار ومشركي قريش، وهم يحاولون الرد على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ووصف القرآن الكريم المعجز، ليجد ملاحظات بلاغية فيما يقولون وينشِؤون. ويكفي لبيان ذلك قول الوليد بن المغيرة ردا على أبي جهل لما طلب منه أن يقول في القرآن قولا يبلغ قومه بعدما علموا بسماعه للقرآن الكريم وتأثره به، فقال قولا منه: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني. والله، ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول، حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته"[1].

وقد كان عمر - رضي الله عنه- عالما بالشعر، ناقدا له، ومن ذلك قوله في زهير بعدما عده شاعر الشعراء،"لأنه لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه"[2]. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه بليغا مفوها، إذا خطَب أو قال شعرا. وكذلك كان الخلفاء الأمويون والعباسيون،وتطور ذلك عندهم لما جعلوا للأدب مجالس أدبية يستمعون فيها إلى الشعراء، ويدلون بمواقفهم من الشعراء، ويوازنون ويفاضلون بينهم، ويوجهون أحيانا، وكل ذلك تضمن من الإشارات والملاحظات البلاغية ما تضمن.

---

1 - جاء هذا في حديث طويل رواه الحاكم ووافقه الذهبي.

2 - نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي، عبد العزيز جسوس، ص: 60.

2 - البدايات التأسيسية للتنظير البلاغي

2-1- تطور الدراسات القرآنية ذات المنحى البلاغي

تطورت الدراسات القرآنية ذات المنحى البلاغي بفضل اهتمام العلماء ببيان وتهذيب الخطاب القرآني للعامة ولحديثي العهد بالإسلام، فكثر الاهتمام بالدراسات اللغوية والبلاغية، وصار التفقه في علوم اللسان العربي من أولويات أهل الشريعة. "إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهما بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم. فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان"[1].

وقد كان علماء العربية القدامى مرتبطين منذ وقت مبكر بالخطاب القرآني. بوصفه مصدرا من مصادر اللغة العربية، ينطلقون منه ومن غيره من المصادر المعروفة لوضع قواعدهم، وللاحتجاج لآرائهم ومذاهبهم في النحو واللغة. وزاد من تعلقهم وارتباطهم بالخطاب القرآني ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغَلَ البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية والبيانية.

ولم يكن القصد من انشغال العلماء ببلاغة الخطاب القرآني الرد على المشككين والمنكرين لإعجازه البياني فقط، بل تجاوز ذلك إلى غايات أخرى أهمها فهم معاني الخطاب القرآني ومقاصده، يقول بدوي طبانه: "ولم تكن علاقة الدين بمنهج البحث البياني مقصورة عن الدفاع عن القرآن والتماس وجه إعجازه من طريق بيانه، بل إن له به علاقة أخرى، وهي الضرورة التي يحسها المسلم من جهة فهم معانيه، ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليبه، وما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد. وتلك الغاية لا تقل في الأهمية عن الغاية الأولى، وهي التصدي لهجمات الطاعنين ورد طعناتهم وكيدهم للدين أو لمعتنقيه"[2].

ويعد أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري من أقدم العلماء الذين توقفوا عند البيان في الخطاب القرآني، فأسهموا في بداية الدرس البلاغي العربي من خلال الاشتغال على الخطاب القرآني،فقد ألف كتاب "مجاز القرآن"،فعالج فيه " كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية،باحتذاء أساليب العرب في الكلام، وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني"[3]، فجاء كتابه

---

[1] - البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، بدوي طبانة، ص 16.

[2] - المرجع السابق،ص 16.

[3] - المرجع السابق،ص 17.

غنيا بالمأثور من كلام العرب الذي يساعد على فهم معاني القرآن الكريم. وكان أبو عبيدة يقصد بكلمة "مجاز"، "المعنى اللغوي الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي، وهو المعبر والممر والطريق، فكان معنى "مجاز القرآن" طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية، يستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها، أو عن طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين. يقول أبو عبيدة: "ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حذف، ومجاز ما كف عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين... ومجاز المضمر استغناء عن إظهاره، ومجاز المكرر للتوكيد، ومجاز المجمل استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدم والمؤخر، ومجاز ما يحول من خبره إلى خبر غيره، بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو. وكل هذا جائز قد تكلموا به"[1].

ثم جاء بعده ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، فأبدع وأجاد في تهذيب ما خفي عن العامة من آي القرآن الكريم؛ إذ وضح بعض ما أشكل عليهم فهمه، مما لا يمكن تفسيره بالاعتماد على ظاهر لفظه، بسسب ما طرأ عليه من مجاز أو استعارة أو كناية أو عدول وانزياح تركيبي وأسلوبي باستعمال للأساليب في أغراض أخرى تستفاد من السياق والمقام.

واستدل على ذلك بالمأثور من كلام العرب. فكان عمله إسهاما حقيقيا في الدرس البلاغي العربي. وقد دافع ابن قتيبة عن "المجاز"، ووضح أنه ضرورة لغوية تعبيرية. يقول: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص للعموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"[2].

[1]- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولى (1374هـ/1954م)، ج1، ص18-19.

[2]- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، ص 20-21.

2-2- أثر علماء الكلام في التنظير البلاغي:

ثم كثرت الفرق الكلامية في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث واشتدت الفرقة بينها، واتصل خلافهم وجدلهم حول القرآن الكريم، وظهرت "محنة خلق القرآن الكريم"، والقول بالصُّرفة، فأخذ الإلحاد يصوب سهامه نحو الطعن على النظم القرآني، والبيان العربي بوجه عام. "فانبرى علماء المسلمين يدافعون عنهما، وتمخض دفاعهم عن آراء في البيان العربي وإبراز محاسنه، ووضع المقاييس التي يقاس بها، إذ تمكن الجاحظ من الدفاع عن البيان العربي وإبراز قيمته، وتحديده وجمع عدة تعريفات للبلاغة، وأبرز محاسن النظم القرآني"[1].

ويعد أبو عمرو الجاحظ أبرز علماء الكلام الذين كان لهم دور بارز في بداية التنظير البلاغي،يتضح ذلك الاهتمام في كتابه "البيان والتبيين"، فقد اهتدى بصحيفة بشر بن المعتمر التي انطلق منها للحديث عن قواعد البيان، سواء من حيث ملاءمة الكلام لمعانيه ومن يوجه إليهم من طبقات المستمعين، أو من حيث جمال الألفاظ ورصانتها ورشاقتها. وقد جاء كتابه "البيان والتبيين"غنيا بمباحث البلاغة، كالإيجاز والاطناب والسجع والازدواج والاقتباس والتقسيم واللغز والأسلوب الحكيم والاحتراس والهزل يراد به الجد والاعتراض والتعريض والكناية والاستعارة. وقام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان، وهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني"[2].

ونجد في كتابه "الحيوان" إشارات دقيقة إلى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والمثل والكناية وغيرها. لذلك "فهو يعد بحق مؤسس البلاغة العربية"، كما قال شوقي ضيف[3].

ثم تطورت المحاولات الكلامية إلى دراسات إعجازية؛ فقد قام علماء الكلام بتأليف رسائل بلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وفي مقدمة مؤلفاتهم " النكت في إعجاز

---

[1] - قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عرفة، ص 799.

[2] - البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري،ص: 28.

[3] - البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص: 369.

القرآن للرماني"، وقد فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني. ومن المتكلمين الذين خاضوا في إعجاز القرآن القاضي عبد الجبار، أستاذ الاعتزال في عصره.

ومن مباحث المتكلمين "النكت في إعجاز القرآن للرماني"، الذي فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني. ومن المتكلمين الذين خاضوا في إعجاز القرآن القاضي عبد الجبار، أستاذ الاعتزال في عصره.

2-3- إسهام الدراسات النقدية في التنظير البلاغي:

بالإضافة إلى الدراسات الكلامية، ظهرت دراسات نقدية وأدبية تتضمن مباحث بلاغية، ويأتي كتاب "البديع" لعبد الله بن المعتز في مقدمتها، وهو من التأليفات المبكرة في علوم البلاغة، ولم يفرده المؤلف للبديع، بل تطرق فيه لمباحث بلاغية متنوعة، فتناول الاستعارة والتشبيه والتعريض والالتفات والجناس والطباق، وغيرها من المباحث، مما يدل على أن مفهوم البديع عنده، وفي عصره كان ما يزال عاما يدل على البلاغة والبيان. وكان الدافع إلى هذا الكتاب عنده، هو إثبات أن فنون البديع قديمة عند العرب، توجد في الشعر العربي القديم، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي وفي كلام العرب. وهو بذلك يرفض رأي القائلين بأنها من ابتداع الشعراء المحدثين. لذلك جاء كتابه غنيا بالنصوص والشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة الكرام والشعر العربي القديم وكلام العرب.

ثم نشطت الكتابات النقدية في القرن الرابع الهجري، وكانت تخوض في مباحث البيان والبديع، وتدلي بنظرات بلاغية فاحصة دقيقة، كما هو الحال في "عيار الشعر لابن طباطبا العلوي"، الذي عرض فيه لكثير من مباحث البلاغة كالتشبيه والتعريض والمبالغة وحسن القطع والتخلص.

ويعد كتاب الموازنة للآمدي دراسة تطبيقية لبعض المباحث البلاغية كالاستعارة والمحسنات البديعية في شعر أبي تمام والبحتري، وكذلك الأمر في " كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني، الذي توسع في الحديث عن البديع وفنونه وعن الاستعارة والتشبيه في سياق دفاعه عن المتنبي. وتضمن كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر مباحث بلاغية مهمة.

ومن أبرز المتأدبين الذين أسهموا في الدرس البلاغي العربي، أبو هلال العسكري صاحب كتاب "الصناعتين"؛ الذي تضمن مباحث بلاغية مهمة. فقد فصل القول في الإيجاز والإطناب والمساواة وفي التشبيه والسجع والإزدواج وأفرد البديع بخمسة وثلاثين بابا. وفي القرن الخامس بزغ نجم ابن رشيق القيرواني فصنف مصنفه "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، وعرض فيه آراء البلاغيين قبله، وأدلى بملاحظاته وآرائه فيها. وقد عاصره صاحب كتاب سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي، وهو أول من جعل الفصاحة خاصة بالألفاظ مفردة ومركبة، بينما جعل البلاغة تشمل الألفاظ والمعاني جميعا، وهو أيضا أول من فصَّل القول في الجرس الصوتي للحروف، وأطنب في الحديث عن كثير من فنون البيان والبديع.

وهكذا توالت الأبحاث والمؤلفات النقدية والأدبية التي أسهمت في تطور الدرس البلاغي العربي، كما يتضح في مؤلفات كل من ابن وهب الكاتب وقدامة بن جعفر وأسامة بن منقد وغيرهم كثير.

3 - ازدهار الدراسات البلاغية:

رغم إسهام الدراسات والمؤلفات المشار إليها سابقا، والتي أصبحت ذات طابع منهجي مع بعض النقاد والمتأدبين، فإن تطور الدرس البلاغي وازدهاره إنما كان مع البلاغي الكبير عبد القاهر الجرجاني، الذي إليه يعود الفضل في وضع علمي البيان والمعاني، وقد أبدع فيهما إبداعا متألقا لايزال محط اعتراف وإعجاب الدارسين إلى الآن. فقد شكل كتابه أسرار البلاغة عمدة في علم البيان، في حين يعد كتابه دلائل الإعجاز العمدة في علم المعاني. حتى إن من جاء بعده شغل بالكتابين، وبشرحهما أو تلخيصهما.

وممن يمكن الإشارة إليهم،وإلى إسهاماتهم في الدرس البلاغي تطبيقا وممارسة **الزمخشري** من خلال تطبيقاته في الكشاف، التي تعد مباحث مهمة في بلاغة الخطاب، لأنها تبرز بشكل واضح وظيفة الأساليب البلاغية في تحليل الخطاب، وفي عملية القراءة والتأويل، يقول شوقي

ضيف: "وعلى أضواء مباحث عبد القاهر وقواعده التي أصلها في علمي البيان والمعاني مضى الزمخشري يفسر القرآن الكريم في كتابه "الكشاف" مطبقا تطبيقا دقيقا على آياته كل ما استنبطه عبد القاهر من قواعد وأصول في العلمين جميعا،إذ تَمَثَّلَ كتابيه "الدلائل" و"الأسرار" تمثلا رائعا، نافذا إلى استكمال كثير من شعب المعاني الإضافية، حتى ليمكن أن يقال إن علم المعاني تكامل عنده بكل تفاصيله ودقائقه"[1].

4 - بلاغة السكاكي : بداية طور التلخيص والتهذيب والتعليم

شغل البلاغيون بكتابي عبد القاهر الجرجاني الدلائل والأسرار، وكلفوا بشرحهما وتلخيصهما، وكأن الإمام عبد القاهر الجرجاني أدهشهم، وبدل أن يدفعوا الدرس البلاغي إلى الأمام، إذا بهم يقفون عند حدود المنجز، فتحول الدرس البلاغي عندهم إلى الانشغال بالتهذيب والشرح والتلخيص والتعليم. وقد بدا ذلك واضحا في أعمال من جاؤوا بعده، وفي مقدمتهم الفخر الرازي الذي صنف أول تلخيص لكتابي عبد القاهر: " دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة"، مفيدا من كتابات الرماني وكشاف الزمخشري.

ثم جاء السكاكي في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، فجاءت البلاغة عنده واضحة العلوم والأقسام، إذ استفاد من أعمال السابقين، واستوعب بلاغة الجرجاني، فاتضحت له معالم البلاغة العربية، وتمكن من وضع علمي البيان والمعاني في صيغتهما النهائية. وضم إلى العلمين السابقين أبوابا تحدث فيها عن الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

وأهم بلاغي قام بتلخيص المفتاح **هو الخطيب القزويني**، فقد صنف تلخيصا دقيقا لمباحثه البلاغية، ذلل فيه صعوباته تذليلا، مع الاستفادة من تلخيص بدر الدين بن مالك وبآراء عبد القاهر والزمخشري، لكنه رأى في هذا التلخيص إجمالا أكثر مما ينبغي فصنف كتابه "الإيضاح"،وهو من أشهر كتب البلاغة، وقد حظي التلخيص بعدة شروح أدخلت البلاغة العربية في طور جديد؛ طور التعليم والشرح والتلخيص والتهذيب.

[1] - البلاغة تطور وتاريخ، ص: 373

لكن البلاغة العربية استمرت في الإبداع العربي، رغم فترات الانحطاط والجمود، ونهضت بعد نهضة الأدب العربي الحديث، وأشرقت شمسها من جديد في أعمال الأدباء العرب الكبار، فجاء الإبداع العربي الحديث في مختلف الفنون دالا على بلاغة القوم، وعلى أن عصور الانحطاط لم تؤثر على الأسلوب العربي الأصيل الذي يبزغ ويشرق كلما توفرت له ظروف الإبداع.

وقد عاد الاهتمام إلى البلاغة العربية،تنظيرا وتعليما، ودعوة إلى التجديد، وبرز أعلام وباحثون في المغرب والمشرق، انشغلوا بأمر البلاغة العربية وتطويرها وتجديد النظر إليها، بعدما استفادوا من الاطلاع على المنجز في البلاغة الغربية الجديدة. وللبلاغيين المغاربة المحدثين إسهام واضح في هذا التجديد، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن المدرسة المغربية في البلاغة، قد صارت مشهورة بأعلامها ومؤلفاتها وأبحاثها ومجلاتها.

الفصل الثاني

البلاغة العربية والتواصل

الفصل الثاني - البلاغة العربية والتواصل

تمهيد

إن الباحث في الدراسات البلاغية العربية القديمة سيجد حضورا لافتا للتواصل. فقد اهتم البلاغيون العرب بأطراف التواصل وبالمقام التواصلي وبأغراض الأساليب بناء على مقاصد المتكلم وأحوال المتلقي وظروف التخاطب. ولا تتحقق البلاغة والفصاحة عندهم إلا بمراعاة هذه الظروف والأطراف. فالأسلوب البلاغي يختلف إجراؤه باختلاف أوضاع الكلام وسياقاته ودرجة علم المخاطب بالمعلومة أو جهلها، وكذا تصديقه لتلك المعلومة أو جحودها وإنكارها. وهذا ما سأبينه بتفصيل في هذا البحث بعد الوقوف عند مفهوم التواصل.

التواصل لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: **وَصَلَ:** وَصَلْت الشيء وَصْلاً وَصِلةً، والوَصْلُ ضِدُّ الهِجْران. ابن سيده: الوَصْل خلاف الفَصْل. وَصَل الشيء بالشيء يَصِلُه وَصْلاً وَصِلةً وصُلَةً؛ ... ووَصَّلَهُ كلاهما: لأَمَهُ. وفي التنزيل العزيز: ولقد (وَصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ)، أَي وَصَّلْنا ذِكْرَ الأَنْبياء وأَقاصِيصَ من مَضَى بعضها ببعض، لعلهم يَعْتَبرون. واتَّصَلَ الشيءُ بالشيء: لم ينقطع؛.... ووَصَلَ الشيءُ إِلى الشيء وُصُولاً وتَوَصَّل إِليه: انتهى إِليه وبَلَغه؛ ووَصَّله إِليه وأَوْصَله: أَنهاهُ إِليه وأَبْلَغَهُ إِياه... **والوَصْل: ضد الهجران. والتَّواصُل: ضد التَّصارُم**. وفي الحديث: مَن أَراد أَن يَطول عُمْره فَلْيَصِلْ رَحِمَه،

<u>تواصُل</u>: اسم،مصدر **تَوَاصَلَ: تَوَاصُلُ** الحَبِيبَيْنِ : مُوَاصَلَةُ أحَدِهِمَا لِلآخَرِ فِي اتِّفَاقٍ وَوِئَامٍ، **تَوَاصُلُ** الحَدِيثِ: تَوَالِيهِ. و**تَوَاصَلاَ:**خلاف تصَارَما، **تَوَاصَلَ** الصَّدِيقَانِ: وَاصَلَ أَحَدُهُما الآخَرَ فِي اتِّفَاقٍ وَوِئَامٍ،اجْتَمَعا،اِتَّفَقا.و**تَوَاصَلَ** الحَدِيثُ حَوْلَ الْمَائِدَةِ:تَوَالَى،و**تواصلتِ** الأشياءُ : تتابعت ولم تنقطع.

التواصل اصطلاحا:

1 - التواصل عند المحدثين :

الأصل الاشتقاقي لفعل التواصل (**Communiquer**) حسب جان كازنوف (**J.Cazeneuve**) يعني جعل الشيء مشتركا (**Commun**)؛ فالتواصل يعني عملية انتقال من وضع فردي إلى وضع اجتماعي وهو ما يفيده فعل "اتصل" الذي يتضمن الإخبار والإبلاغ والتخاطب، ويتعلق بنقل الرسائل أو الرموز الحاملة للدلالات. ويمكن للتواصل كنشاط تبادلي أن يتم بواسطة الأصوات

أو الإشارات أو الصور أو العلامات المكتوبة، ويتميز بأعلى مراتب الدقة على مستوى اللسان، لأن هذا الأخير نسق صوتي خاضع لسنن محدد.

وحسب ابراهام مولر و كلود زيلتمان، ف "التواصل هو إشراك شخص (أو هيأة **organisme**) مموضع في فترة ما في نقطة معينة – في تجارب منشطة لمحيط شخص آخر أو نسق آخر مموضع في فترة أخرى ومكان آخر عن طريق استعمال عناصر المعرفة المشتركة بينهما"[1].

وباختصار، فإن التواصل هو بمثابة نقل لرسائل وتبادل لدوال بين ذات مرسلة **Emetteur** وذات مستقبلة **Recepteur**. إنه حسب أبسط التعريفات "نقل معلومة من مرسل (أ) إلى متلق (ب) عبر قناة (ج). وهو كل ما ينطبق على كل الأوضاع التواصلية على اختلافها، مثل عرض الأخبار أو المكالمة عبر الهاتف أو سرد حكاية إلخ... فكل عملية تواصل تستدعي نقل رسالة بين مرسل ومتلقٍ يمتلكان معا الشفرة الضرورية لتداول الرسالة وذلك عن طريق حامل مادي، أي قناة اتصال. والمقصود بالشفرة أو السنن**code**، مجموع قواعد التركيب الخاصة بنسق من العلامات (الصوتية، البصرية، الحركية). أما القناة، فهي الحامل الفيزيقي الذي تتجلى عبره الشفرة كرسالة. وطبعا، فإنه على المتلقي تحليل وتفكيك رموز الرسالة، لفهم مضامينها باعتبارها متوالية من العلامات الرمزية. وهذا شرط أساسي لتحقيق التبادل والتفاهم بين أطراف العملية التواصلية"[2].

وإجمالا، فالتواصل اصطلاحا هو عملية نقل الأفكار والتجارب وتبادل المعارف بين الأفراد والجماعات. وقد يكون التواصل ذاتيا بين الإنسان ونفسه (حديث النفس)، أو جماعيا بين الإنسان والآخرين، وهو مبني على الموافقة، أو المعارضة والاختلاف.

[1] - في التداولية المعاصرة والتواصل، أ. مولز – ك .زيلتمان – ك.أوريكيوني، ترجمة وتعليق د.محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب (2014)، ص:7.

[2] - التواصل: نظريات ومقاربات لجاكبسون وآخرين، ترجمة عز الدين خطابي وزُهور حوتي، منشورات عالم التربية،البيضاء (2007)،ص8.

2 - التواصل عند البلاغيين العرب القدامى:

الباحث في البلاغة العربية القديمة يسجل عنايتها بالتواصل، منذ كانت البلاغة إنجازا وإبداعا، ثم ازداد ذلك في النماذج التأسيسية المبكرة لبلاغة التنظير. فمنذ أول صحيفة مدونة في النقد والبلاغة، وهي صحيفة بشر بن المعتمر، تم الاهتمام بوسائل الإقناع، وبأساليب التأثير في المتلقي. وجاء ذلك في سياق الأجواء الكلامية التي عرفها العهد الأموي ثم العباسي. فالمعتزلة اشتهروا بعنايتهم بالخطابة وبالحجاج في سياق دفاعهم عن مذهبهم وفي سياق ردودهم ومناظراتهم لمن كان يحاجهم في أمور العقيدة من فرق كلامية أخرى.

وقد ترددت آراء بشر وما جاء في صحيفته الحجاجية عند البلاغيين العرب الأوائل، كالجاحظ الذي يُعد من أوائل المؤسسين للنقد والبلاغة في تراثنا العربي القديم. فالجاحظ في البيان والتبيين قام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان. فهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني."[1]

ومن البلاغيين الأوائل الذين اهتموا بالحجاج والإقناع ابن وهب في كتابه "البرهان في وجوه البيان". فابن وهب، في هذا العمل، نظَّر للجدل وللحجاج وصنف في ذلك أبوابا،

وبعد تطور البحث البلاغي العربي وتأصيله مع البلاغيين المؤسسين استمر الاهتمام ببلاغة الإقناع، وبأطراف التخاطب والتواصل. ويبدو ذلك جليا في تعريفاتهم للبلاغة والفصاحة وفي مختلف المباحث البلاغية التي أظهروا فيها اهتماما بالمبدع والمتلقي ومقام التخاطب.

فالباحث في أساليب البيان والمعاني والبديع يجد حضورا مكثفا لقضايا المقام والشروط المقامية ومقاصد المتكلم وأغراضه وطبيعة المخاطب وسياق التخاطب، بل إن كثيرا من الظواهر الأسلوبية عندهم يتم تفسيرها بمقتضيات التخاطب. ففي كل مباحث البلاغة العربية نجد حضورا لهذه الأطراف التداولية والتخاطبية. وقد وجدنا صدى ذلك يتردد كذلك عند النقاد العرب القدامى في أحكامهم على الإبداع الشعري وفي موازناتهم ومفاضلاتهم بين الشعراء، وفي

[1] - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 28.

معظم مباحثهم النقدية كقضية اللفظ والمعنى وقضية المعاني المتداولة وقضية القدماء والمحدثين وقضية الطبع والصنعة وفي دراستهم للأساليب البلاغية عند الشعراء والمبدعين

اهتم البلاغيون العرب بفكرة المقام وظروف التخاطب اهتماما بالغا يظهر في مختلف مباحث البلاغة العربية وأساليبها، وعلى أساسها تمت مقاربة معظم أساليب علم المعاني. وقد كانوا مهتمين غاية الاهتمام بأطراف التواصل، ويتجلى ذلك في مختلف علوم البلاغة،بدءا من تعريفاتهم للبلاغة وعلومها،إذ نجد عندهم في تلك التعريفات ما يدل على استحضارهم للبعد التواصلي والتخاطبي للأسلوب البلاغي. فالبيان عندهم علم تعرف به طرق الدلالة المختلفة، والمعاني علم تعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال. بل إن المتكلم لا يكون موصوفا بالبلاغة عندهم إلا إذا كان قادرا على البيان والإيضاح، مع مراعاة مقتضى الحال. وعندما نتأمل مباحث البلاغيين العرب المختلفة، نجد حضورا واضحا للبعد التواصلي، ولأطراف التخاطب، نصادف ذلك في أبحاثهم البيانية، كما نجده أكثر وضوحا في مباحثهم المتعلقة بأساليب علم المعاني. ولا نعدمه في المباحث البديعية على خلاف ما قد يظن البعض.

3 - البعد التواصلي للمفاهيم البلاغية الكبرى

3-1- البعد التواصلي لمفهوم البلاغة:

حينما نتأمل التعريفات الاصطلاحية التي قدمها البلاغيون العرب القدامى للبلاغة؛ نجد حضورا واضحا لأطراف التواصل ولسياق ومقام التخاطب، إذ نجد عندهم اهتماما واضحا بالمرسِل والمرسل إليه. وبالرسالة التي ينبغي أن تكون عندهم بليغة مُبينة وفي معرض حسن، وكذا بالمقام التواصلي وضرورة مراعاته. قال أبو هلال العسكري: "البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، **وبلغتها غيري**. ومَبْلغُ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة، لأنها تُنْهي المعنى إلى **قلب السامع** فيفهمه.

والبلاغة عند أبي هلال هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسنٍ. فدل هذا على أن شرط البلاغة عند أبي هلال العسكري أن يبلغ المعنى قلب السامع وأن يكون اللفظ مقبولا عنده، وفي هذا التعريف ما فيه من الدلالة على استحضار المرسل إليه/المخاطَب في عملية التخاطب، فاشتراط بلوغ المعنى إلى قلب المرسِل في تعريف البلاغة، وليس فقط سمعه يدل على المراهنة على التفاعل والتواصل بين أطراف العملية

التواصلية. فالمرسِل مطالب بأن يُمكِّن المعنى في أجهزة الاستقبال عند المخاطَب كما هو متمكن عنده.

ومما قاله عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث في تعريفها: " البلاغة الفهم والإفهام، وكشف المعاني بالكلام"[1].

والبلاغة في المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، أي كيفية راسخة في النفس يقدر بها صاحبها على أن يؤلف كلاما مطابقا لمقتضى الحال، فصيحا في أي معنى قصده وفي أي نوع أراده. وفي التعريف إشارة إلى المتكلم بصفته مرسِلا وإلى قدرته على تأليف الكلام البليغ المطابق للحال التي يستدعيها ذلك الكلام أو لتلك الرسالة التواصلية. كما تضمن التعريف التنبيه إلى القصد والإرادة، وكلها عناصر ذات صلة بالتواصل.

وتحضر الشروط التواصلية في كل مشتقات البلاغة عند البلاغيين فالمبالغة عند أبي هلال العسكري: "أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه"[2].

ومثاله في القرآن قول الله تعالى: (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد). الحج: 2

قال أبو هلال: ومن المبالغة نوع آخر، وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكده، ويلحق به لاحقة تؤيده.

غير أن البلاغيين قيدوا المبالغة بشروط حتى تبقى في دائرة أغراضها التواصلية: "أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته"، فإذا خرجت عن تلك القيود صارت غلوا وإيغالا.

والمبالغة المقبولة عند البلاغيين من البديع المعنوي. وقيدت بالمقبولة إشارة إلى أن من المبالغة ما لا يقبل، فلا يعد من هذا البديع. وقد اختلف العلماء في قبول المبالغة وردها.

ويؤكد البلاغيون في تعريفهم لبلاغة الكلام على ضرورة مراعاة السياق التواصلي، فالبلاغة في الكلام عندهم، مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. فلا تتحقق البلاغة عند أرباب المعاني إلا إذا كان الكلام فصيحا مطابقا لما يقتضيه حال المخاطب وهذه شروط تواصلية وتداولية واضحة.

---

[1] - ينظر العمدة 247/1. وقد قيلت في البلاغة أقوال كثيرة لا داعي إلى الاطناب في سردها، ومن أراد التفاصيل فليعد إلى العمدة لابن رشيق القيرواني العمدة 241/1 وما بعدها، أو إلى معجم البلاغة للدكتور بدوي طبانة الصفحة 78وما بعدها.

2 - كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص: 331.

وعموما فالبلاغة هي قدرة المتكلم على تأليف كلام بليغ موافق لظروف التخاطب وسياقاته،يعبر فيه عن قصده ومراده. كلام يصل مغزاه إلى المخاطب فيفهمه ويستوعبه.

إنها بلغة العصر الكفاية التواصلية التي يمتلكها المتكلم، فيتمكن بفضلها من التواصل بكلام بليغ فصيح في مواقف مختلفة،فيراعي ما يقتضيه الموقف التواصلي والسياق التداولي، ويستحضر ما يقتضيه تأليف الكلام في كل نوع من أنواع الخطاب وكل فئة من فئة المخاطبين.

قال بشر بن المعتمرفي صحيفته: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المستمعين، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1].

وقال الجاحظ في بلاغة الخطيب: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوزَ الحق في مقدار حسن الظن بها،آمنها فأودعها تهاونَ الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغلٍ مقدارٌ من الوهَن، ولكل وهَنٍ مقدار من الجهل"[2].

فينبغي للمرسل أن يراعيَ أحوال المخاطب إذا أراد أن يكون كلامه بليغا، فمثلا عندما يكون المخاطَب/المرسل إليه منكرا للحكم فتلك حال تقتضي أن يؤكد المرسِل الحكم في رسالته. ولذلك التأكيد اعتبار مناسب وهو مقتضى الحال، ويتفاوتُ مقتضى الحال بحسب المقامات والأحوال، إذ المقام الذي يدعو إلى تنكير المسند إليه أو المسند يباين المقام الذي يناسبُ تعريفه، أي لا يكون هناك مقام يناسب التنكير والتعريف معا، والمقام الذي يناسب تقديم المسند أو المسند إليه يباين المقام الذي يناسب تأخيره. ومقام ذكر المسند إليه يباين مقام حذفه كذلك، ومقام إطلاق الحكم يباين مقام تقييده، وكذا مقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الاطناب والمساواة...

[1] - البيان والتبيين، ص: 109.

[2] - المصدر السابق ص: 80.

فالأساليب البلاغية، كلها مرتبطة بالسياق التواصلي، فتأكيد الخبر أو عدم تأكيده أمر خاضع لما يفرضه حال المرسَل إليه. وكذلك الأمر في التعريف والتنكير والحذف والتقديم، وغيرها من أساليب علم المعاني. كل ذلك خاضع لحال المخاطب/ المرسل إليه وللسياق التداولي. لذلك نجد عندهم عبارات من قبيل "حذف لعلم السامع"، أو "حذف لأن المراد مفهوم"، وغيرها من العبارات التي تدل على أطراف التداول والتخاطب.

ويشترط البلاغيون العرب القدامى في كثير من الأساليب الوضوح وأمن اللبس وإلا كان الأسلوب خارجا عن البلاغة. فأسلوب التقديم والتأخير أسلوب بلاغي له مقاصده وأغراضه، لكن إذا لم يؤمن اللبس كان مُخلا بالنظم والترتيب، ولحِق صاحبه النقد والتجريح، واتهم بفساد النظم وبالغموض، كما حصل مع أبي تمام في كثير من أبياته ؛ **من ذلك تعليق الآمدي على** قول أبي تمام:

يدي لمن شاء رهنٌ لم يذق جرَعا *** منْ راحتيْكَ دَرَى ما الصابُ والعسلُ

قال الآمدي: " لفظ هذا البيت مبني على فساد، لكثرة ما فيه من الحذف، لأنه أراد بقوله "لمن شاء رهن" أي أصافحه وأبايعْه معاقدة أو مراهنة إن كان لم يذق جرَعا من راحتيك درى ما الصابُ والعسلُ. ومثل هذا لا يسوغ، لأنه حذف "إنْ" التي تدخل للشرط، ولا يجوز حذفها لأنها إذا حذفت سقط معنى الشرط، وحذف "مَنْ" وهو الاسم الذي صلته "لم يذق" فاختل البيت وأشكل معناه"[1].

وقد استدل أبو القاسم الآمدي على الحذف في اللغة العربية بشواهد من الذكر الحكيم ومن الشعر العربي القديم، وبين أنها صحيحة جيدة لأنها جاءت لأغراض بلاغية وتداولية، فهي جاءت إما اختصارا أو لأن في الكلام ما يدل على المحذوف أو لعلم المخاطب بالمحذوف.

ليس هذا فحسب، بل إن الآمدي يصر على رفض الحذف في هذا البيت مهما كان التأويل، يقول: "فإن تأول متأول هذا البيت على ألفاظ أخر محذوفة غير اللفظ الذي ذكرته، فالاختلال بعد قائم، (فيه) لكثرة ما حذف منه، وسقوط الدليل عليه"[2].

وإذا تقرر أن البلاغة في تعريفها قد عرفت حضورا واضحا للبعد التواصلي، فماذا عن الفصاحة؟

---

[1] - الموازنة ج1/190

[2] - الموازنة ج1/ 192

الفصاحة: من قولهم: "أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره"[1]، وغرضها الإبانة والإظهار. وهي ملكة يقتدر بها المتكلم على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح".

قال أبو هلال العسكري: "وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمامُ آلةِ البيان"[2].

ويحضر البعد التواصلي كذلك بوضوح في تعريف فصاحة المتكلم. ففصاحة المتكلم عند البلاغيين: ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح.

هذا فيما يتعلق بالبلاغة والفصاحة، وما في تعريفهما من حضور لأطراف التواصل. ولنتأمل الآن تعريفات المفاهيم الأخرى المرتبطة بعلوم البلاغة وحظها من التواصل.

3-2- البعد التواصلي لمفهوم البيان:

والبيان عند البلاغيين،"لغة: الكشف والتوضيح والظهور. وهو في الاصطلاح عبارة عن المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير. وقد يستعمل بمعنى الاثبات بالدليل"[3]. وهو كذلك "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض. وسمي "علم البيان" لأنه له مزيد تعلق بالوضوح والبيان، من حيث أن علم البيان يعرف به اختلاف طرق الدلالة في الوضوح والبيان. وعلم البيان هو الذي يحترز به عن التعقيد المعنوي[4].

لذلك فالمرسِل البليغ، عند البلاغيين، هو من يسلك طرق وأساليب البيان، ومن يكون قادرا على التعبير بطرق مختلفة بغرض تحقيق الفهم والإفهام.

يقول بدوي طبانة: "والبيان في عرف الكلام أتم من كل واحد من الفصاحة والبلاغة، لأن كل واحد منهما من مادته، وداخل في حقيقته. ولذلك قلنا علم البيان، وتكلمنا فيه في الفصاحة والبلاغة وغيرهما، ولم يوضع علم للفصاحة، ولا علم للبلاغة"[5].

ويشترط البلاغيون العرب الإبانة والإفهام في كل الأساليب البلاغية. فعندما نتأمل مقومات الأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وتمثيل ومجاز وكناية،نجدها مرتبطة أشد الارتباط بالبيان والإفهام؛ إذ يؤكد البلاغيون على ضرورة الإفهام وتحقيق البيان في كل أساليب البيان.

---

[1] - كتاب الصناعتين ص 14

[2] - المصدر نفسه، ص14.

[3] - معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، دار ابن حزم، بيروت، ط4 (1408هـ-1977م)، ص: 100.

[4] - المرجع نفسه، ص: 100-101.

[5] - معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ص: 101-102.

فالوظيفة الأساس لكل أسلوب بياني هي البيان والكشف عن المعنى في أجلى صورة وأوضح طريقة. فالتشبيه لا يكون عندهم تشبيها جيدا إلا إذا كان تشبيها قريبا، والاستعارة المليحة هي الاستعارة المناسبة القريبة. فإذا باعد الشاعر بين أطراف الصورة اتهم بالغموض وبمخالفة مذهب الأوائل، وبأنه خالف عمود الشعر.

والمتأمل في هذا التعريف يسجل اهتماما واضحا بالمرْسَل إليه، وبالتواصل معه وإفهامه، لذلك فالمرسِل البليغ هو من يسلك طرق وأساليب البيان، ومن يكون قادرا على التعبير بطرق مختلفة قصد التواصل مع المخاطب/ المرسَل إليه بوضوح وإفهام. لذلك فالبيان عند أبي الحسن الرماني: هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، و"البيان: الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من عقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم البيان"[1].

وبعض البلاغيين يسمي علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) علم البيان، لتعلقها جميعا بالبيان، وهو النطق الفصيح المعرب عما في الضمير.

ونجد عند الجاحظ في "البيان والتبيين" تعريفا للبيان فيه اهتمام واضح بأطراف العملية التواصلية، يقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجُمَ على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2].

فكل الوسائل التي تكشف عن المعنى وتجعل السامع يتمكن من مراد المتكلم ويفهمه، هي عند الجاحظ وسائل بيانية؛ لذلك عدَّ اللغة والإيماء والإشارة واللفظ مما يكشف عن المعنى.

وهذا يبين بوضوح البعد التواصلي للبيان، فالجاحظ جمع بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي، يقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات"[3].

---

[1] - العمدة لابن رشيق،ج1، ص:254

[2] - البيان والتبيين، ج 1، ص70.

[3] - المصدر السابق، ج 1، ص70.

ولم يكتف بهذه الإشارات، بل توقف طويلا عند كل وسيلة، من تلك الاوسائل، واستدل عليها من كلام العرب، وأحوالهم.

وهو ما استفاد منه ابن وهب الكاتب فزاد الأمر وضوحا؛ فجاء عنده البيان وأقسامه وأنساقه أكثر جلاء وتنظيما وبسطا في كتابه البرهان في وجوه البيان.

وقد توقف محمد العمري عند هذه التعريفات الثلاثة وخلص إلى أن "مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي؛ أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها، حتى وإن اقتضى الإجراء التعليمي تقديمها منفصلة أو ساكنة أحيانا"[1].

وأضاف: "فالشيء المركزي الثابت في كتاب البيان والتبيين هو الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة: الوسائل اللغوية والإشارية خاصة"[2].

وقد بينَ الجاحظ نقلا عن "بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني....أن المعاني القائمة في صدور الناس المصورة في أذهانهم مستورة خفية...لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس وتحل المنعقد وتجعل المُهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مألوفا، والغُفل موسوما والموسوم معلوما"[3].

فالتواصل لا يحصل بين المتكلم والمخاطب إلا بذكر كل طرف المعاني الخفية وما هو مكنون في صدره والإخبار بذلك واستعماله وتداوله. وبعبارة أخرى فالتواصل بين الناس هو الذي يمكن من التعبير عن المعاني المكنونة في الصدور وخروجها إلى مجال التداول والاستعمال فيتحقق الفهم والإفهام.

---

[1] - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها العمري، ص: 191 و194.

[2] - المرجع السابق، ص: 191.

[3] - البيان والتبيين ج 1، ص70.

3-3- البعد التواصلي لمفهوم المعاني:

عرف السكاكي علم المعاني بقوله: "اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلم في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطإ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره؛ وأعني بتراكيب الكلام: التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عمن سواهم"[1].

فهذا التعريف فيه تنبيه إلى وظيفة علم المعاني المتمثلة في جعل الكلام البليغ وفق ما يقتضيه المقام، وذلك بمراعاة حال المخاطبين، وظروف التخاطب. فالوقوف عند خواص الكلم في الإفادة وما يتصل بها يجنب المرسِل الخطأ في إجراء الكلام على ما يقتضي الحال أمر مهم في البلاغة. وهذا مقصد تواصلي تداولي واضح بينٌ لمن تدبره. فقد يكون الكلام صحيحا تركيبيا ودلاليا لكنه لا يناسب المخاطب الذي ألقي إليه، إما لخلل في الأسلوب أو في غرضه ومقصديته أو لأن المخاطَب ليس ممن يخاطب بهذا الخطاب، كأن يختار المرسِل أسلوب الأمر في مقام يفرض الالتماس، أو أسلوب التحقير في مقام يفرض المدح والتعظيم، أو يجعل في كلامه حذفا أو إيجازا أو تقديما لا يقبله المقام التواصلي. فمن أصول علم المعاني أن يُخاطبَ كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من الأدب واللغة.

- الأبعاد التواصلية لأساليب علم المعاني وأغراضها

إن الأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولد من أمرين اثنين:

- بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها؛
- والمعاني المستفادة من الكلام ضمنا بمعونة القرائن.

فمباحث علم المعاني من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أي لحال السامعين، والمواطن التي يقال فيها، كما أن هذه المباحثَ تُرينا أن القول لا يكون بليغا كيفما كانت صورته حتى يلائمَ المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي ألقي إليه.

ومن أصول علم المعاني كذلك أنْ يُخاطبَ كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من الأدب واللغة. وتتمثل مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضا في الإيجاز والإطناب، فلكل أسلوب

[1] - مفتاح العلوم، للسكاكي، ص247.

مقاماته التي يقتضيها حال السامع ومواطن القول. ولا يخفى ما لعلم المعاني وأساليبه من عناية بالتواصل وبكل أطراف العملية التواصلية.

- الأبعاد التواصلية لمباحث أغراض الأساليب ومقاصدها:

الأمر الثاني الذي يبحث فيه علم المعاني، والذي له علاقة وطيدة بالتواصل، بل وبنجاح التواصل، هو دراسة أغراض الأساليب، وبيان ما يستفاد من الكلام من خلال سياقات ومقامات إجرائه. فالكلام يفيد في أصل وضعه معنى يطلق عليه البلاغيون المعنى الحقيقي أو الأصلي، لكنه قد يخرج عن ذلك المعنى الذي وضع له في الأصل ليؤديَ معنىً جديدا تعين على تحديده عناصر المقام التخاطبي. وهذا جانب مهم في التواصل؛ إذ عليه يتوقف التفاهم بين المرسِل والمرسَل إليه، فدلالة الأساليب قد لا تفهم من قبل المتلقي، وقد تؤول تأويلا بعيدا لا يرمي إليه المرسِل، إما لخلل في الرسالة أو في المؤوِّل. لذلك فقد يكون سبب عدم التواصل أن المرسِل لم يراعِ أحوالَ المخاطب، فأرسلَ رسالةً لم يتلقاها المرسَل إليه بالقبول لأنه لم يفهم مضمونها، أو أوَّلَها تأويلا أعاق التواصل.

لذلك شكلت أغراض الأساليب الخبرية والإنشائية مبحثا من أهم مباحث علم المعاني عند البلاغيين العرب القدامى، ولا تزال تشكل أهم المباحث اللسانية والدلالية والتداولية في اللسانيات الحديثة[1].

وقد بين البلاغيون شروط إجراء الأساليب البلاغية، وتوقفوا عند شروط تأويلها ومقامات إجرائها. فكل أسلوب بلاغي يقتضي شروطا لإجرائه، فأسلوبا الأمر والنهي على سبيل المثال لا يصدران إلا عن جهة تتسم بالاستعلاء، فإذا اختل هذا الشرط أفاد الأمر والنهي دلالات أخرى كالالتماس والنصح والتعجيز والتمني والسخرية وغيرها. والاستفهام له شروط تداولية تتعلق بطريقة إجرائه ليفيد السؤال، كجهل المستفهِم بالمعلومة، وإمكان حصولها، وافتراض معرفة المستفهَم/ المخاطب بالمعلومة. فإذا اختل أحد هذه الشروط خرج الاستفهام إلى دلالات أخرى كالإنكار والتقرير والاستغراب والنفي والتوبيخ وغيرها.

وقد يكون المرسِل/المتكلم مخطِئا بلاغيا في إجراء هذه الأساليب لأنه لم يحترم الشروط المقامية لوضعه في علاقته بالمرسَل إليه، وهي شروط بينها البلاغيون في مباحث هذا العلم؛ كأن

[1] - ينظر، على سبيل المثال – المتوكل 85 و86 و89.

يأمر المخاطَب، وهو ليس في مقام الأمر، أو ينهى دون مراعاة شروط النهي أو يخبر بطريقة لا تناسب المقام التوالي.

لذلك فمراعاة مقتضى الحال أو ما يصطلح عليه حديثا بالسياق التخاطبي، هو مما يجعل الرسالة واضحة ومُتقبَّلة. وهذا مما يبحث فيه علم المعاني. والمخاطب بدوره مسؤول عن سلامة الرسالة بمراعاة الشروط المقامية أثناء تلقي الرسالة وتأويلها. لذلك نجد البلاغيين العرب القدامى قد فصلوا في أساليب علم المعاني كأنواع الخبر وأغراضه، وأقسام الإنشاء ودلالاته، وأساليب الحذف والتقديم والقصر والإيجاز والاطناب والوصل والفصل وغيرها. وحشدوا لذلك شواهد متنوعة من تراثنا النثري والشعري.

والباحث في تحليلات البلاغيين العرب يجد عناية واضحة بأطراف العملية التواصلية، ويتجلى ذلك أكثر لما نقف عند حديثهم عن تنوع أشكال الخبر وأضربه حسب حال المخاطب، أهو جاهل بالخبر، أم متردد في تصديقه، أم منكر، وكيف ينبغي إلقاء الخبر حسب هذه الأحوال. كما يبرز ذلك عندهم أكثر في مباحث الإنشاء الطلبي: النداء والتمني والأمر والنهي والاستفهام، وفيما تفيده تلك الأساليب الطلبية من معان وأغراض مقامية، حسب مقاصد المتكلم، ونوع المخاطب، وعلاقة المتكلم بهذا المخاطب وطبيعة كل منهما، وبالنظر إلى الطبقة المقامية، وإلى ظروف التخاطب، وشروطه المكانية وغيرها.

وهكذا فالأمر والنهي عندهم ليسا دائما دالين على الأمر والنهي، بل قد يفيدان الدعاء كما هو الحال في قوله تعالى في أواخر سورة البقرة ﴿ربنا لا تُواخِذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحملْ علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به، واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ سورة البقرة، الآية: 286.

وقد يخرجان إلى الالتماس أو النصح والتوجيه أو التعجيز والتحدي أو السخرية والتهكم، وغير ذلك من الأغراض التي يحددها سياق التخاطب وظروفه وطبيعة العلاقة بين المرسل/ الآمر والمرسل إليه/ المتلقي الذي قد يكون مدعوا أو ممدوحا أو منصوحا أو غير ذلك مما يقتضيه مقامه ومنزلته.

والاستفهام قد يفيد التعجب والاستغراب أو الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿أإفكا آلهة دون الله تريدون﴾ سورة الصافات، الآية:86.

ويفيد التقرير كما في قوله تعالى: ﴿ألم نشرحْ لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾.

و يفيد الطلب أو الاقتراح أو الالتماس أو التعظيم والافتخار أو التحقير أو الاستبعاد...

إن الوقوف عند دلالات الأساليب وأغراضها التداولية أمر مهم؛ إذ يسهِم في نجاح التواصل، وفي فهم دلالات الأساليب العربية واستعمالاتها، وفي ضبط خصائص النصوص الأسلوبية، وبالتالي في قراءة النصوص وتفسيرها وتأويلها بناء على أغراض تلك الأساليب التي تُحدَّد طبقا للقرائن المقامية والسياقية، ولمقتضيات المقام التخاطبي.

لذلك نستطيع أن نقرر دون تردد أن مباحث علم المعاني في بلاغتنا العربية هي مباحث تداولية وتواصلية بامتياز. وقد تترتب عن الإخلال في استعمالها وتلقيها عوائق في التواصل بل توتر العلاقة بين أطراف التواصل ولنقف عند هذه النماذج المستوحاة من تواصلنا المعاصر على سبيل المثال لتتضح أهمية هذه الأساليب في نجاح التواصل أو إخفاقه.

4) البلاغة والتواصل الاجتماعي الناجح

إن العلاقات الاجتماعية المعاصرة تشهد عدة مظاهر لغياب التواصل، بسبب سوء توظيف هذه الأساليب، مما يعيق التواصل بين أطراف العملية التواصلية.

فالمتأمل في استعمال هذه الأساليب في التواصل اليومي سيدرك، لا محالة، قيمتها في نجاح التواصل أو إخفاقه. بل يدرك أن كثيرا من الخلافات بين أطراف العملية التواصلية يكون بسبب الخلل في استعمال تلك الأساليب. فقد نبه البلاغيون إلى أن من البلاغة "مطابقة المقال لمقتضى الحال"، وعبروا عن ذلك بعبارات دقيقة، كقولهم "لكل مقام مقال"، و " لكل كلمة مع صاحبتها مقام". لكن عندما نتأمل كثيرا من أنواع التواصل في واقعنا نجد أن المتكلم/ المرسِل والمخاطب/المرسَل إليه، غالبا ما يخرقان هذه الضوابط التواصلية. فالمتكلم كثيرا ما يخالف المقام، فينشئ خطابا غير ملائم للشروط المقامية، أو لسياق التواصل. والمخاطب بدوره غالبا ما يسيء فهم العبارة لأنه يفسرها ويؤولها بعيدا عن مقام إجرائها، فلا يسهم في التواصل الفعال.

ففي الأسرة، على سبيل المثال، تنشأ صراعات بين أطرافها غالبا بسبب أسلوب القول، الذي لم يراع مقام التواصل ومراتب الأطراف، أو لأن المتلقي لهذا الأسلوب لم يكن موفَّقا في الفهم والتأويل، فحمَّلَ العبارة ما لا تحتمله، أي تلقى الأسلوب تلقيا مخالفا لمقاصد المرسِل.

فلنفترض هذا الحوار في سياق تواصلي أسري بين الابن وأبيه أو بينه وبين أمه:

لنفترض أن الابن يقول لأبيه:

1) ناولني عشرة دراهم، أريد شراء بعض اللوازم المدرسية؛
2) اعطني مصروف الجيب؛
3) لا تسلني أين كنت؟ أنا كبرت؛
4) لا تدخلْ إلى غرفتي عندما أكون مع أصدقائي؛

ولنفترض أنه يخاطب أمه بمثل هذه الأساليب:

1) إنك لم تنظفي ملابسي جيدا؛
2) لقد تأخرتِ عن إحضار وجبة الغذاء؛
3) طعامُك لم يعد يعجبني؛
4) أنت تتدخلين في ما لا يعنيك؛ أتركيني وشأني؛

وتخيلْ كم ستكون هذه الجمل أكثر قسوة وعنفا لو قيلت بالعامية؟!

إن إجراء هذه الجمل بهذه الطريقة، في طبقة مقامية معروفة، وفي سياق تواصلي محدد هو إجراء خاطئ؛ لأن المقام الذي أجري فيه الكلام: مقام الابن مع أبيه أو مع أمه، يشير إلى علاقة مقامية تفرض أن يحترم المتكلم/الابن المخاطبَ/الأب أو المخاطبة/الأم.

فالجمل صحيحة تركيبا ودلاليا، فهي جمل تامة، كلام مفيد، لكنها غير صحيحة بلاغيا ومقاميا؛ لأن المتكلم لم يراع مقام المخاطب، وهو مقام يستدعي أن لا يأمر فيه ولا ينهى بل يلتمس، ويطلب بأدب، فلو أنه غيَّر تلك الجمل فأجراها على الشكل الآتي لحصل التواصل والتفاهم بينه وبين المخاطب (الأب أو الأم).

تأمل لو قال هذا المتكلم /الابن لأبيه:

- أبي، من فضلك ! لم يعدْ عندي مصروف الجيب؛
- اطمئنْ يا أبي الغالي ! كنت فقط أذاكر مع أصدقائي؛
- هل يمكنك يا أبي أن تتركني مع أصدقائي في غرفتي لبعض الوقت؛
- أبي، من فضلك ! إنْ كان هذا لا يزعجك، أريد أن أخلو مع أصدقائي في غرفتي هذا المساء.

بالطبع سيكون رد الأب إيجابيا، بل سيشجعه، وسيشعر بالسرور لأن ابنه تعلم وتخلق بآداب الحوار.

ولننظر إلى هذه الجمل، ولنفترض أنها جاءت في مخاطبة الابن لأمه بدلا من الجمل السابقة:

- أمي الحنون ! أتعبتكِ في تنظيفي ملابسي، لعلَّ الآلةَ اليوم لم تكنْ صالحة، فبقِيَ هذا اللباس متسخا شيئا ما.
- هل بإمكانك يا حبيبتي أن تحَضِّري الغذاء مبكرا، يجب علي أن أذهب إلى الكلية.
- أمي كمْ سيكون طعامك لذيذا لو قللتِ الملح .
- اطمئني حبيبتي، لا تقلقي علي، كنت مع صديق محترم نتعاون في إنجاز بعض الواجبات.
- أنتظرك يا حبيبتي، حان وقت العمل، هل الغذاء جاهز؟

كيف سيكون شعور الأم؟ وكيف سيكون رد فعلها؟ وكم ستثمر هذه العبارات من تفاهم وتواصل بين الأطراف المتحاورة؟

إذا قارنا بين هذه التعابير وبين التعابير السابقة، سنجد أن الفارق أسلوب إجراء الطلب أو الأمر؛ ففي النماذج الأولى كان الأمر مباشرا، فيه سلطة، مع أن المتكلم ليس في وضع سلطة، بل في وضع من يخاطب صاحب السلطة (الأب والأم)، بينما جاء التعبير عن الطلب في النماذج الثانية مؤدبا، يحترم مشاعر المخاطب، ويراعي العلاقة التي تربط بين المتكلم والمخاطب.

وما قيل عن التواصل بين الابن والأب أو الأم، يقال عن أطراف أخرى، كثُرت الشكوى بشأن سوء التواصل بينها، ووصلت إلى المحاكم، ويتعلق الأمر بالتواصل بين الزوجين. فأوضاع الأسرة اليوم، تعرف تصدعا وخلافات حادة، في كثير من الأحيان، بسبب شكل التواصل وأساليبه التي لا يطبعها الاحترام والتقدير.

وإذا تأملنا في بعض المشاكل الزوجية، نجدها مرتبطة بأسلوب القول، وبطبيعة الردود على هذا القول. فلنفترض أن الحوار السابق الذي جرى بين الابن وأمه، كان بين الزوج وزوجته وكانت ردود الزوجة على الشكل التالي:

س : أنتِ لم تنظفي ملابسي جيدا؛

ج : أنا لست عاملة عندك؛

س : لقد تأخرتِ عن إحضار وجبة الغذاء؛

ج : أنت دائما هكذا، لا تراعي ما أقوم به؛

س : طعامك لم يعد يعجبني؛

ج : وهل تحضر أنت ما يصير به الطعام معجِبا؟

هذا فقط مثال مفترض، وإلا فما يجري في اللغة اليومية، قد يكون أعنف من هذا، خاصة حينما يكون الحوار بالعامية.

هذا الحوار يكشف عن أزمة في أسلوب التواصل بين الزوجين، لو تم استبدال هذا الأسلوب بالأساليب الآتية سيكون التواصل ناجحا لا محالة، وسيترتب عنه التفاهم بدل التشاجر.

س: أتعبتكِ في تنظيفي ملابسي، لعلَّ الآلةَ اليوم لم تكنْ صالحة للتنظيف بشكل جيد.

ج : أعتذر ، لعل خللا ما قد حدث، لا بأس، سأعيد تنظيفها من جديد.

س : هل بإمكانك تحضير الغذاء مبكرا، أنا مضطر للذهاب إلى العمل مبكرا.

ج : حسنا، سأعمل جهدي ليكون الغذاء في الموعد.

س: كمْ سيكون طعامك لذيذا لو قللتِ الملح.

ج: أعتذر، سأعمل على ذلك، أنا بدوري لا تعجبني كثرة الملح في الطعام.

وإذا كان هذا شأن التواصل الأسري، فلننظر إلى ما يحدث يوميا خارج الأسرة بين الأصدقاء وبين العمال ومشغليهم، وبين التجار وزبنائهم، وبين المتجولين في الطرقات والحدائق العمومية، وبين رواد المقاهي ومن في خدمتهم... لنتخيلْ حجم العنف اللفظي الذي يحدثُ يوميا بين هذه الفئات، بسب سوء استخدام الأساليب البلاغية، وما يحدث من صراعات ونزاعات قد تصل إلى المحاكم في أحسن الأحوال، إن لم تنته بالعنف الجسدي. وحينما يتدخل الآخرون لفك النزاع، تجد كل طرف يحاول أن يدافع عن نفسه بأنه لم يكن يقصد ما فهمه الطرف الآخر. فلماذا لا نتعلم كيف نعبر وكيف نتواصل حتى نسلم من هذه الخلافات؟!

لنفترض هذا الحوار بين صديقين:

- س : غدا، إن شاء الله ، يجب أن ترافقني إلى الكلية، سأدفع بعض الوثائق إلى الإدارة.
- ج : هل أنا أعمل عندك، ما هذه الوقاحة ؟ !
- س : كيف تعتبر هذه وقاحة؟
- ج : ألم تنتبه إلى ما قلت؟
- س : أنا لم أقلْ شيئا، طلبت منك فقط أن ترافقني إلى الكلية، لأني أرغب في مرافقتك.
- ج : لكنك تكلمت بلغة الأوامر، تعلمْ أولا كيف تخاطب أصدقاءك..
- س : طيب، يسرني يا صديقي أن تكون معي غدا في مهمة بالكلية إن كان ذلك ممكنا.
- ج : مرحبا، أنا أيضا يسعدني أن أكون معك.

لماذا كادت الصداقة أن تفسد في الحوار السابق؟

بكل بساطة لأن الطالب (س) لم يطلب من صديقه مرافقته بأدب، بل خاطبه وكأنه يملك سلطة عليه. ولأن الطالب (ج)، قد فهم من صيغة العبارة سلطة وأمرا. فلما صحح (س) طريقة الطلب وأسلوبه، استجاب (ج) بدون تردد.

هذا النوع من الحوار هو ما يجري يوميا في أسرنا ومدارسنا ومعاملنا وأسواقنا وطرقاتنا. حوارات لا تثمر تواصلا، لأن الأساليب المستعملة في التخاطب غير ملائمة، لم يتم التعبير عنها بطريقة فيها احترام وأدب، ولأن جهاز الفهم والتأويل عند المخاطبين أيضا قد يستقبِل العبارات أحيانا بتأويل فاسد لا يقتضيه السياق التواصلي.

لقد حان الوقت لنحيا بالبلاغة... لنتواصل بالبلاغة... لنصحح علاقاتنا التواصلية وما يطبعها من خلل بالبلاغة.

حان الوقت لنُخرِج البلاغة من الرفوف والدهاليز، ونعود بها إلى مجال الحياة الرحب، مجال التواصل والتداول. وذلك أمر لا يتحقق إلا إذا قمنا بتبسيط الدرس البلاغي وإشاعته بين المتعلمين على الأقل، بأجمل صورة وبأحسن طريقة.

وإذا كان الباحثون والدارسون المعاصرون في البلاغة قد أنجزوا بحوثا ودراسات مهمة في البلاغة وتحليل الخطاب، وفي البلاغة والحجاج، فإنه ما يزال ثمة مجالات خصبة للبحث والدراسة؛ يأتي في مقدمتها مجال البلاغة والتواصل الاجتماعي الناجح.

الفصل الثالث

علوم البلاغة العربية وأهم أساليبها

الفصل الثالث – علوم البلاغة العربية وأهم أساليبها

تمهيد

صارت علوم البلاغة العربية واضحة المعالم والمباحث بعد ظهور أعمال عبد القاهر الجرجاني ومن تلاه من علماء البلاغة الذين هذبوا أعماله وبوبوها في مباحث مبوبة تتنوع بين موضوعات تنتمي إلى علم البيان وأخرى تنتظم ضمن علم المعاني ومباحث تندرج ضمن علم البديع. وهكذا أصبح لكل علم مباحثه وموضوعاته.

علم البيان:

يعد علم البيان أحد علوم البلاغة الثلاثة، وهو، عند البلاغيين، "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض".

وبعبارة أخرى فهذا العلم يهتم بقدرة المتكلم البليغ على التعبير عن المعاني بطرق مختلفة، تتنوع بين الحقيقة والمجاز ويكون بعضها أوضح من بعض. ومثال ذلك أن يقول المتكلم في وصف خالد بالكرم:

خالد كالبحر في العطاء،أو خالد بحر لا ساحل له، أو استقر الجود في بيت خالد فأبى أن يتحول عنه ... وغير ذلك من التعابير الدالة على الكرم بلفظ غير مباشر. ومثاله أيضا أن يقال في وصف المرأة الجميلة:

إنها لامرأة جميلة، أو هي كالشمس إشراقا، أو كالبدر نورا وضياء. أو أقبلت الشمس فأضاءت البيت، أو أطلت الشمس تحمل وردا، وغير ذلك من التعابير المجازية. فعلم البيان يبحث في هذه القدرة عند المتكلم البليغ على التعبير عن المعنى المراد بطرق مختلفة.

ومن جهة أخرى فعلم البيان يحترز به عن التعقيد المعنوي. وسمي "علم البيان" لأنه له مزيد تعلق بالوضوح والبيان، فبه تعرف طرق الدلالة المتعددة في الوضوح والبيان. فقد يضطر المتكلم إلى التشبيه أو الاستعارة قصد إيضاح المعنى المراد التعبير عنه. ويزداد هذا الأمر أهمية حينما يتعلق بالأمور المعنوية والمجردة، فإنها تخفى عن الإدراك، فلما يتم تشبيهها بالمحسوسات تتضح وتنجلي صورتها في الأذهان.

ويشتمل هذا العلم على أساليب أهمها:

- التشبيه
- الاستعارة
- الكناية
- المجاز المرسل

وكل أسلوب يتفرع إلى أنواع، وله أدوات وصيغ يتحقق بها، وله وظائف يؤديها في التعبير. وفيما يلي توضيح لهذه الأساليب، دون اطناب، مع تقديم أمثلة وتحليلها ليتضح للطالب والمتعلم كل أسلوب من أساليب البيان، دون تعقيد ولا تمحل.

1- التشبيه

تعريفه:

التشبيه بيان أن شيئا أو أشياء شاركتْ غيرها في صفة أو أكثر، بأداة كالكاف ومثل وكأن وغيرها. وبعبارة أخرى فالتشبيه تمثيل شيء بشيء لجامع بينهما. أو إلحاق شيء بشيء في صفة مشتركة بينهما، فعندما يقول المتكلم:

ا - خالد كالأسد في الشجاعة

ب - هند كالبدر في الضياء.

فإنه شبه (خالدا) في المثال الأول ب (الأسد)، في صفة مشتركة بينهما، هي: الشجاعة. فخالد (المشبه) لا يشبه الأسد في كل شيء، فهو مختلف عن الأسد في أشياء كثيرة، لأنه انسان عاقل اجتماعي ... لكنه يمتلك صفة الشجاعة في المعركة، لذلك تم تشبيهه بالأسد.

وهند في المثال الثاني، شبهت ب (البدر) في صفة الضياء، لكنها تختلف عن البدر في عدة صفات، فهي انسان عاقل كذلك، لكنها تتصف بالبياض والضياء فأشبهت البدر في ذلك.

أركان التشبيه:

يقوم التشبيه على أربعة أركان، هي:

1- المشبه: وهو الشيء المراد توضيحه أو تمثيله؛

2- المشبه به: وهو الشيء الذي تم به التوضيح والتمثيل؛

3- الأداة: وهي الوسيلة التي بها يتم التشبيه، وقد تكون:

- ✓ حرفا نحو: " ك" و "كأن" .
- ✓ فعلا نحو: (يشبه – يشابه – يحاكي- يبدو...).
- ✓ اسما نحو: (مثل – شبه – مماثل – مشابه....)

وقد تكون الأداة مذكورة أو محذوفة.

4- وجه الشبه : ويقصد به الصفة أو الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به.

ففي المثال السابق نجد:

المشبه	المشبه به	الأداة	وجه الشبه
خالد	الأسد	الكاف	الشجاعة
هند	البدر	الكاف	الضياء

نماذج توضيحية

نماذج من القرآن الكريم

قال الله تعالى:

1) ﴿يوم يكون الناس كالفَراش المبثوث وتكون الجبالُ كالعِهن المنفوش﴾ القارعة 4-5.

في هذه الآية الكريمة تم تشبيه (الناس) في أرض المحشر ب (الفَراش) المتفرق على وجه الأرض للدلالة على الكثرة والانتشار في أرض المحشر، وتم تشبيه الجبال، بعد أن زُلزلت ودُكت فتفرقت أجزاء، بالصوف المُجزَّء للدلالة على هوْل المشهد.

المشبه	المشبه به	الأداة	وجه الشبه
الناس	الفراش المبثوث	الكاف	غير مذكور
الجبال	العهن المنفوش	الكاف	غير نذكور

2) ﴿ وله الجوارِ المنشآتُ في البحر كالاعلامِ﴾ الرحمن24

الجواري صفة لموصوف محذوف، والتقدير السفن الجواري، تم تشبيه السفن العظيمة التي تجري في البحر بأمر الله وبتسخير منه عز وجل بالجبال لتعظيم شأنها، وللامتنان على المخلوقين بما سخره الله لهم.

المشبه	المشبه به	الأداة	وجه الشبه
الجوار المنشآت	الأعلام	الكاف	غير مذكور

3) ﴿واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾ الكهف 45.

في الآية تمثيل لحقيقة الحياة الدنيا الفانية الزائلة، التي تخدع الناس بشهواتها وفتنها، فالدنيا تشبه نباتا في الأرض أصابه ماء فاخضر، وصار في صورة معجبة، ثم أصبح هشيما تذروه الرياح وتتطاير به، وكأنه لم يكن قبل في تلك الصورة المُعجبة. وهو تشبيه محسوس تدركه الحواس، وصورته معهودة عند الناس لأنهم يلاحظون ذلك في الطبيعة القريبة منهم والمشاهدة بالعيان. والغرض تنبيه المخاطبين إلى عدم الاغترار بالدنيا ومتاعها لأنها لا تدوم، وسرعانما تزول.

4) ﴿أوَ منْ كان ميّتا فأحيَيْناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون﴾ الأنعام 122.

في الآية استفهام يفيد النفي، أي لا يستوي من أحياه الله بالقرآن والإيمان، فأصبح يمشي بنور من ربه، ومن هو في ظلمات الكفر والجهل لا يملك ما يبصر به. فالمؤمن حي يبصر بنور الإيمان والهداية، بعدما كان ميتا، أي ضالا جاهلا بعيدا عن نور الإبصار، والكافر ميت ضال متخبط في الظلمات لأنه لا يملك النور الذي به يستنير. فكيف يستويان مثلا؟

قال عبد القاهر الجرجاني في هذه الآية: « ثم لما كان هذا مستقرئ في العادة، أعني جعل الجاهل ميتا خرج منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد، ثم لما لم يكن علمٌ أشرف وأعلى من العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزله على النبي - صلى الله عليه وسلم - جعل من حصل له العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وجد الحياة وصارت صفةً له مع وجود نور الإيمان في قلبه وجعل حالته السابقة التي خلا من الإيمان كحالة الموت التي تعدم معه الحياة وذلك قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ وأشباه ذلك.»[1].

- نماذج من الحديث النبوي:

من أبرز أساليب الحديث النبوي أسلوب التشبيه، إذ كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستعمل التشبيه في خطابه قصد البيان والتوضيح والإقناع والتأثير. من ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم:

1) «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواه البخاري ومسلم.

شبه الرسول – صلى الله عليه وسلم – المؤمنين المتعاونين المتراحمين المتعاطفين فيما بينهم، بالجسد الواحد، عندما يصاب عضو منه بالداء، تشعر جميع أعضائه بالحمى. أي أن الجماعة المؤمنة، إذا حصل لأحدها مكروه، تتضامن معه، وتتعاطف معه ولا تدعه يواجه ذلك المكروه وحده، شأنهم في ذلك شأن الجسد الواحد الذي تتضامن جميع أعضائه مع العضو المريض حماية له.

1) « مثلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثلُ الحي والميت». رواه البخاري

[1] - أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 64.

في الحديث حث على الذكر، وتنبيه المخاطبين إلى أن القلوب بالذكر تحيا ، وبتركه تموت، فشبه الذي يذكر الله بالحي، والذي لا يذكر الله بالميت. وفي ذلك دلالة على أن لا حياة للإنسان إلا بالذكر.

2) « مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة: طعمها طيبٌ، وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة: طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مر.» صحيح البخاري.

في هذا الحديث تم تشبيه أحوال الناس مع القرآن بأشياء من الطبيعة، قصد الترغيب في قراءة القرآن والانتفاع به.

3) وفي رواية أنس إضافة «ومثلُ الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك منه ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل نافخ الكير، إن لم يصبك من سواده؛ أصابك من دخانه». صحيح الترغيب للألباني.

في هذا الحديث تمثيل للجليس الصالح ولمنافعه، فأقل ما يستفيده المرء من الجليس الصالح الريح الطيبة التي يكتسبها من عاشرَ بائعَ المِسْكِ،أما من عاشر أهل السوء، فشأنه كمن جالس نافخ الكير، فأقل ما يصاب به دخانه. وفي الحديث ترغيب في مجالسة ومصاحبة الصالحين، وترهيب من معاشرة رفقاء السوء؛ لما قد ينتج عنها من تأثر بأخلاقهم السيئة.

نماذج من الشعر العربي:

- قال المعري مادحا:

أنت كالشمس في الضياء وإن جا ** وزْتَ كيوانَ[1] في علُوِّ المكانِ

شبه الشاعر الممدوح بالشمس، بأداة هي (ك)، ووجه الشبه (الضياء)، فذكر الأداة ووجه الشبه.

- وقال آخر:

كأن أخلاقك في لطفها ** ورقةٍ فيها نسيمُ الصباحِ

[1]- كيوان: زحل وهو أعلى الكواكب.

شبه الشاعرأخلاق المخاطب في لطفها ورقتها بنسيم الصباح، بأداة هي (كأنَّ)، وذكر وجه الشبه (لطفها رقة فيها).

- وقال آخر:

كأنما الماء في صفاء ** وقد جرى ذائبُ اللجيْنِ[1]

شبه الشاعر الماء في صفائه، بفضة مذابة، وذكر أداة التشبيه (كأنَّ)، ووجه الشبه (في صفاء)، فالتشبيه.

- وقال ابن المعتز:

وكأن الشمس المنيرةَ ديـ ** نارٌ جلَّتْه حدائدُ الضَّرَّابِ

شبه ابن المعتز الشمس المضيئة المنيرة بعملة نقدية تمت تنقيتها من الشوائب حتى صارت لامعة(دينار). وكل هذه التشبيهات واضحة وبسيطة لأنها جاءت بجميع أركانها. وقد يتم حذف بعض أركان التشبيه فينقسم إلى أنواع بحسب الأركان ذكرا وحذفا. وهذا ما سأبينه فيما يلي:

أنواع التشبيه:

تختلف أحكام أركان التشبيه، عند البلاغيين العرب القدامى، من حيث الذكر والحذف.

أما **الطرفان**: المشبه والمشبه به؛ فلا يجوز الاستغناء عن أي منهما، إذ لا يتم التشبيه إلا بوجودهما معا. وأما الأداة ووجه الشبه؛ فيجوز حذف أحدهما أو حذفهما معا. وبناء على ذلك ينقسم التشبيه إلى أنواع هي كما يلي:

- التشبيه المرسل: ما ذكرت فيه أداة التشبيه، ومثاله: خالد كـالأسد في الشجاعة.
- التشبيه المؤكد: ما حذفت منه أداة التشبيه. ومثاله: خالد أسد في الشجاعة.
- التشبيه المفصل: ما ذكر فيه وجه الشبه. ومثاله: خالد كالأسد في الشجاعة.
- التشبيه المجمل: ما حذف منه وجه الشبه. ومثاله: خالد كالأسد
- التشبيه البليغ: ما جاء بدون أداة ولا وجه شبه. أي التشبيه المؤكد المجمل. ومثاله: خالد أسد.

[1]- اللجين: الفضة.

ففي قول البحتري:

هو بحر السماح والجود فازددْ *** منه قربا تزددْ من الفقرِ بعْداً

شبه الشاعر الممدوح بالبحر، ولم يستعمل أداة التشبيه لكنه صرح بوجه الشبه (السماحة والجود). ويسمى هذا النوع: **تشبيها مؤكدا مفصلا.**

وفي قوله تعالى: (**وله الجوارِ المنشآتُ في البحر كالاعلامِ)** الرحمن24، ورد التشبيه دون ذكر وجه الشبه لكن الأداة ذكرت. أي لم يتم التصريح بالصفة المشتركة بين المشبه (السفن) والمشبه به (الجبال). ويسمى هذا النوع : **تشبيها مرسلا مجملا**.

وقد يأتي التشبيه بدون أداة ولا وجه شبه كقولك: **خالد أسد**. إذ تم تشبيه خالد بالأسد دون ذكر للأداة ولا لوجه الشبه. ويسمى هذا النوع : **تشبيها بليغا** أو **تشبيها مؤكدا مجملا.**

ويميز البلاغيون كذلك بين أنواع التشبيه باعتماد عدة معايير أهمها معيار التركيب والإفراد ومعيار الوضوح والخفاء.

ومن أنواع التشبيه:

1) التشبيه الضمني؛
2) التشبيه التمثيلي ويسمى أيضا التمثيل أو التشبيه المركب ؛

تعريف التشبيه الضمني:

التشبيه الضمني تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلْمحان في التركيب. ويأتي هذا النوع لبيان أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن.

ومن أمثلته:

- قال أبو تمام:

لا تنْكري عَطلَ الكريم من الغِنى *** فالسيْلُ حربٌ للمكان العالي

فأبو تمام يبين لمخاطبته أن تعرض الكريم للفقر بعد الغنى أمر ممكن، ولا غرابة فيه، ولا ينبغي إنكاره، لأن الطبيعة تعرف ذلك، فقمة الجبل أول ما يسبق إليه المطر، ومع ذلك فالسيل لا يبقي الماء في القمة بل يجري به إلى السفح، وكذلك شأن الكريم، فرغم كثرة ماله، إلا أن

الإنفاق والكرم لا يبقي عنده مالا. وذلك ليس مدعاة للإنكار. فحال الكريم مع نفاد المال كحال قمة الجبل مع نفاد الماء. فالتشبيه هنا ليس صريحا، بل بفهم ضمنيا.

- وقال ابن الرومي:

قد يشيبُ الفتى وليس عجيبا *** أن يُرى النَّوْرُ في القضيبِ الرطيبِ

يعبر الشاعر ابن الرومي في هذا البيت عن إمكانية ظهور الشيب في رأس الشاب رغم أنه ليس في سن الشيخوخة، و لا غرابة في ذلك، فإن الغصن الصغير قد يظهر فيه النَّوْرُ، وما دام ذلك ممكنا، فالشيب في رأس الشاب أيضا ممكن ولا غرابة فيه. فالتشبيه هنا ليس صريحا بل يفهم ضمنيا، فحال الفتى مع الشيب كحال الغصن الرطيب مع النَّوْرِ.

وقال المتنبي مادحا:

فإنْ تفقِ الأنام وأنت منهم *** فإن المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

لما بالغ المتنبي في مدح سيف الدولة، توهم أن هناك من يعترض عليه، فكيف يكون سيف الدولة متفوقا على ملوك عصره وأهل زمانه هذا التفوق؟ فأجاب بأن حال سيف الدولة مع أهل زمانه في التفوق عليهم، والتميز عنهم، كحال المسك ضمن دم الغزال، فالمسك أفضل ما في هذا الدم، رغم أنه بعض منه.

والمتأمل في هذا النوع من التشبيه، يسجل أنه يأتي في سياق حجاجي تداولي، فالشاعر يُحاجِج به من يعترض عليه فيما ادعاه في شأن سيف الدولة من تفوقه وتميزه على ملوك عصره، وعلى أهل زمانه، مع أنه منهم، ببيان إمكانية حدوث ذلك، والدليل تفوق المسك على سائر دم الغزال، رغم أنه بعض منه. فالوظيفة الحجاجية لهذا التشبيه بادية لا غبار عليها.

2) التشبيه التمثيلي:

حينما تتعدد العناصر في التشبيه، أي في أطراف التشبيه (المشبه والمشبه به) يسميه البلاغيون مثلا أو تمثيلا، ومن أمثلته:

1) قال تعالى : ﴿واضربْ لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان اللهُ على كل شيء مقتدرا﴾ الكهف

ففي الآية الكريمة، لم يتم تشبيه عنصر بعنصر، بل تم تشبيه عدة عناصر، هي(الحياة الدنيا – أموالها – زينتها – زخرفها - ...) بعدة عناصر، هي (ماء – نبات – الأرض – الهشيم – الرياح...).

فالحياة الدنيا بزينتها وأموالها وأولادها وفتنها وشهواتها، شبهت بذلك النبات الذي أصابه الغيث فنما واخضر حتى صار في صورة معجِبة، ثم جاء الصيف فاصفر ويبس، فلما هبت الرياح تطايرت به، فلم يعد له أثر. فذلك مثل الحياة الدنيا، في سرعة زوالها حتى لا يغتر بها مؤمن. فالتشبيه – هنا – جاء صورة مركبة من عدة عناصر، لذا سماه البلاغيون: تمثيلا.

2) قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواه البخاري ومسلم

في هذا الحديث النبوي تم تمثيل المؤمنين في : (توادهم – تراحمهم – تعاطفهم) ب الجسد (الجسد – عضو مريض – أعضاء سليمة متضامنة – الحمى)، فثمة عناصر عدة في كل طرف، لذلك سمي: تمثيلا.

3) وقال امرؤ القيس[1]:

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سُدولهُ *** عَليَّ بأنْواع الهمومِ ليبتلي

لما اشتد الليل على امرئ القيس وطالت مدته، صوَّره وشبه بموج البحر، وقد أرخى سدوله، وابتلاه بهموم متنوعة. يقول: " ورب ليل يحاكي أمواج البحر في توحشه ونكارة أمره، وقد أرخى عليَّ سُتورَ ظلامه مع أنواع الأحزان، أو مع فنون الهم ليختبرني: أأصبرُ على ضروب الشدائد، وفنون النوائب أم أجزع منها؟! "[2].

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِه *** وأردفَ أعْجازا ونَاء بكَلْكَلِ

خاطب امرؤ القيس الليل، على سبيل الاستعارة (وكأنه إنسان عاقل)، بعدما رأى إفراطه في الطول، وزادت أحزانه ومعاناته فيه، ملتمسا أن يؤذن بالصباح، وإن كان الصباح ليس بأفضل من الليل عند امرئ القيس، فهو يقاسي الهموم بالنهار كما يعانيها ليلا، يقول:

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي *** بصبحٍ وما الإصْباحُ منْك بأمثلِ

[1]- شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص: 33

[2] - المصدر نفسه،ص: 33-34.

لذلك تعجب من هذا الليل الذي بدا له وكأن نجومه شُدَّت بحبال من الكتان إلى صخور صلبة، يقول:

فيالكَ من ليلٍ كأنَّ نُجومَه *** بأمْراسِ كتَّان إلى صُمٍّ جَنْدَلِ

فالمتأمل في أبيات امرئ القيس، يجد أنه لم يشبه شيئا واحدا بشيء واحد، بل شبه عدة عناصر بعدة عناصر؛فهناك الليل والأمواج والهموم والنجوم والحجر الصلب وحبل الكتان، لذلك جاء التشبيه عنده: تشبيها تمثيليا،فالأمر يتعلق بصورة الليل وما يقاسيه الشاعر من هموم،وصورة البحر وأمواجه المتلاطمة. وذاك نهجه في معظم تشبيهاته في معلقته،يقول متغزلا:

تضيء الظلامَ بالعشَاء كأنها *** منارةُ مُمسى راهبٍ متبتِّلِ

فالمرأة التي يتغزل بها امرؤ القيس،في عدة أبيات من معلقته، تضيء بنور وجهها ظلام الليل، "فكأنها مصباح الراهب؛ لأنه يوقده ليهتديَ به الضلال؛ فهو يضيئه أشدَّ الإضاءة. يريد أن نور وجهها يغلب ظلام الليل، كما أن نور مصباح الراهب يغلبه"[1].

وهكذا، فالتشبيه التمثيلي تشبيه تعددت عناصره؛ ففيه يتم تمثيل صورة مركبة من عنصرين أو عدة عناصر بصورة مركبة أخرى.

[1]- شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص:32.

أسلوب الاستعارة

تبين مما سبق أن التشبيه لا يتحقق إلا إذا ذكِرت أركانه الأساس: المشبه والمشبه به، وهما طرفا التشبيه. فإذا حذف أحد الطرفين (أي المشبه أو المشبه به)، صار التشبيه استعارة. لذلك قال البلاغيون: الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه.

فعندما تقول على سبيل المثال : بدا اللاعب في الملعب كالأسد.

فقد ذكرت الطرفين: المشبه (اللاعب) والمشبه به (الأسد).

لكن حينما تقول : رأيت أسدا في الملعب.

فأنت لم تذكر الطرف الأول (المشبه / اللاعب)، واكتفيت بالطرف الثاني، وادعيت أنك رأيت أسدا في الملعب، وأنت تقصد لاعبا شجاعا. فهذه استعارة وليست تشبيها

وكذلك لو قلت : زأرَ اللاعب في الملعب.

فأنت زعمت أن اللاعب أسدٌ يزأرُ ، لكنك لم تصرح بالمشبه به (الأسد)، بل اكتفيت بصفة من صفاته (زأر)، فخرجت بذلك من دائرة التشبيه، إلى مجال الاستعارة.

تعريف الاستعارة:

عرفها الجاحظ بقوله: "الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه". وعرفها ابن المعتز بقوله : "هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها".

وقال أبو الحسن الرماني في تعريفها: " الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة". ومثل لها بقول الحجاج بن يوسف الثقفي: "إني أرى رؤوسا قد أيْنعت وحان قطافها".

والاستعارة عند أبي هلال العسكري: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض". وقريب منه تعريف عبد القاهر الجرجاني :"الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقُله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"[1].

ويتضح من التعريفات السابقة أن الاستعارة عدول عن الأصل في استعمال اللفظ والعبارة في اللغة، أي استعمالها في غير ما وضعت له في الأصل اللغوي. فأنت على سبيل المثال حين تقول:

[1] - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني،ص: 22.

رأيتُ قمرا يحمل محفظته متوجها إلى المكتبة، فقد نقلت لفظة "قمر" من أصلها اللغوي إلى استعمال جديد فأردت بها "طفلا صغيرا جميلا"، والذي حملك على ذلك التخييل والمشابهة.

فالاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. وهي أيضا تشبيه حذف أحد طرفيه: أي تم فيه حذف المشبه أو المشبه به.

أركان الاستعارة:

- المستعار منه (المشبه به)؛
- المستعار له (المشبه)؛
- المستعار(اللفظ المستعار)؛
- العلاقة بين المستعار منه والمستعار له، وهي المشابهة دائما؛
- القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وقد تكون لفظية أو حالية.

نماذج توضيحية

لو قلت بعد أن قابلتَ عالما من العلماء:

1)صافحتُ بحرا

فهذا التعبير فيه استعارة؛ لأنك شبهت (العالم) (بالبحر)، لكنك حذفت المشبه (العالم) وذكرت المشبه به (البحر)، فهي استعارة تصريحية.؛ وكأنك استعرت للعالم في وصفه صفة البحر، وهي ليست له على الحقيقة بل على المجاز.

كذلك لو قلت:

2) كنت أطالع في الكتاب فقطفت فكرة مهمة عن الحياة.

فلفظ: (قطفت) في هذا المثال استعمل مجازا؛ إذ تم تشبيه الفكرة بالزهرة أو الوردة أو الثمرة وكل ما يقطف، إذن في المثال استعارة، لأننا شبهنا الفكرة بالوردة؛ إذ جعلناها مما يقطف...

لو قلت وأنت تصف دموع طفلة صغيرة كانت تبكي:

3) أمطرتْ عيناها اللؤلؤ

فأنت استعرت (اللؤلؤ) لـ(الدموع).واستعرت الفعل (أمطرت) للعينين، وأنت تقصد: ذرفتْ.

وكذا لو قلت في جواب شخص سألك عن حال صديق مريض:

4) زارته الحمى

فجوابك يتضمن استعارة في (زارته)؛ لأن الحمى شيء مجرد لا يزور، وإنما يزور من يتحرك برجليه. ففي هذا المثال **استعارة مكنية** لأنك حذفت المستعار منه (أي المشبه به) الإنسان، وأبقيت على صفة من صفاته (الزيارة).

المستعار له : الحمى

المستعار منه : الإنسان

المستعار: زار

ولمزيد من التوضيح ففي المثال الآتي استعارة مكنية:

5) بكت السماء فضحكت الأرض

عندما تمر بمنظر طبيعي فتشاهد ما أخرجت الأرض من أزهار وأعشاب مخضرة وورود بألوان مختلفة، وذلك بعد نزول الغيث، فتقول: بكت السماء فضحكت الأرض، وأنت تقصد نزل الغيث فسقى الأرض فأنبتت هذه الأعشاب والأزهار والورود والخيرات.

فقولك ذاك استعارة، يوضحها الشكل الآتي:

المستعار له : السماء والأرض

المستعار منه : الإنسان

المستعار: بكت – ضحكت

الإنسان غير مذكور في هذا المثال، لذلك فالاستعارة مكنيةً.

يقول امرؤ القيس:

ألا أيها الليلُ ألا انجل *** بصبحٍ وما الإصْباحُ منْك بأمثلِ

يخاطب امرؤ القيس في هذا البيت مخاطبا غير عاقل وغير متكلم؛ مخاطب مجرد غير محسوس؛ فالليل لا يسمعه ولن يجيبه، لذلك نقول: إن امرأ القيس قد استعار صفة السمع والكلام من الإنسان وأسندها إلى الليل.

- فالمستعار منه (المشبه به)، هو الإنسان، والمستعار له (المشبه): الليل

- المستعار(اللفظ المستعار): عبارة: أيها الليلُ ألا انجل، لأن الليل لا ينادى، مادام غير عاقل وغير محسوس؛ إذ من صفاته (- إنسان، - محسوس، + مجرد...)، وعبارة (ألا انجلي)، فعل أمر

موجه إلى غير عاقل لا يصح أمره، فأفادت التمني، لأنها من باب طلب المستحيل، وهي – بدورها – استعارة.

والعلاقة بين المستعار منه (الإنسان) والمستعار له (الليل)،هي المشابهة.

أما القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، فهي نفسها العبارة المستعارة (أيها الليلُ ألا انجل).

ويقول:

أفاطم مهلا بعد هذا التدلُّلِ *** وإن كنْتِ قد أزمعْتِ صرمي فأجْملي

أغــركِ مني أنَّ حُــبَّكِ قاتــلي *** وأنك مهما تأمري القلبَ يفعل !

وما ذرفتْ عيناك إلاَّ لِتضْربي *** بسهْميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتَّلِ

ففي هذه الأبيات عدة استعارات، فقد استعار الشاعر صفة (القتل) للحب، وهو شيء مجرد، وجعل القلب مؤتمرا بأمر الحبيبة (مهما تأمري القلب يفعل)، وجعل دموع الحبيبة سهاما تضرب قلب الشاعر المُقَتل... وكل ذلك على سبيل الاستعارة. وفيما يلي توضيح لذلك:

المثال	المستعار منه	المستعار له	المستعار	العلاقة
1	الإنسان (محذوف)	الليل	أيها - انجل	المشابهة
2	الإنسان (محذوف)	الحب	قاتلي – تأمري القلب يفعل	المشابهة
3	السهام	الدموع	تضربي بسهميك	المشابهة
4	محذوف	القلب	قلب مقتل	المشابهة

أنواع الاستعارة:

1) الاستعارة التصريحية:

الاستعارة كما سبق تشبيه حذف أحد طرفيه، فإن صرّح بالمستعار منه (بالمشبه به) كانت الاستعارة تصريحية، ومثال ذلك قول الله سبحانه:(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

ومن هذا النوع قول المتنبي:

فلم أرَ قبلي من مشى البحرُ نحوه *** ولا رجلا قامتْ تعانقه الأسْدُ

ففي الآية الكريمة استعارة تصريحية في لفظتي: "الظلمات– النور"، ويطلق عليهما: المستعار منه، بينما تم حذف المستعار له (الضلال– الهدى والإيمان)، فالله عز وجل ولي الذين آمنوا أي ناصرهم ومعينهم، ومن دلائل تلك الولاية أنه سبحانه ينقذهم من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الإيمان والهداية والعلم،بفضل كتابه المبين وبسنة رسوله المبلغ الهادي إلى صراطه المستقيم.

وفي البيت الشعري مدح للممدوح بأنه بحرٌ في الجود والكرم، أسدٌ في الشجاعة، لكن الشاعر اختار الاستعارة التصريحية لتحقيق هذا المدح فصرح بالمستعار منه (البحر والأسد) وحذف المستعار له (الممدوح).

2) الاستعارة المكنية: وإن حُذِف المستعار منه (المشبه به)، كانت الاستعارة مكنية، كقول الشاعر:

المجدُ عُوفِي إذ عوفيتَ والكرمُ *** وزالَ عنك إلى أعدائِك الألمُ

فقد استعار الشاعر وصف المعافاة من الإنسان (وهو المستعار منه) إلى المجد (المستعار له)، لكنه حذف المستعار منه ولم يصرّحْ به وأبقى على ما يدل عليه (عوفي)، بينما ذكر المستعار له (المجد)، فهي استعارة مكنية.

نخلص مما سبق إلى أن الاستعارة أسلوب بياني يقوم على استعمال الألفاظ والعبارات استعمالا مجازيا، إذ ينقلها من وضعها الأصلي في اللغة إلى وضع جديد، فهي نوع من العدول والانزياح. والاستعارة محكومة بعلاقة المشابهة، فهي تشبيه حذِفَ أحد طرفيه.

ثم هي مجاز علاقته المشابهة. وقد تأتي الاستعارة بسيطة غير مركبة، وقد تأتي مركبة فتسمى حينئذٍ : استعارة تمثيلية.

وتؤدي الاستعارة عدة وظائف في الكلام. فهي تحقق الإيجاز والبيان والمبالغة، كما أنها تؤدي وظائف تعبيرية وتأثيرية وحجاجية وجمالية إبداعية.

بلاغة الاستعارة

حظيت الاستعارة بأهمية كبيرة عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى؛ فهي عند المرزوقي قسمٌ من أقسام الشعر، فأقسام الشعر عنده: "ثلاثة: مثل سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة"[1]. وهي عند عبد القاهر الجرجاني الاستعارة أعلى مقاما من التشبيه، فهي من ناحية أكثر تحقيقا للادعاء وأكثر قدرة على إثبات المعنى المطلوب، وهي من ناحية أخرى أكثر اختصارا وإيجازا من التشبيه[2].

وخص الجرجاني بالذكر الاستعارة المفيدة "لأنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ... فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مُبينَة، والمعاني الخفية بادية جلية... وتجد التشبيهات إلى الجملة غير معجبة ما لم تكنها"[3].

وقال في فضلها كذلك: "وأما الاستعارة، فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة، أنك إذا قلت: "رأيت أسدا"، كنت قد تلطَّفت لِما أردتَ إثباتَه له من فرط الشجاعة، حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوبه"[4].

غير أن المرزوقي قيد الاستعارة بشرطي المقاربة والمناسبة، فجعل مناسبة المستعار منه للمستعار له بندا من بنود عمود الشعر عند العرب، ثم وضح ما يعنيه بالمناسبة فقال: "وعيار الاستعارة الذهن والفطنة. ومِلاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يُكتفى فيه بالاسم المستعار لأنه المنقول عما كان له في الوضع إلى المستعار له"[5].

وذلك ما قرره كثير من البلاغيين والنقاد القدامي قبله ، فالآمدي يقول: "وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه "[6]، وملاك

---

[1] - شرح ديوان الحماسة10/1

[2] - أسرار البلاغة، ص: 41.

[3] - المصدر السابق ،ص: 41.

[4] - دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط 3(1413 هـ/1992م) ص: 72 .

[5] - شرح ديوان الحماسة10/1-11.

[6] - الموازنة 1/ 234. قال ذلك بعدما عدد نماذج لاستعارات أبي تمام البعيدة.

الاستعارة عند القاضي الجرجاني "تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر"[1].

أما عبد القاهر الجرجاني فإنه يفضل الاستعارة الخفية، يقول: "اعلم أن من شأن الاستعارة، أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاءً، ازدادت الاستعارة حسنا، حتى إنك تراها أغربَ ما تكون إذا كان الكلام قدْ أُلِّفَ تأليفا إن أردت أن تُفْصِحَ فيه بالتشبيهِ، خرجتَ إلى شيءٍ تعافه النفسُ / ويلفظه السمعُ، ومثال ذلك قول ابن المعتز:

أثمرتْ أغصانُ راحَتِه *** لِجُناةِ الحُسْنِ عُنَّابا"[2].

وتعد الاستعارة مقوما من مقومات الشعر العربي القديم الأسلوبية التي لا تكاد تخلو قصيدة منها؛ فالشاعر العربي القديم كان غالبا ما يلجأ إلى التصوير الفني القائم على المشابهة،وذلك قصد التعبير عن أحاسيسه ومواقفه،ولجعل المتلقي في صورة محسوسة مما يمر به من تجارب.

[1] - الوساطة بين المتنبي وخصومه ص:41.

[2] - دلائل الإعجاز، ص 450 – 451.

حجاجية الاستعارة (تطبيق)

وقد تكون الاستعارة والتشبيه وغيرها من أساليب البيان وسائل الشاعر للحجاج والإقناع بمواقفه، كما تثبت ذلك عدة نصوص شعرية قديمة وحديثة، فلنتأمل النص الموالي:

قال أحمد شوقي في قصيدته[1]:

زحلة

شَيَّعْتُ أحلامي بِقَلْبٍ باكِ ... ولَمَمْتُ من طُرُقِ المِلاحِ شِباكي

وَرَجَعتُ أَدْراجَ الشَبابِ وَوَرْدَهُ ... أَمشي مَكانَهُما عَلى الأشواكِ

وَبِجانِبي وَادٍ كَأَنَّ خُفوقَهُ ... لَمَّا تَـلَقّـتَ جَهْشَةُ المُتَـباكي

شاكي السِّلاحِ إذا خَلا بِضُلوعِهِ ... فإذا أُهِيْبَ بِهِ فَلَيْسَ بِشاكِ...

لَمْ تَبْقَ مِنَّا يا فُؤادُ بَقيَّةٌ ... لِـفُـتُـوَّةٍ أو فَضْلَةٌ لِعِراكِ

كُنَّا إذا صَفَّقْتَ، نَسْتَبِقُ الهوَى ... وَنَشُدُ شدَّ العُصْبَةِ الفُتَّاكِ

واليومَ تَبعَثُ فِيّ حِينَ تَهُزُّني ... ما يَبْعَثُ الناقوسُ في النُسَّاكِ

يا جارَةَ الوادي طَرِبتُ وعَادَنيْ ... ما يُشْبِهُ الأحلامَ مِنْ ذِكْراكِ

مَثَّلْتُ في الذكرى هَواكِ وَفي الكَرى ... والذِّكرياتُ صَدى السِنيْنَ الحاكي

ولَقَدْ مَرَرْتُ عَلى الرياضِ بِرَبْوةٍ ... غَنّاءَ كُنتُ حِيالَها ألقاكِ

ضَحِكَتْ إليَّ وُجوهُها وَعيونُها ... وَوَجّدتُ في أنفاسِها رَيّاكِ

لَمْ أَدرِ ما طِيْبُ العِناقِ عَلى الهَوى ... حتَّى تَرَفَّقَ ساعِدي فَطَواكِ

وتأَوَّدَتْ أعْطافُ بانِكِ في يّدي ... واحمَرَّ مِنْ خَفَريهِما خَدَّاكِ

وَدَخَلْتُ في لَيلَينِ فَرْعَكِ والدُجى ... ولَثَمْتُ كَالصُبْحِ المُنَوَّر فاكِ ...

وتَعَطَّلَتْ لُغَةُ الكَلامِ وخاطَبَتْ ... عينيَّ في لُغَةِ الهَوى عَيْناكِ ...

لا أَمْسِ مِنْ عُمْرِ الزمانِ ولا غدٌ ... جُمِعَ الزَمَانُ فَكانَ يَوْمَ رِضاكِ

[1] - يتذكر في قصيدته أياما قضاها في المدينة اللبنانية ذات الطبيعة الرائعة(زحلة).

دراسة الاستعارة في القصيدة

فلنتأمل مطلع القصيدة والأبيات الأولى منها، لنرى كيف عبر الشاعر أحمد شوقي عن تحسره على أيام شبابه، وكيف كان التشبيه والاستعارة وسيلتيه الفنيتين في ذلك: (شَيَّعْتُ أحلامي - لمْلمتُ من طُرُقِ المِلاحِ شِباكي). فأحمد شوقي يتحسر على مضي فترة شبابه التي كان يطمح فيها إلى ما يطمح، ويهوى ما يهوى.لكن لما شاب لم يعد له سبيل إلى ذلك، بل صار يمشي على الأشواك، لذلك خاطب فؤاده متحسرا :

لمْ تبْقَ مِنَّا يا فؤادُ بقيةٌ *** لفتوةٍ أو فضلةٌ لِعراك.

وكنا إذا صفقتَ نسْتبِقُ الهوي *** ونشدُّ شدَّ العُصبة الفُتاك.

وجعل الشاعر الاستعارة وسيلته التعبيرية عن ذلك،فالفؤاد يصفق والأحلام تشيّعُ والأهواء والطموحات شِباك... ووجوه الطبيعة وعيونها تضحك وخدودها تحمر... سيْل من الاستعارات التي صور بها الشاعر إعجابه بالطبيعة. وتزداد الاستعارة حضورا حين يشرع الشاعر في مخاطبة زحلة، وكأنه يخاطب وينادي إنسانا عاقلا يسمع ويجيب:

ياجارة الوادي طربتُ وعادني *** ما يشبه الأحلامَ من ذكراكِ

ثم أخذ يقص عليها ذكرياته الجميلة، وكيف وجد الطبيعة ضاحكة مستبشرة لما مر على الرياض بربوة ذكرته بطبيعة زحلة الفاتنة.

ليس هذا فحسب، بل ادَّعى أن تلك الربوة استقبلته بحفاوة: " ضَحِكَتْ إليَّ وُجوهُها وَعيونُها"،ووجد في أنفاسها نضارة زحلة ورياها. بل تخيل الأغصان تنحني إليه فيعانقها، وتحمر خداها حياء وخجلا... استعارات كثيرة في القصيدة حولتها إلى قصيدة غزلية، وكأن الشاعر يتغزل بامرأة، يقول:

لَمْ أَدرِ ما طِيبُ العِناقِ عَلى الهَوى *** حتَّى تَرَفَّقَ ساعِدي فَطَواكِ

وتأَوَّدَتْ أعْطافُ بانِكِ في يّدي *** واحمَرَّ مِنْ خَفْريهِما خَدَّاكِ

وَدَخَلْتُ في لَيلَينِ فَرْعَكِ والدُّجى *** ولَثَمْتُ كَالصُّبْحِ المُنَوَّر فاكِ...

ثم لننظر كيف عبر أحمد شوقي عن مشاعره وأحاسيسه، وهو ينخرط في هذا الجمال الأخاذ، فتبدو له خضرة الطبيعة ليلا، ويجتمع الليل المتخيل مع الليل الطبيعي، فيزداد تعلق الشاعر بالطبيعة ويتعمق انخراطه فيها،فيقبّل فمها المضيء، ثم تتعطل لغة الكلام بين الشاعر وبين محبوبته، فتنوبُ عنها لغةُ الهوى بين العينين:

وتَعَطَّلَتْ لُغَةُ الكَلامِ وخاطَبَتْ *** عينيَّ في لُغَةِ الهَوى عَيْناكِ...

لا أَمْسِ مِنْ عُمْرِ الزمانِ ولا غدٌ *** جُمِعَ الزَمَانُ فَكانَ يَوْمَ رِضاكِ

وهكذا تمكن أحمد شوقي من إبداع نص شعري جميل، بوسائل فنية متنوعة،احتلت فيها الاستعارة مكانة متميزة؛ إذ بفضلها صارت القصيدة مشهدا حواريا بين الشاعر والطبيعة، تتخلله لوحات تصويرية رائعة. وقد ضاعف من جمالية الصورة الشعرية في هذه القصيدة، أنها ليست صورا جزئية، بل صورا مركبة من عدة عناصر، أسهم فيها التشبيه والاستعارة والأساليب الخبرية والأساليب الإنشائية والوصل بالواو وروابط النفي والإثبات والتأكيد والقصر والصيغ الصرفية والتكرار والتجنيس والإيقاع بمختلف عناصره.

وإذا كانت الاستعارة قد لعبت وظائف تخييلية وجمالية في القصيدة، فإن الأساليب الخبرية لعبت وظائف أخرى نصية وحجاجية وتعبيرية؛ إذ ترجمت أحاسيس الشاعر، وكشفت عن مشاعره ومواقفه اتجاه الطبيعة،وعن طريقها تعرفنا على إعجابه وانخراطه التام في جمال زحلة لدرجة إلغائه حدود الزمان:

لا أَمْسِ مِنْ عُمْرِ الزمانِ ولا غدٌ *** جُمِعَ الزَمَانُ فَكانَ يَوْمَ رِضاكِ

الاستعارة تعبير يومي

تغيرت نظرة الباحثين إلى اللغة وإلى كثير من أساليبها وتعابيرها مع ظهور اللسانيات المعرفية، والاستعارة من أبرز تلك الأساليب التي تغير النظر إليها؛ فقد أصبح ينظر إلى التعابير الاستعارية على أنها تصورات فكرية قبل أن تكون تعابير لغوية، وهي ليست مقتصرة على الأدب أو الشعر بل توجد في اللغة اليومية وفي أشكال التواصل اليومي، يقول لايكوف:"فالتعميمات الحالية للتعبيرات الاستعارية ليست في اللغة وإنما في الفكر: إنها ترسيمات عامة عبر مجالات تصورية، وعلاوة على ذلك فإن هذه المبادئ التي تتخذ شكل ترسيمات تصورية لا تنطبق فحسب على التعبيرات الشعرية الجديدة، بل على الكثير من اللغة اليومية المعتادة"[1].

ليست الاستعارة أسلوبا في الكلام الفصيح فقط، بل هي شائعة في لغتنا اليومية، نتواصل بها، ونتفاهم، ومن أمثلتها:

- ✓ قرصني الجوع
- ✓ حرقتني الشمس
- ✓ ضربتني الشمس
- ✓ ضربني البرد ...

ومن المهم أن نعرف أن الاستعارة اليومية تمارس فعلها فينا، فكلما كانت إيجابية كلما أثرت في أخلاقنا وتصرفاتنا، وكلما كانت سلبية أشاعت فينا أخلاقا سيئة. لذلك ينبغي العمل على إشاعة الاستعارة الإيجابية في الأسرة والمجتمع قصد تنمية التواصل الإيجابي وإشاعة القيم الإيجابية.

تأثير الاستعارة في مو اقف الإنسان وتصرفاته:

للاستعارة تأثير في مواقف الإنسان وقيمه وما يصدر عنه من تصرفات وسلوكات يومية. لذلك اهتم لايكوف بأثر المفهوم الاستعاري في صناعة الموقف والسلوك الإنساني. وفي هذا السياق تحدث عن الخطاب السياسي الأمريكي بين المحافظين والليبراليين، ورأى أن تصورا

[1] - النظرية المعاصرة للاستعارة، لايكوف، ترجمة طارق النعمان، مكتبة الاسكندرية، ص:7.

استعاريا يحكم رؤاهم السياسية، وقد أفرز هذا التصور كل المواقف والرؤى السياسية التي نادى بها أو ينادي بها كل حزب خلال حمالاته الانتخابية.

وحينما نرجع إلى واقعنا نجد أن من يملك تصورات معينة يتصرف بمقتضاها حتى وإن كانت غير سليمة؛ فمن يعتقد أن الوقت – على سبيل المثال - لا قيمة له، تصدر عنه تعابير استعارية تدل على ذلك، ويتصرف طبقا لتلك التصورات؛ فتجده يبذر وقته في أمور تافهة.

كيف نستثمر التعابير الاستعارية في التربية على القيم الإيجابية ؟

للاستعارة تأثير على القيم والأخلاق؛ إذ تتحول الاستعارات اللفظية - أحيانا - إلى سلوكات وتصرفات وأفعال إما إيجابية وإما سلبية؛ فالذي يصف الآخرين بأوصاف حيوانية (الحمار - الدابة -الضبع)، يعاملهم على هذا الأساس؛ فيحتقرهم ولا ينصفهم، ويسخر منهم...

لذلك ينبغي التفكير في كيفية استثمار الاستعارة في بناء القيم الإيجابية، وفي تغيير الأقوال والتعابير السلبية التي شاعت في المجتمعات، وصارت تنتج عنها تصرفات وأفعال سلبية. ولتحقيق ذلك لا بد من البدء بتقليص التعابير الاستعارية السلبية التي شاعت في المجتمع.

ومن أهم الأساليب البلاغية المؤثرة في التواصل الاجتماعي وفي بناء القيم الاستعارة. فهي سلاح ذو حدين؛ إما أن تكون بانية، وإما أن تكون هادمة. فكيف نستثمر الاستعارة في بناء قيم الخير والجمال؟

1) البدء بتقليص التعابير الاستعارية السلبية التي شاعت في المجتمع، ومنها تلك التعابير التي تحمل المسؤولية للغير وتبرئ النفس:

- هربت عني الحافلة ؛
- غدرني النوم؛
- أغلق علي الباب؛
- سقطوني .. ما نجحونيش...

وغيرها من التعابير التي تبرئ النفس من المسؤولية في التأخر أو في مخالفة القانون وتحملها لشيء آخر.

ومنها تلك التعابير المرتبطة بوصف الإنسان، وتشبيهه ببعض الحيوانات أحيانا احتقارا له وسخرية منه.فالإنسان مخلوق مكرم، وينبغي أن يخاطب بما يحفظ كرامته، وبما يليق به كإنسان، طفلا كان أم شابا أم كهلا، ذكرا أم أنثى.

فالمرأة والفتاة والطفلة كلهن تتأذين حينما تنعتن بأوصاف لا تليق بالإنسان، وكذلك الرجل والشاب والطفل. وتزداد الخطورة لما يتعلق الأمر بالأطفال؛ إذ كثيرا ما ينادي الآباء على الأبناء بنداءات سلبية تؤثر تأثيرا عميقا في نفسية الطفل، الذي قد يقتنع بما يوصف به؛ فلا يجتهد ولا يبذل مجهودا في تغيير نفسه:

من أمثلة ذلك:

- وصفه بالمضبوع وبالغبي ...

أثر الاستعارة الإيجابية في التواصل الناجح

لنتأمل الانماذج الآتية:

- عندما يقول الأب أو الأم مخاطبا ابنه:
- هل أنجزت واجباتك يا غزال؟
- ما شاء الله عليك أنت رائع، كيف استطعت الحصول على هذه النتيجة؟
- نورت البيت يا بني !
- إنجازاتك رفعت رأسي بين أصدقائي؛
- أخلاقك تضيء قلبي بهجة؛
- ما هذه الروعة؟ أأنت من كتب هذه اللوحة الفنية؟ !
- تأخرت يا ولدي ، كم كان البيت مظلما في غيابك!

هذه نمادج في عالم التربية الأسرية تبين الفرق بين التعبير الاستعاري الإيجابي والتعبير الاستعاري السلبي. وتتضح قيمة هذه التعابير عند استحضار النماذج السلبية الشائعة في مجتمعنا:

- طيحت بي
- حشمتني قدام الناس

- يا المضبوع
- ما عمرك تديرها زينة
- شوف ولد فلان شحال جاب...

وهذه التعابير ليست مجرد أقوال، بل هي تصورات تتحول إلى سلوكات وتصرفات سلبية في التربية والتواصل، وتنتج عنها ردود فعل سلبية، فكثيرا من الأطفال بل ومن الشباب، اقتنعوا أنهم لا يمكنهم النجاح في أعمالهم بسبب تلك الأوصاف التي - لكثرة ترديدها وسماعها - جعلتهم لا يثقون في قدراتهم، لذلك لا يتردد الواحد منهم، حين تطلب منه مسؤولية من المسؤوليات، أن يقول:

- أنا لا أستطيع فعل ذلك، انظر غيري؛
- أنا مجرد ولية، هذا العمل ليس من شأني؛
- انظر غيري...

حاصل ما سبق بيانه أن التعبير الاستعاري منبثِق من مفهوم وتصور استعاري، وقد يتحول إلى سلوك استعاري، لذلك ينبغي التركيز على تغيير الأفكار السلبية لدى الطفل والمتعلم لأنها تتحول إلى تعابير سلبية ثم إلى تصرفات سلبية.

ويتم ذلك التغيير بإشاعة التعابير الاستعارية الإيجابية وتصحيح التصورات الاستعارية. وهي مسؤولية تتقاسمها عدة جهات؛ بدءا من الأسرة التي ينبغي أن يحظى فيها الطفل بالكلمات والتعابير الاستعارية المشجعة والمحفزة والمعترفة بكرامته. ثم المدرسة التي يقضي فيها المتعلم وقتا طويلا، ويتعامل فيها مع أطراف عدة؛ في مقدمتها المدرس الذي ينبغي أن يكون إيجابيا في خطابه وتواصله وأنشطته التعليمية التعلمية.

ولا تخفى أهمية المناهج الدراسية التي تملك فرصا كثيرة لإشاعة التصورات والتعابير الاستعارية الإيجابية،عن طريق اختيار النصوص والدعامات والصور والأنشطة الغنية بالاستعارات الإيجابية، في كل الأجناس والخطابات، وبكل اللغات.

فالخطابات الأدبية ذات طبيعة استعارية؛ لذا فالانطلاق من نصوص أدبية غنية بالاستعارات الإيجابية سيسهم في ترسيخ الأخلاق والقيم الإيجابية وفي بناء الإنسان.

وهكذا فالتعابير الاستعارية ليست مجرد صور جمالية، بل تعكس تصورات تتحول إلى مواقف وسلوكات وتصرفات. لذلك ينبغي أن نعمل على إشاعة التعابير الاستعارية الإيجابية في المجتمع وفي صفوف الأطفال والمتعلمين. لأن ذلك سيسهم في التنمية وسيحقق التواصل والتفاهم في مختلف المؤسسات الاجتماعية.

أسلوب الكناية

تعريفها:

الكناية في اللغة مصدر كنيت بكذا عن كذا، إذا تركت التصريح به.

والكناية في اصطلاح أهل البلاغة: لفظ أُطْلِقَ وأريدَ به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى.

قال عبد القاهر الجرجاني: «الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي إليه ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: «طويل النجاد»، يريدون طويل القامة»[1].

وقال في بلاغتها: «قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغُ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة».

والكناية تعبير يومي، ففي تواصلنا اليومي، غالبا ما نكني عن أشياء أو صفات؛ فنحن نقول، على سبيل المثال:

- ✓ احذر فلان لأنه طويل اللسان: كناية عن عدم حفظه السر وأنه كثير الكلام.
- ✓ جاء يقدم رجلا ويؤخر أخرى: كناية عن حيرته وتردده.
- ✓ أصبح يضرب يدا في يد: كناية عن ندمه وتحسره.
- ✓ لقد وضعت كلامك في بئر: كناية عن حفظ السر.
- ✓ فلان خفيف اليد: يقال فيمن يسرق.

توضح هذه النماذج أننا نتواصل بالكناية في حياتنا اليومية، وغالبا ما نلجأ إلى الكناية لأغراض تداولية ترتبط بالمقام والسياق التخاطبي؛ فهناك مقامات لا تسمح بالتصريح، فالمتكلم غالبا يكني عن حاجاته وشهواته الطبيعية، ولا يصرح بها حياء.

[1] - دلائل الإعجاز، ص:66.

نماذج من الكناية

1) من القرآن الكريم:

قال تعالى:

- (ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنقِك ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقْعُدَ ملوما محسورا) الإسراء 29 .

جاءت هذه الآية في سياق ما أوصى به الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – في سورة الإسراء، ففيها وصية بالاعتدال في الإنفاق؛ فعبارة (لا تجعل يدك مغلولة)، هي كناية عن الشح والبخل، وليس المراد المعنى الحرفي المفهوم من اللفظ والصورة. وعبارة (لا تبسطها)، كناية عن التبذير، وليس القصد صورة اليد المبسوطة.

- ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ الفرقان 27

فعبارة (يعض الظالم على يديه) هي كناية عن الندم والحسرة.

- (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشْرِك بربي أحداً) الكهف 42. ففي عبارة (يقلب كفيه) كناية عن الندم والتحسر.

-(وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) الزمر 67.

ففي هذه الآية كناية، لا يستقيم الفهم دون استحضارها، فعبارة (والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) " كناية عن تمام التمكن من المقبوض لا تصرف له ولا تحرك، وهذا إيماء إلى تعطيل حركة الأرض وانقماع مظاهرها... وطي السماوات استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أبعاد أجرامها... والباء في (بيمينه) للآلة والسببية. واليمين: وصف لليد ولا يد هنا وإنما هي كناية عن القدرة لأن العمل يكون باليد اليمين"[1].

- (الرحمن على العرش استوى) طه 5، كناية عن تمام القدرة ، وقوة التمكن والاستلاء.

- (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا ياكلان الطعام) المائدة 75.

- (وإن كنتمْ مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحد منكم من الغائطِ أو لامستمُ النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا) النساء 43.

[1] - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تفسير الآية 67 من سورة الزمر.

في عبارتي (جاء أحد منكم من الغائطِ أو لامستمُ النساء) كنايتان؛ الأولة كناية عن الحدث الموجب للوضوء، تمت الإشارة إليه ب : جاء أحد منكم من الغائط، والغائط يطلق على ما انخفض من الأرض، أطلق وأريد به الحدث، لأن العرب كانت تقضي حاجتها في المكان المنخفض تسترا عن الأنظار.

وعبارة (لامستم النساء)، لا يراد بها مجرد اللمس، بل قضاء الشهوة الموجبة للوضوء أو الغُسل؛ فهي كناية عما ينقض الطهارة.

ومعظم الآيات الخاصة بأحكام المعاشرة الزوجية في الخطاب القرآني، جاء فيها التعبير عن ذلك كناية لا تصريحا، من باب التأدب والتعفف[1].

2) **الكناية في الحديث النبوي:**

قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

من الأحاديث التي تضمنت الكناية، ما رواه أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: (إن مثل ما بعثني الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) صحيح مسلم.

ففي العبارة الأخيرة «ومثل من لم يرفع بذلك رأسا»، كناية : فعدم رفع الرأس كناية عن الإعراض والتولي، وعدم الاستجابة للهدى والعلم.

- « لا يُلدَغ المؤمن من جحْرٍ واحدٍ مرتين» البخاري

في الحديث كناية عن فطنة وحزم المؤمن، فالمؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يستغفل، بل هو فطن لا يخدع, وليس المراد المعنى الظاهر.

- «... فإن الرجل منكم ليعملُ بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل الجنة، وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا

[1] - ينظر كتاب الكناية في القرآن الكريم لأحمد فتحي رمضان الحياني....

ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلَ النار». رواه عبد الله بن مسعود (البخاري3332) حديث صحيح.

ففي عبارة (حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع) كناية عن قرب بلوغ الجنة أو النار.

3) الكناية في الشعر العربي

قالت الخنساء في أخيها صخر:

طويل النجاد، رفيع العماد *** كثير الرماد إذا ما شتى

تمدح الخنساء أخاها صخرا، بأنه يتصف بطول القامة، وبشساعة الخيمة وارتفاعها، وبالكرم الذي لا تمنعه قساوة الشتاء. وكل ذلك جاء بأسلوب الكناية.

وجاء في معلقة امرئ القيس:

وتضحي فتيتُ المسكِ فوق فِراشها *** نؤومُ الضحى لم تنْتَطِقْ عنْ تفضُّلِ

يصف امرؤ القيس هنا المرأة التي يتحدث عنها في مقدمته الغزلية - في سياق سرد مغامراته العاطفية- بأنها سيدة، ذاتُ خدَم، وفراشها طيبُ الرائحة، ولا تحتاج إلى وضع النطاق لأن لها من يخدمها.

وكل ذلك عبر عنه كناية لا تصريحا.

وقال الشاعر:

وما يكُ فيَّ منْ عيبٍ فإني *** جبانُ الكلْبِ مهزولُ الفصيل

يفتخر الشاعر في هذا البيت بكرمه، لكنه لم يعبر عن ذلك بلفظ صريح، بل كنى عنه بعبارات تدل عليه، " جبان الكلب" أي أن كلبه قد ألف الضيوف حتى لم يعد ينبح حين قدومهم، و"مهزول الفصيل"، الفصيل صغير الناقة الذي يحتاج إلى الرضاعة، فإذا حرم من الرضاعة هزُلَ، والشاعر يقصد أنه يضطر إلى ذبح الناقة، إكراما للضيف، وإن ترتب عن ذلك حرمان الفصيل من حقه في الرضاعة. وهذا النوع من الكناية سماه البلاغيون كناية عن صفة، ومنه كذلك قول المتنبي:

فمساهم وبسْطهمو حريرُ *** وصبحهم وبسطهمو ترابُ

"فالمتنبي هنا يصف بني كلاب الذين أوقعَ بهم سيف الدولة بأن بسطهم في المساء وقبل الإيقاع بهم كانت من الحرير ثم صارت في الصباح من التراب بسبب ما أصابهم من الأمير سيفِ الدولة.

وقصد الشاعر من وراء هذا التعبير في الواقع أن يصف بني كلاب بأنهم كانوا سادة أعزاء ثم صاروا في الصباح وبعد الإيقاع بهم فقراء أذلاء. وقد عدل الشاعر بتعبيره من التصريح إلى أسلوب الرمز والكناية"[1].

فقد كَـنَّى المتنبي عن حال عزة القوم وترفهم قبل الغزو بعبارة(بسطهم حرير)، وكنى عن حالهم بعد الغزو وما لحقهم من ذل وهوان وخراب بعبارة (بسطهم تراب).

وقال الشنفرى يصف امرأة في العفة:

يبيتُ بمنجاةٍ من اللؤم بيْتُها *** إذا بيوتٌ بالملامةِ حُلَّتِ

يصف الشنفرى هذه المرأة بأنها عفيفة طاهرة، لا يلحق بيتَها عارٌ ولا ملامة، على عكس ما يطال بيوت نساء أخريات من ملامة وعيب نتيجة تفريطهن في العفة. وكل ذلك عبَّر عنه كناية لا تصريحا. والكناية هنا كناية عن صفة.

وقد يبالغ الشاعر في هذا النوع من الكناية؛ فيزعم أن تلك الصفة التي كنى عليها تخص الممدوح ولا تتجاوزه إلى غيره، ومن ذلك قول الكميت مادحا :

فما جازه جود ولا حلَّ دونه ** ولكنْ يسير الجودُ حيثُ يسيرُ

أراد الشاعر أن يمدح ممدوحه بالكرم وأن يثبت له هذه الصفة، فزعم أن الجود ملازم له، لا يغادره إلى غيره، فالكناية هنا، كناية النسبة لأنه جعل صفة الكرم مختصة به.

"وشتان بين الصورتين في الجمال والتأثير: الصورة الصريحة التي نرى فيها الممدوح كريما وحسب، والصورة المقنعة المدعاة التي يرينا فيها الشاعر الكرم إنسانا يرافق الممدوح ويلازمه ويسير معه حيث سار"[2].

وقال الشاعر في البرامكة:

سألت الندى والجودَ: ما لي أراكما ... تبدلتما ذلا بعـــــــزٍّ مؤبَّـــدِ

وما بال ركن المجد أمسى مهذبا ؟ ... فقالا: أصِبْنا بابن يحيى محمدِ

فقلت:فهلاَّ متُّما عند موتـه ... فقد كنتما عبْديْه في كل مشهدِ؟

فقالا: أقمنا كي نعزَّى بفقـــــدِه ... مسافة يومٍ، ثم نتلوه في غـــــدِ

[1]- في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 408.

[2] - في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 412.

يزعم الشاعر، في هذه الأبيات،أن محمدا بن يحيى كان يتصف بالمجد والندى والجود، وأن ذلك كان ملازما له، فلما مات، تغير حال الندى والكرم والمجد إلى حال ذل .... وأنشأ حوارا مع هذه المجردات على سبيل الاستعارة المكنية (قالا – أراكما – سألت الندى ....)، فالأبيات جميعها جاءت بأسلوب الكناية عن صفات الندى والجود والمجد التي اتصف بها المرثي (محمد بن يحيى)، والكناية هنا، فيها مبالغة، لأن الشاعر زعم أن تلك الصفات لازمة للمرثي.

وقد تكون الكناية كناية عن موصوف، كقول الشاعر:

إن الذي ملأ اللغات محاسنا *** جعل الجمال وسرَّهُ في الضادِ

إذ كنى الشاعر عن اللغة العربية بقوله "في الضاد"، فهي كناية عن موصوف.

ومن ذلك قول أبي نواس في وصف الخمر:

فلما شربناها ودبَّ دبيبُها ** إلى موطِن الأسرار قلت لها: قفي

مخافةَ أنْ يسْطُوَ عليَّ شعاعها ** فيطَّلِعَ ندمائي على سرِّيَ الخفي

في عبارة "موطن الأسرار" كناية عن موصوف، يقصد به الشاعر "القلب"، أي: سرى مفعول الخمر إلى القلب أو الدماغ، فخاف الشاعر أن يفقد عقله، إن بالغ في الشراب، فيطلعَ ندماؤه على أسراره. ومن هذا النوع، قول الشاعر في وصف من مات بعلة في صدره:

ودبَّتْ له في موطنِ الحِلْمِ عِلَّةٌ ** لها كالصِّلال الرقش[1] شَرَّ دَبِيبِ

فكنى الشاعر عن الصدر هنا بموطن الحلم؛ إذ من عادة العرب نسبة الحلم إلى الصدر، "فيقولون: فلان فسيح الصدر، أو فلان لا يتسع صدره لمثل هذا"[2].

وقد كان العرب يكنون عن المرأة بالبيضة والسرحة والنعجة والنخلة والناقة وما شاكل ذلك، من ذلك كناية امرئ القيس عن المرأة بالبيضة في قوله:

وبِيضةِ خِدْرٍ لا يُرام خِباؤها ** تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعَجلِ

ومنه ذلك الحوار الطريف بين عنترة وجاريته الذي كنى فيه عن امرأة أبيه بالشاة، فقال:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمنْ حلَّتْ له ** حَرُمَتْ علي وليتها لمْ تَحْرُمِ

فبعثتُ جاريتي فقلت لها اذهبي ** فتحسسي أخبارَها ليَ واعلمي

[1] - الصِلال الرقش: نوع من الحيات، صغير أسود لا نجاة من لدغته، والحية الرقشاء، هي التي فيها نقط سوداء في بيضاء.

[2] - في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 410.

قالت رأيت من الأعادي غِرَّةً ** والشاةُ ممكنةٌ لمنْ هو مُرتمِ

فلننظر إلى هذا الحوار الطريف الجميل بين عنترة وجاريته، وموضوعه امرأة أبيه التي كنَّى عنها عنترة بـ"الشاة"، وتبعته الجارية في ذلك، ثم لننظر كيف جاءت أساليبه البلاغية متنوعة بين النداء المفيد للتعجب والمدح، والتمني المفيد للتحسر، والأساليب الخبرية التي عن طريقها تعرفنا حكاية عنترة مع جاريته، والأفعال الصادرة عنه (فبعثت... فقلت لها ....)، ثم جواب الجارية: (قالت رأيت.... والشاة ممكنة...) وأسلوب الأمر (اذهبي تحسسي...).

فكل تلك الأساليب أسهمتْ في شاعرية هذه الأبيات وطرافتها.

أنواع الكناية

نخلص مما سبق إلى أن الكناية عند البلاغيين أنواع ثلاثة:

1) كناية عن صفة؛
2) كناية عن موصوف؛
3) كناية النسبة؛

وتوقف البلاغيون عند أسلوب الكناية وما يتداخل معه من أساليب أخرى كالتعريض والتلويح والإشارة والرمز والمماثلة[1]. لكن الحرص على تبسيط الدرس البلاغي ووضوحه، والرغبة في عدم الإكثار من المصطلحات والتقسيمات، ثم البعد التعليمي لهذا الكتاب... جعلني أفضل الاقتصار على الكناية، لأن الأنواع الأخرى قد تندرج تحتها؛ فالكناية تعريض وتلويح ورمز وإشارة.

[1] - ينظر، على سبيل المثال، كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص: 320 و334 وما بعدهما، والعمدة لابن رشيق القيرواني 1/ 190 ، والمنزع البديع للسجلماس.

أسلوب المجاز المرسل

تعريفه:

المجاز عند البلاغيين نوعان:

- مجاز علاقته المشابهة، ويسمى استعارة، وقد تقدم بيانها.
- ومجاز تكون العلاقة فيه بين المعنيين غير مقيدة بالمشابهة بل علاقة أخرى فيسمى حينئذ مجازا مرسلا.

لذا قال البلاغيون في تعريفه: المجاز المرسل كلمة استعملتْ في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

علاقات المجاز المرسل:

من علاقات المجاز المرسل: الجزئية ، الكلية ، المحلية ، السببية ، المسببية وغير ذلك من العلاقات التي لا نستطيع حصرها لارتباطها بالمقام التخاطبي.

نماذج للمجاز المرسل:

قال الله تعالى :

1- (هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب) غافر 13.

المقصود في الآية الامتنان على الخلق بأن الله عز وجل ينزل من السماء المطر فيغيث به الأرض التي تصير مثمرة، فلفظ "الرزق" في الآية ، هنا مجاز مرسل علاقته المسببية، فالرزق نتيجة للمطر.

2- (وقال أحدهما إني أرانيَ أعصر خمرا) يوسف، في عبارة " أعصر خمرا"، مجاز مرسل علاقته أعتبار ما سيكون، إذ المراد أعصر عنبا أو ما يصير خمرا.

3 - (واسأل القريةَ التي كنا فيها) يوسف، المراد واسأل أهل القرية، ففي الآية مجاز مرسل علاقته المكانية أو المحلية. وهذا النوع من المجاز يكثر في الكلام العربي، فكثيرا ما يعبر بالمكان والمراد أهل المكان، أو ما في المكان، كقولنا " غرقت السفينة"، والمراد من في السفينة.

4- (وآتوا اليتامى أموالهم)، المعروف شرعا أن اليتيم يحفظ ماله إلى أن يصير راشدا، فكيف يطلب من المخاطبين إعطاء اليتامى أموالهم؟

الجواب أن المراد باليتامى في الآية: الراشدون الذين كانوا يتامى، لذلك فالعبارة مجازية، أي مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

5- وقال تعالى على لسان نوح : (وإني كلما دعوتهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم)؛ ففي عبارة"جعلوا أصابعهم في آذانهم"،مجاز مرسل، علاقته الكلية؛ فالمراد الجزء (جزء من الأصبع)، وعبر عنه بالكل، وهذا يجري في كلام العرب، وفي كلامنا نحن أيضا، نقول: "شربت ماء النهر، وأكلت تمور تافيلالت...."، والمقصود جزء من ذلك كله.

وقد يحصل العكس، فكثيرا ما نعبر بالجزء والمراد الكل، فقد جاء في الشعر العربي لفظ القافية والمراد القصيدة، كما قال حافظ إبراهيم:

"وما بال حبل القوافي غير ممدود؟"

أي:القصائد،وقد يرد لفظ الكلمة والمراد الخطابة في نحو:

ألقى الخطيب كلمة خشع لها الجمهور.

6 - قال تعالى على لسان نوح دائما :(إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) .

المعروف أن المولود يولد على الفطرة، فكيف نفهم ما جاء في الآية؟ المراد أن قوم نوح قد فسدت أحوالهم، وبيئتهم، وبالتالي فلا يمكن أن ينشأ فيهم الطفل على الفطرة، بل ستنحرف فطرته بفعل محيطه الأسري والاجتماعي المنحرف. لذلك يئس نوح من قومه جميعا، فكان ذلك التعبير. فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون.

7- قال تعالى: (إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم). في عبارة " في نعيم" مجاز مرسل علاقته الحالية، "والظرفية في قوله: "في نعيم" مجازية لأن النعيم أمر اعتيادي لا يكون ظرفا حقيقة، شبه دوام التنعم لهم بإحاطة الظرف بالمظروف بحيث لا يفارقه"[1].

1 - ينظر تفسير الآية في التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

نماذج من الشعر العربي

لا اركبُ البحر إني ** أخاف منه المعاطب

طينٌ أنا وهو ماء ** والطين في الماء ذائب

فالمجاز في كلمة البحر، والمراد السفن، التي تجري فيه، فالبحر هو محل جريان السفن، فأطلق الشاعر المحا (البحر) وأراد (الحالَّ (السفن)، وذالك مجاز مرسل علاقته "المحلية". وفي البيت الثاني مجاز مرسل في كلمة "طين"، علاقته "اعتبار ما كان".

وقال الشاعر:

ألِمَّا على "معنٍ" وقولا لقبره *** سقتكَ الغوادي مربعا ثم مربعا

فالشاعر يرثي معن بن زائدة، ويطلب من مخاطبيه أن ينزلا بقبر معن، فيدعوان له بأن تسقيه الغوادي؛أي أمطار الصباح أربعة أيام بعد أربعة أخرى متوالية. فالمجاز في لفظ "معن" يريد قبره، والعلاقة الحالية؛ أطلق الشاعر الحالَّ (معن) وأراد المحل (قبره)[1].

قال عنترة بن شداد:

فشككتُ بالرمح الأصم ثيابه ** ليس الكريم على القنا بمحرَّمِ

فالمجاز المرسل في قول الشاعر " شككت ثيابه"، ويقصد: شككت قلبه أو أي مكان آخر من جسمه يصيب منه الرمح مقتلا. فإطلاق الثياب وإرادة ما يجاورها مجاز مرسل علاقته "المجاورة".

[1] - في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 358.

أساليب علم المعاني والتواصل

تبين مما سبق ضرورة أساليب البيان في التواصل، وذلك ما سنبينه في هذا المبحث المتعلق بأساليب علم المعاني ومباحثه، فالخطاب أي خطاب يتشكل من أساليب علم المعاني، ويتأسس على قاعدتها، فهي العمدة في بناء الخطاب، وهي بالتبع العمدة في أي عملية من العمليات التي تتقصده فهما وتحليلا وتفسيرا وتأويلا.

لذلك فإن أي نوع من أنواع التعامل مع الخطاب، يحتاج إلى التسلح بالمعرفة البلاغية المتعلقة بهذه الأساليب: أنواعا وصيغا وأغراضا ومقاصد.

فأول سورة نزلتْ من الوحي، وهي سورة اِقرأْ، جاءت بهذه الأساليب، ففيها الأمر والاستفهام وما يفيدانه من أغراض مقامية، وفيها التكرار، وفيها الخبر بأنواعه إثباتا ونفيا وتأكيدا وشرطا، وفيها التقديم، والتعريف ... وما تفيده تلك الأساليب من ترغيب وتهديد وزجر وإنكار....

تعريف علم المعاني

علم المعاني: هو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع. وقد كانت البلاغة العربية في أول الأمر وحدة شاملة، لمباحث هذه العلوم بلا تحديد ولا تمييز، وكتب المتقدمين من علماء العربية خير شاهد على ذلك؛ ففيها تتجاور علوم البلاغة ويختلط بعضها ببعض من غير فصل. وشيئا فشيئا أخذ المشتغلون بالبلاغة ينحون بها منحى التخصص والاستقلال. ولما جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري وضع نظرية علم المعاني في كتابه " دلائل الإعجاز"، ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة"، وكان عبد الله ابن المعتز قد وضع قبله أساس علم البديع في كتابه " البديع".

وقد عرف السكاكي علم المعاني بقوله: "إنه تتبع خواص تراكيب الكلم في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطإ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره".

مباحث علم المعاني:

ومن أبرز أساليب علم المعاني عند البلاغيين :

- ✓ الخبر والإنشاء؛
- ✓ أضرب الخبر وأغراضه؛
- ✓ أنواع الإنشاء وأغراضه؛
- ✓ انواع الطلب الخمسة: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء؛
- ✓ أغراض الأساليب الخبرية والإنشائي؛
- ✓ الفعل ومتعلقاته؛
- ✓ التعريف والتنكير؛
- ✓ الذكر والحذف؛
- ✓ التقديم والتأخير؛
- ✓ الوصل والفصل؛
- ✓ القصر، أنواعه، وطرقه؛
- ✓ الإيجاز والإطناب؛
- ✓ ...

أولا: مبحث الخبر والإنشاء

يعد مبحث الخبر والإنشاء من أهم المباحث عند البلاغيين وهو أسلوب تواصلي، لا يكاد يخلو منه أي خطاب في أي شكل من أشكال التواصل .

1) الخبر:

يقول ابن فارس في تعريفه: «أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام. تقول: أخبرته أخبره، والخبر العلم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديقه أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمرا في ماض من زمان أو مستقبل أو دائم، نحو: قام زيد وقائم زيد...»[1].

والخبر عند البلاغيين ما يصح أن يقال لقائله أنه صادق أو كاذب. فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا. ولذا قيل في تعريفه: الخبر كل كلام يحتمل الصدق والكذب.

أنواع الخبر:الخبر عند البلاغيين قد يأتي مثبتا أو منفيا، كما قد يأتي ابتدائيا أو طلبيا أو إنكاريا، حسب من يلقى إليه الخبر.

- فإن كان جاهلا بالخبر ألقي إليه ابتدائيا، مثل قولنا:

1 – قدِم خالد من السفرِ. ويسمى: خبرا ابتدائيا

- وإن كان مترددا في قبول الخبر ، ألقي إليه مؤكدا بمؤكدٍ واحد، نحو:

2 – قد قدِم خالد من السفرِ. ويسمى : خبرا طلبيا

- أما إن كان منكرا للخبر جاحدا له ، فيلقى إليه مؤكدا بمؤكدين اثنين، نحو:

3 - لقد قدِم خالد من السفر. ويسمى خبرا إنكاريا.

وقد يتم ، لأغراض بلاغية، مخاطبة المنكر للخبر مخاطبة المتردد أو الجاهل للخبر ، كما قد ينزل المخاطب الجاهل للخبر منزلة المنكر أو المتردد الشاك ، وهكذا

أغراض الخبر

الأصل في الخبر عند البلاغيين أن يلْقى لأحد غرضين :

1) إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو العبارة، ويسمى ذلك الحكم: فائدة الخبر.

2) إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى ذلك : لازم الفائدة

[1] - كتاب الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، ص:179.

ومن أمثلته :

- « إنك لتكظم الغيظ، وتحلم عند الغضب، وتعفو عند المقدرة»

- قال الشاعر:

وتغتابني في كل نادٍ تحُلُّه *** وتزعمُ أني لستُ كفْئا لمثلِكا

ومن تلك الأمثلة يستفاد أن الخبر لا زم الفائدة يأتي في مواضع المدح والافتخار والعتاب واللوم وغيرها.

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر

تلك أغراض الخبر عند البلاغيين، لكن الخبر عندهم قد يأتي لا على مقتضى الظاهر، فيفيد بمعونة قرائن الأحوال أغراضا مقامية أخرى.

ومن الأغراض المقامية التي يخرج إليها الخبر، حسب السياقات التواصلية والمقامات التخاطبية :

- **إظهار الضعف :**

فالمتكلم أحيانا لا يقصد من كلامه الخبري مجرد الإخبار، بل يهدف إلى إظهار ضعفه وافتقاره وحاجته إلى المخاطَب، فقصد زكرياء عليه السلام في هذه الآية: (ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا)، ليس الإخبار، لأن الله تعالى، يعلم حاله، لكنه يريد أن يظهر ضعفه بعد أن بلغ من الكبر ما بلغ. وهذا ما يفهم كذلك من قول الشاعر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد *** أحوجت سمعي إلى ترجمان

- **الدعاء:**

ومثاله عبارة "وبلغتها" في البيت السابق، فهي عبارة دعائية، وعبارات: "صلى الله عليه وسلم – رحمه الله – حفظك الله – أدام الله عزك - ..."، فكلها جمل جاءت في صيغة خبرية لكنها تدل على معنى الدعاء.

- **إظهار التحسر على شيء محبوب:**

قال أبو فراس لما سمع أمه وهو في الأسر:

عليلةٌ بالشامِ منفردة *** باتَ بأيدي العدا معلِّلُها

تسأل عنا الركبان جاهدةً ***بأدمعٍ ما تكاد تمهلها !

- **الحث على السعي والجد** ،كقول شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني *** ولكنْ تؤخذُ الدنيا غلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ *** إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

- **المدح**، كقول المتنبي:

وأقبلَ يمشي في البِساطِ فما درى *** إلى البحر يسعى أمْ إلى البدرِ يرتقي

- **الافتخار**، كقول أبي فراس :

أضاعوني، وأيُّ فتًى أضاعوا ؟ *** ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغْرِ

ويكثر انصراف الأسلوب الخبري إلى الأمر والنهي، والوعد والوعيد ... والمعاني التي يحتملها الخبر ويدل عليها لا حصر لها لأنها مرتبطة بالمقام التخاطبي.

أهمية أغراض الخبر في الخطاب وفي نجاح التواصل

إن الغرض من التذكير بالخبر وأغراضه أن ندرك وظائفه في التواصل؛ فإن للخبر ولأغراضه قيمة وأهمية في فهم الخطاب وتحليله مهما كان نوع ذلك الخطاب.

فالخطاب، يتكون من خبر وإنشاء، وقد يكون أحدهما أكثر ورودا من الآخر. ولذلك دلالة ، كما أن كل خطاب يتميز بأنواع معينة من الأساليب، فالخطاب الحجاجي مثلا يستدعي الخبر المؤكد والمنفي والشرطي والحصري وغير ذلك.

فإذا أخذنا الخطاب الشعري مثالا للخطاب يمكن أن نقف عند النصوص الآتية، لتبين قيمة الأسلوب الخبري وأغراضه في تحليل الخطاب.

المعاني المقامية للخبر: تطبيقات على نصوص شعرية

من المعاني التي يكثر خروج الخبر إليها الدعاء، كما في قول أبي الغول الطهوي:

فدتْ نفسي وما ملكتْ يميني *** فوارسَ صدَّقوا فيهمْ ظنُونِي

قال المرزوقي في سياق شرح هذا البيت :" لفظه لفظ الخبر والمعنى الدعاء، يقول : تفدي نفسي ومالي أجمع فوارس يكونون عند الظن بهم في الحرب"[1].

فقول الشاعر لفظه الخبر، وكأنه يخبر بما أنجزه في الماضي، إلا أنه لا يرمي إلى ذلك، وإنما غرضه الدعاء على نفسه وما ملكت يمينه بأن يكونا فداء لفوارس أبلوا بلاء حسنا في الحرب.

وهذا ما حصل في قول الحماسي :

إن يحسدوني فإني غيرُ لائِمهم قَبْلي منَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدوا

فدام لي ولهم ما بـــي وما بهمُ ومات أكثرُنـــا غيظـــا بمـــا يَجِـــدُ

قال المرزوقي في شرح البيت الثاني: "هذا الكلام دعاء لنفسه وعليهم، على طريق التسلي وقلة الاحتفال ولأن الحاسد يرفع الخامل من الفضل وينوه به".

فالعبارتان " دام لي ولهم..." و" ومات أكثرنا ..." ، رغم أن ظاهر اللفظ فيهما الخبر، فإنهما أفادتا الدعاء.

واليمين من المعاني المقامية التي يكثر خروج الخبر إليها عندما يستعمل لا على مقتضى الظاهر. وقد أفاد ذلك، حسب المرزوقي، قول الأشتر النخعي :

بقَّيتُ وفْري وانحرفت عنِ العلا ** ولَقِيتُ أضيافي بِوَجْهٍ عَبُوسِ

إن لم أشُنَّ على ابن حرب غارةً ** لم تخلُ يوما من نِهَابِ نفوسِ

فالخبر في هذين البيتين خرج عن ظاهر معناه مرتين، لأنه أفاد الدعاء أولا ثم تم خرق معنى الدعاء ليدل على القسم. وهذا يبين أن المعنى المقامي، بدوره، قد يتم خرقه والانتقال منه لمعنى مقامي آخر.

وهذا ما حصل كذلك في قول معدان بن جواس الكندي:

إنْ كان ما بُلِّغتِ عني فلامني *** صديقي وشَلَّتْ من يديَّ الأناملُ

وكفنتُ وحدي مُنذرا بردائه *** وصادفَ حَوطا من أعاديَ قاتلُ

[1] - شرح دوان الحماسة للمرزوقي

وهذا لفظه الخبر، والمعنى الدعاء والمراد القسم. فالشاعر يدعو على نفسه بأن تشل أنامله، وأن يتعرض للوم من صديقه، إن صح ما بلغ المخاطبة عنه من أخبار. وكأنه يقسم أنه لا صحة لتلك الأخبار التي بلغتها عنه.

ومن المعاني المقامية التي قد يستلزمها الأسلوب الخبري، التفجع والتحسر من ذلك قول الحارث بن وعلة الزهري:

*قومي همْ قتلوا أُمَيمَ أخي *** فإذا رَميتُ يصيبُني سَهْمي*

*فلئنْ عفوتُ لأعفُوَنْ جللاً *** ولئنْ سطوتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي*

*لا تأمننْ قومًا ظلمتَهم *** وبدأتَهم بالشتمْ و الرَّغْمِ*

قال المرزوقي: "يقول: قوْمي يا أميمة هم الذين فجعوني بأخي ووتروني فيه، فإذا رمت الانتصار منهم عاد ذلك بالنكاية في نفسي، لأن عز الرجل بعشيرته. وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار".

وجعل المرزوقي الكلام في البيت الثاني " تحسرا وتوجعا " وعد النهي في البيت الثالث " توعدا " فقال: "حول الكلام عن الإخبار توجعا على عادتهم إلى الخطاب متوعدا".

إن القارئ لهذه الأبيات إذا فاته أن الأسلوب الخبري قد يراد به معانٍ مقامية أخرى، تساعد في تحديدها قرائن سياقية وحالية، فلن يوفق في تقديم قراءة سليمة. لأنه بتمسكه بالدلالة الحرفية لا يظهر له إلا الإخبار بما أصاب الشاعر من قومه، لكن الشاعر هنا لا يخبر أميمة بما حصل له، فهي تعلم ذلك ولن يضيف جديدا بإخبارها، إنما قصده التعبير عن الألم الذي يعتصر قلبه أمام الفاجعة الكبرى التي حلت به، فأن يُقتل أخوه، ومن طرف قومه، شيء فظيع، فهو لا يطيق الصبر على فقْد الأخ، ولا يجرؤ على أخذ الثأر لأن ذلك، إن حصل، سيضعف شوكته. إنها حال حري بها أن تحمل صاحبها على التحسر والتفجع لا مجرد الإخبار.

إن النصوص السابقة لتظهر بما لا يدع مجالا للشك أهمية استحضار المعاني المقامية للأساليب الخبرية في قراءة أي نص إبداعي. ولذلك لا غرابة أن نجد البلاغيين يلحون على أخذ المقام والسياق بعين الاعتبار.

نصوص قرآنية وحديثية

ولنقف عند بعض النصوص القرآنية والحديثية :

قال الله تعالى:(إنَّ اللهَ وملائكته يصلون على النبيِّ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسْليما).

فقد أخبرنا الله عز وجل بأنه يصلي على النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن ملائكته أيضا تصلي عليه، وذلك لبيان شرف النبي – صلى الله عليه وسلم – ومقامه ومنزلته عند الله تعالى وعند الملائكة. ثم جاء بعد الخبر الأمر بالصلاة علية. والخبر هنا جاء مؤكدا بالمؤكد "إن". والجملة توطئة وتمهيد لما بعدها، وهو الأمر بالصلاة على النبي.

ولبيان أهمية دلالة الأسلوب الخبري في الفهم والتفسير والتأويل، لنقفْ عند أقوال المفسرين في قوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أنْ يُتِمَّ الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) البقرة: 233،

وقال ابن عطية: "قوله (يرضعن) خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على الندب والتخيير لبعضهن "[1].

قال الزمخشري: (يرضعن): مثل يتربصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد.

قال الطاهر ابن عاشور: "أي: والوالدات منهن، أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآية السابقة عليها، أي المطلقات اللاتي لهن أولاد في سن الرضاعة... وجملة (يُرضعن) خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن؛ لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات.... أي من حقهن ذلك"[2].

[1]- المحرر الوجيز لابن عطية، تفسير الآية 288 من سورة البقرة.

[2] التحرير والتنوير تفسير الآية 288 من سورة البقرة. وقال ابن عاشور في الآية: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وجملة (والمطلقات ...) خبرية مراد بها الأمر، فالخبر مستعمل في الإنشاء وهو مجاز...

نصوص حديثية:

قال عليه الصلاة والسلام:

- « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ....**». في الحديث إخبار بحقيقة الأعمال الصالحة، وأنها بحسب النيات الصادرة عنها، وقد جاء أسلوب الحصر ليزيد ذلك بيانا، فتم حصر صلاح الأعمال في النيات الخالصة.

- « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**...». في الحديث إخبار بالخصال التي تجعل المؤمن يتذوق حلاوة الإيمان. ودلالة الخبر الترغيب في الخصال المذكورة.

- « **لا يُلْدغ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين** » : في الحديث أسلوب خبري منفي، تم فيه نفي أن يقع المؤمن في الفخ والخديعة مرتين، بل يستفيد من الأخْطاء ولا يكررها.

خلاصة

إن النصوص السابقة لتظهر بما لا يدع مجالا للشك أهمية استحضار المعاني المقامية للأساليب الخبرية في قراءة أي نص أو خطاب. ولذلك لا غرابة أن نجد البلاغيين يلحون على أخذ المقام والسياق بعين الاعتبار. فالمفسرون اختلفوا في تفسير الآيات السابقة، بسبب الأسلوب ودلالاته، أهو خبر مراد به الخبر؟ أم أمر مراد به الوجوب ؟ أم أمر مراد به التخيير؟

ثم لنلاحظ حرص المفسر لآية البقرة (288)على ربط الاية بسياقها، وبيانه أنها لها علاقة بالمطلقات، اللواتي تقدم الحديث عنهن، وليس جميع الأمهات... وما نتج عنه من فهم وتفسير واستنباط. فافهمه وقِسْ عليه ما لا يتسع المقام لذكره.

تأتي أساليب علم المعاني إذن في مقدمة أساليب البلاغة العربية التي تحضر في فهم الخطاب وتفسيره وتحليله، ويحضر فيها البعد الدلالي بشكل واضح وجلي عند أئمة هذه البلاغة.

2- الإنشاء في البلاغة العربية

تعريفه:

الإنشاء عند البلاغيين « كلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب». وقد قسموه إلى قسمين:

1 – إنشاء طلبي : وهو كل إنشاء يفترض مطلوبا وقت الطلب، ويشمل عندهم:

النداء – الاستفهام – الأمر – النهي – التمني.

2 – إنشاء غير طلبي: وهو كل إنشاء لا تفترض مطلوبا وقت الطلب. ويشمل عندهم :

التعجب – الرجاء – القسم – المدح والذم – صيغ العقود.

صيغ الأساليب وأدواتها

اهتم البلاغيون بصيغ الأساليب وأدواتها التي تتحقق بها، كما اهتموا بدلالات تلك الصيغ والأدوات. وقد توقف النحاة بدورهم عند هذه الأدوات والصيغ للنظر في طبيعتها وطريقة صياغتها. لذلك فالأدوات والصيغ لها أبعاد صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية بل وتداولية.

فمثلا أدوات النداء تتنوع حسب المقام التخاطبي، وحسب موقع المنادى من المنادي. كما أنها تتنوع بين الحروف والأفعال، وقد تكون محذوفة مقدرة، ولها تنغيم صوتي يختلف من مقام إلى آخر، بل للمنادى بها وظائف تركيبية تختلف من منادى إلى آخر:

فقد يكون المنادى مبنيا، أو معربا، وقد يكون مضافا أوشبيها بالمضاف، وقد يكون معرفة أو نكرة... بعبارة أخرى، فهذه الأساليب تفتح آفاقا للبحث من منظورات متعددة.

أساليب الإنشاء الطلبي

أشرنا إلى أن الإنشاء الطلبي هو كل إنشاء يفترض مطلوبا وقت الطلب، ويشمل عندهم: النداء – الاستفهام – الأمر – النهي – التمني.

ففي النداء طلب الإقبال والانتباه،وفي الاستفهام طلب معلومة يجهلها المستفهِمُ ويفترض امتلاك المستفهَم لها، وفي الأمر طلب تنفيذ الأمر على جهة استعلاء، وفي النهي طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء، وفي التمني طلب أمر مستحيل أو مستبعد التحقق.

لذلك إذا تم إجراء هذه الأساليب وفق هذه الشروط كانت لها معانٍ حرفية، وإذا تم خرق أحد هذه الشروط خرج الأسلوب الإنشائي إلى إفادة معنى آخر يحدد بمعونة قرائن الأحوال.

دلالات الأساليب الإنشائية وأغراضها:

يقول السكاكي: "واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر ،لا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا ..."

نبه السكاكي في هذا النص إلى خروج الخبر والإنشاء عن أصل وضعهما لأغراض بلاغية، وأن أحدهما قد يستعمل مكان الآخر، أي أن الأسلوب الخبري قد يفيد معنى إنشائيا كالدعاء والتعجب...

والأسلوب الإنشائي ربما دل على الخبر كإفادة الاستفهام للنفي والتقرير ... وذلك لأغراض بلاغية[1].

وأما الأساليب الإنشائية فهي أكثر خروجا لا على مقتضى الظاهر. وقد خصها السكاكي ببحث مفصل تميز به عن غيره من البلاغيين. فعبد القاهر الجرجاني على سبيل المثال، اهتم أساسا بالاستفهام ومتى يكون للتقرير ومتى يفيد الإنكار ومتى يكون ذلك للفعل أو للفاعل أو المفعول، بحسب ما تم تقديمه. وجاء ذلك عنده ضمن مبحث التقديم والتأخير.

أما السكاكي فبين بتفصيل ما قد تفيده الأساليب الطلبية من معان مقامية.

فقد قسم الأساليب الإنشائية الطلبية إلى نوعين :

1) نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وهو التمني .

2) ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول ويشمل باقي الأساليب الإنشائية الطلبية .

ثم قال: "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام كما إذا قلت لمن همك همه: ليتك تحدثني ، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكره، على أصله فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصوله وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال".

وهكذا فالاستفهام عنده يتولد عنه، بمعونة قرائن الأحوال التعجب والاستخفاف والتحقير والإنكار والتقرير والتمني والتهديد... والأمر قد يفيد الدعاء والالتماس والندب والإباحة والتهديد...

وفيما يلي بيان لبعض الأغراض المقامية لأساليب الاستفهام والأمر والنهي.

[1] - مفتاح العلوم ص : 323

الأغراض المقامية للأساليب الإنشائية الطلبية

1- الاستفهام

الأصل في الاستفهام أن يفيد السؤال؛ لأنه طلب الحصول على معلوم يجهلها المتكلم /المستفهِم ويفترض توفرها عند المخاطَب / المستفهَم. فإن تم خرق هذه الشروط في إجرائه خرج الاستفهام إلى أغراض أخرى تفهم من سياق استعماله. ومن أبرز تلك الأغراض المقامية:

- **النفي**: قال تعالى:

(قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الزمر: 9.

(فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين) الروم: 29

(هل جزاء الإحسن إلا الإحسن) الرحمن: 60

قال المتنبي: ومن لم يعشق الدنيا قديما *** ولكن لا سبيل إلى الوصالِ

- **التعجب** : من ذلك قوله تعالى:

(وقالوا مالِ هذا الرسول ياكل الطعام ويمشي في الاسواق) الفرقان الآية: 7

(ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) النمل: 20

- **التمني**: قد يخرج الاستفهام إلى التمني لما يكون المستفهَم عنه بعيد أو مستحيل التحقق.

(هلْ من شفيع) (هل إلى خروج من سبيل)

قال الشاعر:

أسِربَ القطا هل من معيرٍ جناحه *** لعلي إلى من هَويتُ أطير

هلْ بالطلول لسائل ردُّ *** أم هل لها بتكلم عهد؟

- **التقرير**: من المعاني المقامية التي يفيدها الاستفهام التقرير:

قال تعالى: (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) ؟

(ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) ؟

- **الافتخار**: قال أبو فراس مفتخرا :

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا *** ليوم كريهةٍ وسداد ثغْرِ

- **المدح** : قال الشاعر:

مَنْ للمحافلِ والجحافلِ والسرى *** فقدت بفقدك نيرا لا يطلع

- **التحقير**: ومما منه ورد في القرآن الكريم على لسان الكفار:

(وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزؤا أهذا الذي بعث الله رسولا) الفرقان: 41.

وقال الشاعر:

فدعْ الوعيد فما وعيدك بضائري *** أطنينُ أجنحةِ الذبابِ يضيرُ؟

- **الإنكار**: ومن أمثلته في القرآن: **(أفأصفاكم ربكم بالبنين و اتخذ من الملائكة إناثا)** الإسراء:4

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة) الأنعام: 74

(أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) الصافات: 95.

- **التهكم :** ويقال له أيضا: السخرية والاستهزاء؛ ومن أمثلته في القرآن الكريم:

(قالوا يا شعيبُ أصلواتك تامرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) هود: 8

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تاكلون؟ ما لكم لا تنطقون) الصافات: 91.

- **الأمر**: (فهل أنتم مسلمون؟) هود:14، أي أسلموا، (فهل أنتم منتهون؟) المائدة:91، أي انتهوا...

- **النهي :** (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه) التوبة: 13: أي : لا تخشوهم

هذا، والمعاني المقامية التي قد يخرج إليها الاستفهام كثيرة؛ كالاستبطاء والاستبعاد والتسوية والتحضيض والتشويق والتهويل والوعد والوعيد والعرض والالتماس[1]...

2) أسلوبا الأمر والنهي

الأمر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وله أربع صيغ تنوب عنه، هي:

- ✓ فعل الأمر؛
- ✓ الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر؛
- ✓ المصدر النائب عن فعل الأمر ؛
- ✓ اسم فعل الأمر.

لكن الأمر قد يخرج عن معناه الحقيقي ليفيد معاني تستفاد من السياق وقرائن الأحوال، وكذلك النهي، ومن معانيهما المقامية:

- **الدعاء**: من أمثلة ذلك قوله تعالى:

[1] - ينظر لمزيد من التفاصل عبد العزيز عتيق (علم المعاني).

(ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا) البقرة: .286

(ربنا لا تزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة) آل عمران: 8.

(واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة. 286.

- **التمني**: قال الشاعر:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي *** وعِمي صباحا دار عبلة واسلمي

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي *** بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

- **النصح والإرشاد**: وهو الطلب الذي لا تكليف ولا إلزام فيه

فانهض إلى صهوات المجد معتليا ** فالباز لم يأوِ إلا عاليَ القلل

- **التعجيز** : ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى:

(فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) البقرة

- **الالتماس**: وهو الأمر الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة.
- **الإباحة** : ومن نماذجه في القرآن قوله تعالى في آيات الصيام: (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) البقرة:
- **الإهانة والتحقير**: قد يفيد الأمر الإهانة والتحقير، كما في قوله تعالى: (ذقْ إنك أنت العزيز الكريم)
- **التسوية**: وقد يكون الغرض من فعل الأمر التسوية، قال تعالى:(أنفقوا طوعا أو كرها لن يُتقبل منكم).

ومن المعاني التي يخرج إليها الأمر والنهي: التهديد - الوعيد – التعجب والاستغراب ...

خلاصة

إن الوقوف عند دلالات الأساليب وأغراضها المقامية أمر مهم؛ إذ يسهِم في نجاح التواصل، وفي فهم دلالات الأساليب العربية واستعمالاتها، وفي ضبط خصائص النصوص الأسلوبية، وبالتالي في قراءة النصوص وتفسيرها وتأويلها بناء على أغراض تلك الأساليب التي تُحدَّد طبقا للقرائن المقامية والسياقية، ولمقتضيات المقام التخاطبي.

لذلك نستطيع أن نقرر دون تردد أن مباحث علم المعاني في بلاغتنا العربية هي مباحث تداولية وتواصلية بامتياز. وقد تترتب عن الإخلال في استعمالها وتلقيها عوائق في التواصل بل أدى إلى توتر العلاقة بين أطراف التواصل ولنقف عند هذه النماذج المستوحاة من تواصلنا المعاصر على سبيل المثال لتتضح أهمية هذه الأساليب في نجاح التواصل إو إخفاقه.

يعد هذا المبحث إذن، من أهم مباحث البلاغة العربية، لأنه يبين دلالات الأساليب الخبرية والإنشائية التي تتعدد بحسب سياقات إجرائها. ولا يخفى ما لذلك من أهمية في بناء الخطاب وفهمه وتفسيره وتأويله.

والتواصل الناجح يعتمد على هذا المبحث أيما اعتماد، إذ يراعي المتكلم سياق التخاطب وأنواع المخاطبين، فلا يرسل الخطاب إلا بعد التفكير في ما يناسب المخاطب، حتى لا يؤدي ذلك إلا سوء فهم أو تأويل. فمثلا عندما يتحاور مع ذي سلطة، فهو لا يأمره، بل يطلب منه الطلب باحترام، كأن يقول:

- هل بإمكانكم أن تمنحوني رخصة لقضاء حاجتي.
- إن كان هذا لا يزعجكم، أريد أن أسألكم عن موعد صرف مستحقاتي.
- اسمحوا لي أن أستأذنكم في الانصراف.
- من فضلكم، أريد الذهاب للاطمئنان على أبي في المستشفى.

وعندما نرجع إلى كتب التفسير نجد المفسرين يتوقفون عند الآيات التي جاءت بأسلوب إنشائي، وقفات تحليلية، يبينون الغرض من هذا الأسلوب ودلالاته في الخطاب، وهذا ما سأبينه في الفصل الخاص بالبلاغة والتفسير.

ثانيا - التقديم والتأخير:

لعل أبرز المباحث البلاغية التي اتخذت عند بعض البلاغيين العرب القدامى بعدا أسلوبيا مبحث التقديم والتأخير، وقد أجاد في معالجته إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني، الذي توقف عند التقديم مع همزة الاستفهام، ومتى يحصل، وما هي أغراضه المقامية، وعلاقة ذلك بالمقام التخاطبي وبمقاصد المتكلم. كما بين متى يتم تقديم الفعل، ومتى يقدم الفاعل، ومتى يقدم المفعول، مستشهدا بنصوص وشواهد، ومحللا لتلك النصوص تحليلا يجعلك تحس وكأنك أمام لساني تداولي يحلل الخطاب في علاقته بأطرافه وبسياقه التخاطبي. فقد ميز بين نوعين من التقديم:

أولهما: تقديم على نية التأخير، ومثاله قول المتكلم:

- منطلق زيدٌ
- ضربَ عمراً زيدٌ

"معلوم أن "منطلق" و"عمرا" لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبرَ مبتدإ ومرفوعا بذلك، وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله، كما يكون إذا أخرت"[1].

ثانيهما: "تقديم لا على نية التأخير، "ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه..."[2]، ومثل له بقول المتكلم:

- زيدٌ المنطلقُ
- المنطلقُ زيدٌ

ثم حلل تلك النماذج وبيَّنَ المقتضيات المقامية المناسبة لكل نموذج. يقول: "فأنت في هذا لم تقدم "المنطلق" على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبرَ مبندإٍ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر "زيد" على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا"[3].

---

[1] - دلائل الإعجاز،ص: 106.

[2] - المصدر السابق،ص: 106 (بتصرف).

[3] - المصدر السابق،ص: 107.

وبعد ذلك توقف عبد القاهر الجرجاني[1] عند قول سيبويه إن التقديم قد تم للعناية والاهتمام، ووضح بعض الأمثلة المتداولة عند النحاة والفرق التداولي بينها، ثم بين أنه لا يكفي تفسير ذلك بالعناية والاهتمام، بل ينبغي البحث في مقتضياته المقامية وأسراره البلاغية، ثم انتقد مذهب النحاة في التعامل مع الأساليب البلاغية، وتقصيرهم في البحث عن أسرارها البلاغية، مما فوت عليهم – في نظره – معرفة البلاغة وأسرار النظم. يقول: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقول: "إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم"، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ = ولتخيلهم ذلك، قد صغُرَ أمر "التقديم والتأخير" في نفوسهم، وهوَّنوا الخطْبَ فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف. ولمْ تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه.

وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في "الحذف والتكرار"، " والإظهار والإضمار"، و"الفصل والوصل"، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه = إلا نظرك فيما غيره أهمُّ لك، بل فيما إن لمْ تعلمْه لم يضرك"[2].

ومن أهم مباحث التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني مبحث "التقديم مع همزة الاستفهام"[3]، وقد أبدع في بيان الفرق التداولي بين كل حالة من الحالات التي مثل لها. فبين المقتضيات المقامية لهذه النماذج، ومتى ينبغي البدء بالفعل، ومتى نقدمُ الفاعل، وما هو المقام الذي يقتضي تقديم المفعول. كما بين عبد القاهر أن الإنكار بالهمزة قد يكون إما للفعل (ماض أو مضارع) أو للفاعل أو للمفعول، وقد فسر ذلك أسلوبيا وتداوليا.[4] وبعدما أبدع الجرجاني وأجاد في تفسير النماذج التي تم فيها التقديم مع همزة الاستفهام، توقف عند التقديم في أسلوب النفي، فبين أغراضه التداولية أيضا[5]، وذلك ما يمكن توضيحه أهمه بالجدول الموالي:

---

[1] - دلائل الإعجاز،ص: 108 - 109.

[2] - دلائل الإعجاز ص 108 – 109. وقد دخل في حجاج هؤلاء البلاغيين، ودحض مذهبهم في التعامل مع هذا النوع من الأساليب. كما بين أنه من الخطإ أن يقسم" الأمر في تقديم الشيء وتأخيره " إلى مفيد وغير مفيد، وأن يعلل تارة "بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذاك سجعه". ينظر المصدر السابق 110.

3 - المصدر السابق 111.

[4] - المصدر السابق 114 - 116

[5] - المصدر السابق 124.

أسلوب المتكلم	تفسير الجرجاني للمقام التداولي
1- أفعلتَ؟ 2- أأنتَ فعلتَ؟ 3- أشعرًا قلتَ؟ - أكتاباً قرأتَ؟ - أعالمًا قابلت؟ 4- ما ضربتُ زيدا. 5- ما زيداً ضربتُ.	1- البدء بالفعل: يقول: " تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ،لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مجوزٌ أن يكون قد كان، وأن يكون لمْ يكن"[1]. 2- البدء بالاسم: بين الجرجاني أن المتكلم إنما يبدأ بالاسم عندما يكون شاكا في الفاعل، "تبدأ بالاسم (أأنت قلت الشعر)،لأنك لم تشك في الفعل أنه كان ... وإنما تشك في الفاعل من هو؟" . 3 - في حين يبدأ المتكلم بالمفعول عندما يكون مهتما بمن وقع عليه الفعل، يقول: "لأنك مهتم بمن وقع عليه فعل الفاعل، أنت لا تشك في الفعل ولا في الفاعل، بل في المفعول". 4 – المتكلم ينفي هنا فعل الضرب. 5 – المتكلم لا ينفي الضرب بل ينفي أن يكون زيدا هو المضروب.

وفي المبحث الأخير توقف عبد القاهر الجرجاني عند النكرة وتقديمها على الفعل في الاستفهام والخبر، فقام بدراستها دراسة أسلوبية تداولية كما يتضح من الجدول الآتي:

المثال	الطبقة المقامية المناسبة له حسب الجرجاني
1) أجاءك رجل؟	- السؤال هنا عن فعل المجيء هل حدث، ولا يجوز هنا تقديم الاسم.
2) أرجل جاءك؟	- السؤال عن جنس من جاء أهو رجل أم امرأة.
3) أرجل طويل جاءك؟	- السؤال عن وصف الرجل أطويل أم قصير.
4) رجلٌ جاءني.	- القصد جنس من جاء .
5) جاءني رجلٌ.	- القصد فعل المجيء.
6) رجل قصير جاءني.	- القصد صفة الرجل.
7) ما أتاني إلا رجل.	- لا يقال إلا عندما يتوهم السامع أن الذي جاء امرأة.
8) ما جاءني إلا زيد.	- يقال عندما تريد قصر المجيء على زيد دون غيره لما يتوهم السامع أن غير زيد أتاك.

إن الباحث في هذا المبحث وفي غيره من مباحث علم المعاني، ليجد نفسه أمام تحليل أسلوبي تداولي بلاغي متفرد.

[1] - المصدر السابق،ص: 111

ثالثا- **أسلوب القصر:**

القصر لغة : الحبس واللإلزام، تقول قصرت نفسي على الشيء إذا حبستها وألزمتها إياه، كما تقول: قصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به غيره. والقصر في اصطلاح علماء المعاني: تخصيص شيء بشيء أو أمر بآخر بطريق مخصوص.

ولأسلوب القصر طرفان: مقصور ومقصور عليه. وله طرق عدة يؤدى بها.

قال تعالى:

(لايعلم الغيب إلا الله)

(إنما المومنون إخوة)

(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء)

(إياك نعبد وإياك نستعين)

- ليست الرجولة في طول الشارب ولا في شكل اللباس بل الرجولةُ مواقف وأخلاق وقيم.

يتبين من النماذج السابقة أنه في كل مثال يتم تخصيص أمر بأمر،أو قصر شيء على شيء.

طرق القصر

طرق القصر متنوعة، وهي:

1) **النفي والاستثناء النفي والاستدراك أو ما يفيد الإثبات**، وذلك بأي أداة من أدوات النفي (لا – لم – ليس – ما – لن ...) + (إلا)،أو (لكن – بل - حتى)، كما يتضح من الشكل الآتي:

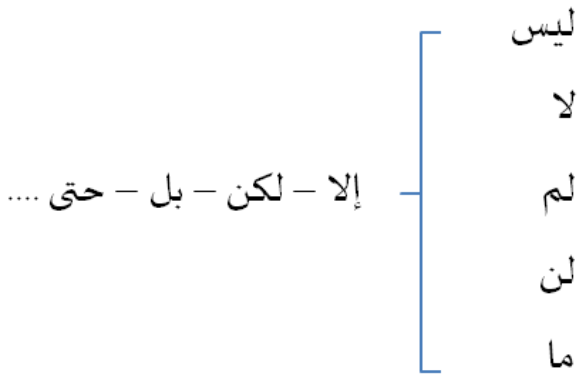

2) **إنما**: وهي الأصل في القصر، وغالبا ما تستعمل وحدها، وقد تأتي بعد النفي، مثل:

- ﴿ إنما المومنون إخوة﴾
- قال الشاعر:

إنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ *** فإنْ همُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

3) العطف ب " لا" ، أو "لكن" ، أو " بل"،

قال المتنبي:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته *** وموته خزيه لا يومه الداني

4) تقديم ما حقه التأخير.

(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء)

(إياك نعبد وإياك نستعين)

ويسمي علماء المعاني التخصيص المستفاد من هذه الوسائل اسم (القصر). وأما الوسائل فهي عندهم (طرق القصر). ويسمون ما تم قصره (مقصورا)، وما قصر الشيء عليه (مقصورا عليه).

أنواعه:

1) قصر صفة على موصوف﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء)،

2) قصر موصوف على صفة ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب لكن البر.....)الآية

نصوص من القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والسراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ البقرة، الآية:177.

﴿ إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ الأنفال، الآية: 2.

﴿ إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾. الحجرات، الآية: 10.

﴿ إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات، الآية:15.

وقال تعالى في تعريف من يعمر المساجد: ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ التوبة 18 .

وقال سبحانه في بيان من يخشاه حق الخشية:﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾فاطر 28.

وقال تعالى في حقيقة التوبة: ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان اللهُ عليما حكيما﴾ النساء:17.

﴿وما محمد إلا رسول قد خلتْ من قبله الرسل﴾آل عمران 144.

﴿ قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ الحجرات 14

﴿لنْ تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ آل عمران: 92

نصوص من الحديث النبوي:

قال الرسول علية الصلاة والسلام:

- "ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". صحيح البخاري (6114)، صحيح مسلم (2609)
- "ليس الواصل بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قُطِعتْ رحمه وصلها". صحيح البخاري (5991).
- " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" صحيح البخاري (1)

بلاغة القصر ووظائفه

يكتسي أسلوب القصر قيمة مهمة في التعبير والتواصل؛ إذ يتم به توضيح حقيقة المفاهيم، وإثبات خصائصها الجوهرية، ونفي ما شابها من خصائص شكلية لا تعكس جوهرها ولا حقيقتها، بل علقت بأفهام الناس وشاعت حتى صارت تخفي مفهومها الحقيقي والجوهري.

لذلك فأسلوب القصر، فضلا عن قيمته التعبيرية والدلالية والأسلوبية، فله وظائف حجاجية وتداولية مهمة في الخطاب وفي التواصل.

لهذا تردد كثيرا في الخطاب القرآني والنبوي؛ إذ به تم تصحيح كثير من المعتقدات والتصورات والقيم، ونفي ما علق بها من أوهام. فبه تم في القرآن الكريم بيان حقيقة الإيمان والبر والتقوى والتوبة، وبه تم في الحديث النبوي بيان حقيقة الهجرة والإخلاص والواصل والشديد وغيرها من المفاهيم. وفي النصوص الآتية مثال لذلك.

ولذلك نجد أسلوب القصر يكثر في الخطابات الحجاجية، وفي التواصل كلما تعلق الأمر بتصحيح معلومة أو مفهوم أو الرد على زعم باطل، فلنتأمل هذه النماذج :

أسلوب المتكلم	المقام التخاطبي
ما أتاني إلا رجل.	- لا يقال إلا عندما يتوهم السامع أن الذي جاء امرأة.
ما جاءني إلا زيد.	- يقال عندما تريد قصر المجيء على زيد دون غيره لما يتوهم السامع أن غير زيد أتاك.
خالدا قابلت	- يقال حين يتوهم المخاطب أنك قابلت غير خالد.
كتابا قرأتُ	- يقال حين يتوهم المخاطب أنك قرأت فقط بعض الصفحات أو لم تقرأ أصلا.
إنما المتنبي شاعر.	- القصد بيان صفة المتنبي وأنه شاعر لا ما توهمه فبه المخاطَب.
ما شاعر إلا المتنبي.	- القصد قصر صفة الشاعرية على المتنبي دون غيره.
الرجولة ليست شاربا كثيفا ولا لباسا فاخرا بل هي مواقف وأخلاق وقيم.	- الكلام هنا تصحيح لمفهوم الرجولة السائد عند كثير من الشباب المعاصر.
إنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ همُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا	الشاعر يقصد تصحيح شروط بقاء الأمم وعزها ومجدها وأنها بالأخلاق والقيم.

رابعا - بلاغة الإيجازوالاطناب

من أبرز مباحث علم المعاني التي لها صلة وثيقة بالخطاب والمقام وبالتواصل مبحث الإيجاز والاطناب. فقد بين البلاغيون أن من بلاغة المتكلم مراعاة ما يقتضيه المقام من إيجاز أو اطناب. فالبلاغة هي الإيجاز في مواضع الإيجاز والاطناب في مواضع الاطناب. ويكتسي هذا الأسلوب أهمية كبيرة في التواصل.

- **الإيجاز:**

أشاد العرب بالإيجاز في القول منذ العصر الجاهلي . ثم تطور مفهوم الإيجاز في العصور الإسلامية الموالية وصار ينظر إليه على أنه مطلب بلاغي؛ ففي العصر العباسي، قال الجاحظ في تعريفه: "الإيجاز هو الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة"[1]. ثم صار الإيجاز عنده " أداء حاجة المعنى سواء أكان ذلك الأداء في ألفاظ قليلة أم كثيرة"[2]، فقد يطول الكلام ، وهو في رأيه، إيجاز لأنه وقف عند منتهى البغية ولم يجاوز مقدار الحاجة.

وحكى ابن رشيق تعريف الرماني للإيجاز وتقسيمه: "الإيجاز هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف".

أما عن تقسيمه فقال ابن رشيق : « الإيجاز عند الرماني على ضربين : مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عنه ولا ينقص عنه ، كقولك: « واسأل أهل القرية»، وضرب آخر يسمونه « الاكتفاء» ، وفيه يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقي على الذاهب، كقولهم : « لو رأيت عليا بين الصفين»، أي «لرأيت أمرا عظيما».

وإذا تتبعنا « الإيجاز» عند البلاغيين وجدنا مفهومه واحدا ، وإن اختلفت صيغ التعبير عنه، وهو: «جمع المعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح». والإيجاز عند البلاغيين ضربان:

1- **إيجازقصر:**

وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني. وقيل: هو تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف. وهذا النوع عند ابن الأثير هو أعلى طبقات الإيجاز مكانا وأعوزها إمكانا.

---

[1] - كتاب الحيوان 86/3

[2] - **كتاب الحيوان 7/6.**

ومما ورد من إيجاز القصر في القرآن الكريم: قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة)، فإن قوله تعالى: (القصاص حياة) لا يمكن التعبير عنه إلا بالألفاظ الكثيرة . ومن أمثلته كذلك في القرآن الكريم: (ألا له الخلق والامر) ، كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء. وقوله تعالى: (والفلك تجري في البحر بما ينفع الناس) ، جميع أنواع التجارات، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العد والإحصاء. وقوله تعالى: (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)، فجمع مكارم الأخلاق بأسره.... وقوله تعالى: (وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقُضِي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين).

ومن صور الإيجاز في الحديث النبوي: قوله صلى الله عليه وسلم :

- « إن من البيان لسحرا » أو « إن بعض البيان سحرٌ» صحيح البخاري
- « قلْ : آمنت بالله ثم استقمْ» صحيح مسلم
- «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسن» صحيح الترغيب(2655).
- « منْ غشَّ فليس منا.» صحيح الترميذي
- « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمهاجرُ من هاجر ما نهى اللهُ عنه.» البخاري

2- <u>إيجاز حذف</u> :

وهو القسم الثاني للإيجاز، ويعرفه البلاغيون بقولهم: «هو ما يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف. ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه. ومن مواضع إيجاز الحذف:

حذف الحرف : (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)، فالمراد: لا تفتأ : أي : لا تزال.

حذف المضاف ؛ (واسأل القرية التي كنا فيها)

حذف الموصوف، (وآتينا الناقة مبصرة) أي : آية مبصرة. (من عمل صالحا، من ذكر أو انثى، وهو مومن، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل

حذف الصفة، (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحرفأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا) الكهف، أي : كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا.

حذف القسم أو جوابه ، وهو كثير في القرآن الكريم وفي كلام العرب؛

حذف لو وشرطها ، أو جوابها فقط ، وذاك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها.

ومن صور إيجاز الحذف، حذف جملة أو أكثر ، ومن أمثلته قوله تعالى في حكاية موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب: (**فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجْر ما سقيتَ لنا.)**

- **<u>الاطناب</u>**

أشار أبو هلال العسكري إلى الاطناب في معرض كلامه عن الحاجة إلى الإيجاز والاطناب فقال: « والقول القصد أن الإيجاز والاطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في مكانه. فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الاطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الاطناب أخطأ»[1]

والاطناب عند البلاغيين « الاطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة» ابن الأثير. وهذا الحد هو الذي يميزه، عنده، عن التطويل، إذ التطويل: « هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة.» ، كما يميزه عن التكرير الذي هو: «دلالة اللفظ على المعنى مكررا، كقولك لمن تستدعيه: أسرِعْ أسرِعْ، فإن المعنى مردد واللفظ واحد.» وكل تكرير يأتي لفائدة، فهو عنده، جزء من الاطناب وه أخص منه.

ويأتي الاطناب في الكلام على أنواع مختلفة لأغراض بلاغية منها:

الإيضاح - ذكر الخاص بعد العام - ذكر العام بعد الخاص - التكرير لداع - الإيغال - الاحتراس - الاعتراض – التذييل.

[1] - كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص:190.

بلاغة الإيجاز و أبعاده التواصلية

كثيرا ما ندرس الأساليب البلاغية بعيدا عن استعمالها التداولي والتواصلي. وهذا ما يحد من تعليمها وتشويق المتلقي إليها. لكننا في حقيقة الأمر ننسى ،غالبا، أننا نتواصل يوميا بهذه الأساليب. وعندما نفكر في لغتنا اليومية ، في تواصلنا اليومي، مع أصدقائنا، مع أفراد أسرنا، نرى أننا نتواصل بالبلاغة وأساليبها.

من هذه الأساليب أسلوب الإيجاز. وهو أسلوب كان معروفا عند المتكلم العربي منذ القديم، بل كان إليه يميل، فبلاغة الإنجاز منذ العصر الجاهلي عرفت استعمالا واضحا للإيجاز. ويتضح ذلك من كلام العرب شعرا ونثرا. وكان المحيط والسياق التواصلي يقتضي الإيجاز، لأن المتلقي/المرسل إليه في ذلك العصر لم يكن يقبل رسالة طويلة، بل يميل إلى الكلام الموجز، إلى الرسائل القصيرة، وكان يمتلك القدرة على التواصل والتفاهم بهذا النوع من الرسائل، يفهم الرسائل التي بها حذف أو إيجاز أو كناية وتلميح وغير ذلك مما قد يطرأ على الرسالة من صور البلاغة، ومن صور العدول عن الأصل.

وعندما نعود إلى البلاغيين والنقاد في عصر التنظير البلاغي، نجد الإيجاز في أبسط تعريفه "التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة"، وهو نوعان : إيجاز قصر وإيجاز حذف. وقد استشهد له البلاغيون بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث النبوي ومن كلام العرب القدامى شعرا ونثرا.

لغتنا الحديثة أيضا، في سياقات تواصلية عدة، تعرف هذا الإيجاز، وتعرف صورا أخرى من الأساليب المساهمة في التكثيف والاختصار. فعندما يقول الطفل لأمه:

ا) أمي البرد..

ب) بطني..

ج) رأسي..

د) أسناني..

هذه الجمل فيها عدول عن الأصل بالحذف، وفيها إيجاز، ورغم ذلك فإن الأم / المرسل إليه، تتواصل مع الطفل، بل تقوم بفعل يدل على ذلك، عندما تسرع إلى إحضار اللباس لابنها في سياق التواصل معه في الجملة (أ)، وبالغذاء في الجملة (ب)، وبالدواء في الجمل (ج) و(د) رغم أن الطفل لمْ يصرح بذلك.

الإيجازوالاطناب مطلبان تواصليان:

التفت البلاغيون العرب إلى دواعي الأساليب البلاغية، وإلى المقتضيات المقامية لكل أسلوب من أساليب علم المعاني، وأبدعوا في ذلك. ففي مباحث الإيجاز والاطناب نجدهم قد بينوا بأن للإيجاز مقام وللإطناب مقام، والمتكلم البليغ هو من يلتزم الإيجاز في مقام الإيجاز، ويلتزم الاطناب في مقام الاطناب.

وفي تواصلنا اليومي نلجأ إلى الأسلوبين معا حسب الحاجة المقامية، ففي الأوساط التعليمية ومع المتلقين البسطاء غالبا ما نحتاج إلى الاطناب، بغاية التوضيح والشرح وتجنب اللبس. وقد يكون من الخطإ الإيجاز في هذه السياقات التداولية. فليس من البلاغة التزام الإيجاز مع فئة مستهدفة متوسطة الفهم، فالمدرس مدعو إلى الاطناب لأن مكونات الفصل الدراسي متنوعة، وليست على مستوى واحد في الفهم والاستيعاب. وقد يكون مدعوا إلى الإيجاز في محطات معينة، كأن يكون في مرحلة تشخيص المكتسبات لدرس تم إنجازه، أو في موقف تمهيدي يريد فيه التشويق وإثارة انتباه المتعلمين لدرس جديد.

والخطيب في منبر الجمعة مدعوٌ إلى المراوحة بين الإيجاز والاطناب لاختلاف الجمهور بين العامة والخاصة. والطبيب قد يكون إيجازه إخلالا مع مريض لا يفهم نصائحه ولا وصفاته. وقِسْ على ذلك مختلف الموظفين في المرفق العمومي، فكثيرا ما تضيع حقوق المواطنين بسبب غياب مراعاة الفئة المستفيدة من هذا الرفق. فالمواطن العادي يحتاج إلى شرح وتوضيح، وإلا غاب الفهم والتواصل.

وإذا كان من مؤشرات غياب البلاغة في التواصل اعتماد الإيجاز في المواقف المشار إليها، فإنه من العبث البلاغي اعتماد الاطناب في مقامات الخاصة،سواء في الأوساط التعليمية،أو الدعوية أو الخطابية أو التكوينية. فكم أحسَّ المستهدفون بالملل في لقاءات تكوينية يحرص فيها المكون على قول كل شيء بتفاصيله وجزئياته، رغم أن المستهدفين لا يحتاجون إلى ذلك. وقد تضيع أوقات في تلك التفاصيل، وينصرف المستهدفون من التكوين دون بلوغ المقصود.

وأحيانا قد يستطرد المدرسون في المداخل والمقدمات إلى أن يمل المتلقي/المتعلم، فحين يصلون إلى الموضوع الرئيس يجدون المستهدفين قد تعبوا وملوا. فما جدوى تلك المداخل والمقدمات إذا كانت لا تصل بالطالب إلى المقصود ؟

وما قيمة الاستطردات التي تبعد عن الموضوع وعن المقصود بالموعظة أو الخطبة أو الدرس التعليمي أو المحاضرة أو غير ذلك؟

إن من البلاغة،كما قال المتقدمون،أن تخاطب الناس ما داموا مهتمين بالاستماع وبالاستزادة، فإن لا حظت أنهم بدأوا يظهرون التعب، فعليك الاستعداد للختم. فليس من البلاغة أن يسكت المتكلم والناس في شوق إلى المزيد، وليس من البلاغة أن يطنب المتكلم ويستمر في الحديث والناس قد ملوا وسئموا من الاستماع. لذلك فالبلاغة هي الإيجاز في مقام الإيجاز والاطناب في مقام الاطناب.

خلاصة

تبين إذن أن علم المعاني من أهم علوم البلاغة العربية وأغناها بالأساليب التي لا يمكن التواصل ولا التفاهم بدونها. فالتواصل الناجح يرتكز على أساليب علم المعاني؛ إذ تمكن أطراف العملية التواصلية من التعبير بطريقة سليمة تراعي مكانة كل طرف.

وفضلا عن تسديد طرق القول وصيغ التعبير باستعمال الأساليب المناسبة للسياق التخاطبي. فإن هذا العلم يسهِم في تسديد فهم الخطاب والرسالة وتلقيهما وتأويلهما وفق ما يقتضيه المقام، وما تستدعيه العلاقة بين المرسل والمرسل إليه وظروف التخاطب المحيطة بهما.

وقد بينت في المباحث السابقة الخلل الذي قد يحدث في التواصل بين الأطراف بسبب سوء استعمال الأسلوب، أو سوء تلقيه وتأويله.

أساليب علم البديع وتعدد الوظائف

علم البديع يشكل القسم الثالث من أقسام البلاغة العربية. والبديع كما يقول الخطيب القزويني "علم تعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة" .

ويعرفه ابن خلدون بأنه هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك".

و«لما كان "علم البديع" به تعرف وجوه تحسين الكلام جعل تابعا لعلمي البيان والمعاني، حتى تعرف طرق التحسين الذاتي بهما، والعرضي به، فانحصر المقصود من علمي البلاغة وتوابعها في ثلاثة فنون» [1].

فنون البديع

أخذت فنون البديع تنمو وتتكاثر على تعاقب الأجيال والعصور فبلغت عند أبي هلال العسكري سبعة وثلاثين نوعا. وقد اعتمد ما جاء به ابن المعتز وأضاف إليه ما جاء به قدامة بن جعفر. ثم جاء ابن رشيق القيرواني فزاد على من تقدموه تسعة أنواع.

والمحسنات البديعية يقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها من التعقيد المعنوي. وهي ضربان:

- محسنات معنوية ترجع إلى تحسين المعنى أولا؛
- محسنات لفظية يرجع إلى تحسين اللفظ أصلا، وإن تتبع ذلك تحسين المعنى

1) المحسنات البديعية المعنوية:

- المطابقة:

ويقال لها أيضا: التطبيق، والطباق، والتضاد. وهي في اصطلاح رجال البديع: الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعري. والمطابقة ثلاثة أنواع:

- مطابقة الإيجاب : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)

[1] - معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة.

- مطابقة السلب: (قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)
- إيهام التضاد: لا تعجبي يا سلم من رجل = ضحك المشيب برأسه فبكى

- **المقابلة:**

عرفها أبو هلال العسكري : « هي إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة.». وأكثر ما تأتي المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة. قال تعالى: (إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم).

- المبالغة:

وأول من عرفها عبد الله ابن المعتز، وقد عدها من أساليب البديع وعرفها بأنها: «الإفراط في الصفة». كقول الشاعر:

تبكي السموات إذا ما دعا *** وتستعيذ الأرض من سجدته

وقال الشاعر:

ونكرم جارنا ما دام فينا *** ونتبعه الكرامة حيث كانا

وقد فصل البلاغيون في المبالغة وأنواعها، وعن المقبول منها والمرفوض فتحدثوا عن الغلو والإغراق والإيغال.

- التتميم: «والتتْميم عبارة عن الاتيان في النظم والنثر بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه».

ويأتي على ضربين: ضرب في المعنى وضرب في الألفاظ.

- فالتتميم المعنوي هو تتميم المعنى ويجيء للمبالغة والاحتراس.
- والتتميم اللفظي : يقصد به التميم الذي يؤتى به لإقامة الوزن.

- **التورية:**

وهي «أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، قريب غير مراد، وبعيد خفي هو المراد.» وتسمى أيضا « إيهاما».

قال الشاعر: أصون أديم وجهي عن أناس *** لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض *** ولو وافى به لهم «حبيب»

فالتورية في لفظ « حبيب»، وقال آخر:

يا عاذلي فيه قلْ لي *** إذا بدا كيف أسْلو ؟

يمر بي كل وقت *** وكلما «مر» يحلو

فالتورية في كلمة « مرَّ». ومن هذه الأمثلة تتضح حقيقة التورية وأن القصد من لفظ التورية أن يكون مشتركا بين معنيين: أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب.

- **التقسيم:**

فن من فنون البديع المعنوي، وهو في اللغة مصدر قسمت الشيء إذا جزأته. أما في الاصطلاح، فقد عرفه أبو هلال العسكري بقوله: « التقسيم الصحيح: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه» .

من ذلك قوله تعالى:

﴿ هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا﴾. ومنه قوله تعالى:

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله).

قال الشاعر:

فإن الحق مقطعه ثلاث *** يمين أو نفار أو جلاء[1].

- **الالتفات:**

يعد أسلوب الالتفات من الأساليب التي نالت اهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدامى واكتست في تحليلاتهم وتطبيقاتهم بعدا أسلوبيا. فقد أظهروا في معالجة هذا الأسلوب إبداعا وتألقا. والالتفات عندهم نوع من العدول أو الانزياح، من ضمير إلى آخر، أومن معنى إلى آخر، أو من زمن إلى آخر. وقد بدأ الاهتمام بهذا الأسلوب مبكرا مع الشاعر الناقد والبلاغي عبد الله ابن المعتز الذي عرفه قائلا: "الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى آخر"[2]. والالتفات عنده من محاسن الكلام والشعر.

---

[1] - نفار: المنافرة والتحاكم – الجلاء: البينة التي تكشف حقيقة الأمر.

[2] - ينظر كتاب البديع لابن المعتز، ص 58 .

ثم تطورت مقاربة هذا الأسلوب مع البلاغيين الذين جاؤوا بعده، فقدامة بن جعفر ركز في تعريفه على النوع الثاني الذي يكون فيه العدول من معنى إلى آخر: "الالتفات أن يكون الشاعر آخذا في معنى فيعترضه إما شك فيه أو يظن بأن رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، بمعنى يلتفت إليه بعد فراغه، فإما أن يذكر سببه أو يجلي الشك فيه."[1]

ومن أمثلة الالتفات عنده قول الرماح ابن ميادة:

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة *** ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

قال تعليقا على هذا البيت:" فكأنه وهو يقول:" وفي اليأس راحة" التفت إلى المعنى لتقدير أن معارضا يقول له: ما تصنع بصرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة."[2]

إلا أن أسلوب الالتفات سيتخذُ بعدا أسلوبيا واضحا عند ابن الأثير الذي خصه ببحث مفصل، بين فيه أقسامه وأغراضه، واستشهد له بنصوص كثيرة من القرآن الكريم والشعر العربي القديم، قام بتحليلها ودراستها أسلوبيا، مبرزا الوظائف الدلالية والمقامية والجمالية والحجاجية لأسلوب الالتفات، وقد عرَّض بمن فاته ذلك واكتفى بتفسير بلاغة الالتفات "بالتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع"[3].

أما المحسنات البديعية اللفظية فمنها:

- ✓ الجناس
- ✓ السجع
- ✓ رد العجز على الصدر (التصدير)
- ✓ لزوم ما لا يلزم
- ✓ الموازنة

[1] - نقد الشعر، قدامة بن جعفر ، ص : 150.

[2] - نقد الشعر، ص 151. وقد أعاد أبو هلال العسكري تعريف قدامة وأمثلته، ينظر كتابه :الصناعتين 392ص .

[3] - ابن الأثير، المثل السائر ج2 ص: 3- 4

الفصل الرابع

البلاغة العربية والخطاب

- البلاغة وتحليل الخطاب
- البلاغة والتأويل
- البلاغة والحجاج

الفصل الرابع - البلاغة العربية والخطاب

مدخل: تحديدات مفهومية

يستدعي الحديث عن "البلاغة وتحليل الخطاب" في البداية التعرف على مفاهيم: البلاغة – الخطاب – تحليل الخطاب. ونظرا للخلط الذي قد يحصل بين النص والخطاب، سأبدأ بتعريف النص.

1)النص:

يشكل النص نقطة التقاء العديد من المجالات المعرفية، ففي كل مجال معرفي نجد النص، لكنه ليس واحدا في كل تلك المجالات، بل متعددا تعدد طرق الاشتغال، وأشكال المقاربة، ولذلك تعددت دلالات النص من مجال معرفي لآخر.

النص لغة:

إنّ المتتبع لمفردة "نص" في المعاجم العربية يلاحظ كثرة الدلالات التي ترتبط بها، فقد جاء في مقاييس اللغة: "نَصَّ : النُّونُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى رَفْعٍ وَارْتِفَاعٍ وَانْتِهَاءٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْهُ قَوْلُهُمْ نَصَّ الْحَدِيثَ إِلَى فُلَانٍ: رَفَعَهُ إِلَيْهِ. وَالنَّصُّ فِي السَّيْرِ أَرْفَعُهُ. يُقَالُ: نَصَصْتُ نَاقَتِي. وَسَيْرٌ نَصٌّ وَنَصِيصٌ. وَمِنَصَّةُ الْعَرُوسِ مِنْهُ أَيْضًا. وَبَاتَ فُلَانٌ مُنْتَصًّا عَلَى بَعِيرِهِ، أَيْ مُنْتَصِبًا. وَنَصُّ كُلِّ شَيْءٍ: مُنْتَهَاهُ [1] ...

وورد في لسان العرب لابن منظور: " نصص :النَّصُّ: رفْعُك الشَّيْءَ. نَصَّ الْحَدِيثَ يَنُصُّه نَصًّا: رفَعَه. وَكُلُّ مَا أُظْهِرَ فَقَدْ نُصَّ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: مَا رأَيت رَجُلًا أَنَصَّ لِلْحَدِيثِ مِنَ الزُّهْري أَي أَرْفَعَ لَهُ وأَسْنَدَ. يُقَالُ: نَصَّ الْحَدِيثَ إِلى فُلَانٍ أَي رفَعَه، وَكَذَلِكَ نصَصْتُه إِليه. ونَصَّت الظبيةُ جِيدَها: رفَعَتْه ... وَكُلُّ شَيْءٍ أَظْهرْته، فَقَدْ نَصَّصْته"[2].

ويظهر من هذه التعريفات اللغوية أن من معاني النص الارتفاع والرفع والانتهاء، والإظهار، ونسبة الكلام إلى صاحبه.

---

[1] - مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1411/1هـ، 1991م. مادة (نصص).

[2] - لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، (دون رقم ولا تاريخ).(نصص)

النص اصطلاحا:

أما في الاصطلاح، فتعددت تعريفات النص ودلالاته عند الدارسين تعدد الحقول المعرفية، واختلفت باختلاف المناهج ووجهات النظر إلى النص. ومن التعريفات الحديثة للنص في المجال اللساني والنقدي، تعريف الدكتور طه عبد الرحمان الذي عده "بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات. وقد تربط هذه العلاقات بين جملتين أو بين أكثر من جملتين[1]. "ويقترب منه تعريف محمد مفتاح الذي اعتبر النص "وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة منسجمة"[2]، ويعرفه أيضا من خلال بعض المقومات الأساسية، فالنص عنده "مدونة كلامية، وحدث تواصلي، وتفاعلي، وله بداية ونهاية، أي أنه مغلق كتابيا، لكنه توالدي معنويا لأنه "متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية...وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له."[3] بينما اعتبره سعيد يقطين "بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية)، ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"[4].

أما محمد خطابي فيعرفه قائلا: " تشكل كل متتالية من الجمل كما ذهب إلى ذلك هاليداي وحسن، نصا شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات، أو على الأصح بين بعض هذه الجمل علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لا حقة، أو بين عنصر وبين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة. يسمي الباحثان تعلق عنصر بما سبقه علاقة قبلية، وتعلقه بما يلحقه علاقة بعدية"[5].

وتكاد مجمل التعاريف تتفق على أن أهم سمة تطبع النص هي الترابط والتماسك وإحكام النسج والبناء. وهذا ما أشار إليه كذلك الأزهر الزناد في قوله إن " النص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض. هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح "نص".

---

[1] - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2 (2000م)، ص 35.

[2] - التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط/1 (1996) ص : 15

[3] - تحليل الخطاب الشعري : استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط 3/ (1992) ص 120.

[4] - انفتاح النص الروائي: النص والسياق، الدكتور سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط/2 (2001)، ص : 32

[5] - لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي،ص: 13.

ويؤكد صلاح فضل على ترابط النص وتنظيمه الداخلي في كل بنيوي موحد، يقول: "إن النص لا يمثل مجرد متوالية **sequence** من مجموعة علامات تقع بين حدين فاصلين، فالتنظيم الداخلي الذي يحيله إلى مستوى متراكب أفقيا في كل بنيوي موحد لازم للنص، فبروز البنية شرط أساسي لتكوين النص"[1].

والمتأمل في التعريفات التي قدمت للنص يسجل انطلاقها من منظورات لسانية متعددة، غير أنه يمكن النظر إلى النص أيضا من زوايا ومنطلقات أخرى، كمنطلق التصنيف حسب الجنس الأدبي، فجنس النص ونوعه معيار مهم في مقاربته وتحديده. فكل نص يعرف بالنظر إلى الجنس الذي ينتمي إليه. وباعتماد هذا المعيار تصير عملية تمييز النصوص سهلة وممكنة، كما أن مقاربتها ودراستها تصبح ميسرة. فالنص الأدبي ليس هو النص الفلسفي ولا النص التاريخي ولا هو النص النقدي...، إذ لكل نص مميزاته وخصائصه.

2) مفهوم الخطاب:

عرفه بدر الدين الزركشي بقوله: "عرفه المتقدمون بأنه الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيء للفهم. وعرفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قصد إفهامه متهيء أم لا"[2]

فالخطاب هو الكلام الذي يراد به الإفهام، ثم يعمم ليكون ما فيه قصدية للإفهام عند البعض، رغم أن التهيؤ له أعم من ذلك وأوسع. ويشترط الشارع وجود المستقبل أو السامع حتى يكون الكلام خطابا، فيصبح الخطاب صلة بين المخاطب والمخاطَب.

وقد نبه سعد لخذاري من التعريفات السابقة إلى أن ثمة خلطا بين مفهومي الخطاب والنص، يقول:"والحق أن بينهما اختلافا، فالنص، في هذه الدراسات هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله. مما يفرض معرفة شروط إنتاجه وظروفه. كما أن هناك فرقا في العلامات المستعملة، فقد ينتج

[1] - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مجلة عالم المعرفة غشت 1992، العدد 164 الصفحة: **217-216**.

[2] - البحر المحيط في أصول الفقه ج126/1

الخطاب بعلامات غير لغوية كما هو الحال في التمثيل الصامت أو الرسم أو الكاريكاتوري أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي قد يقتصر على استعمال علامات غير لغوية"[1].

فالمفهوم المشترك بين النص والخطاب هو الذي يكمن في كونهما مجموعة من الجمل تخضع لترابط وتبادل عن طريق الأدوات النحوية والتلاحم المعنوي، كما يرتبط الخطاب إضافة إلى ذلك بالسياق الذي يحدث فيه التخاطب من مرسل ومرسل إليه وظروف زمانية ومكانية، ويستخدم الخطاب كذلك العلامات غير اللغوية كالإيماءات والإشارات التي تؤدي دلالات متعددة، كما يمكن أن يكون الخطاب غير لغوي كما في الإعلانات والرسم أو التمثيل الصامت أو إشارات المرور.

أما عند طه عبد الرحمان فإن حقيقة الكلام لا تقوم في مجرد النطق بألفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محددة، لأن هذا النطق قد يقعُ عَرَضًا، وإنما حقيقته كامنة في كونه ينبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بـــ "التوجه إلى الغير" والثاني يتصل "بـــ "إفهام هذا الغير".[2] وبذلك فالخطاب، كما يقول طه عبد الرحمان، هو "كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"[3]. وذلك ما بينه الآمدي لما قال في تعريفه: "إنه اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه".[4]

وهكذا فإن ما يحدد ماهية الكلام هي العلاقة التخاطبية وليس العلاقة اللفظية وحدها"[5]، فلا كلام بغير تخاطب،ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة "المخاطِب" (بكسر الطاء) ولا مستمع من غير أن تكون له وظيفة "المخاطَب" (بفتح الطاء)". وهذه العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب لا تنحصر في عملية نقل مضمون القول من أحد الطرفين إلى الآخر، لأن هذا النوع من النقل يمكن أن تقوم به الآلة، ومعروف أن الآلة لا تنسب إليها أوصاف "الخطاب". فالمتكلم ليس ذاتا ناقلة "وإنما هو ذات مُبَلِّغَة"، وحسب طه عبد الرحمان فـــ "المنطوق به الذي يستحق أن يكون خطابا

[1] - الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب، د لخذاري سعد ص144.

[2] - المرجع السابق ، ص: 214.

[3] - المرجع نفسه.

[4] - الآمدي الإحكام في أصول الأحكام ج136/1.

[5] - اللسان والميزان، طه عبد الرحمان، ص 215.

هو الذي يقومُ بتمام المقتضيات التعاملية الواجبة في حق ما يسمى "الحِجاج"، إذ حدُّ الحجاج أنه كل منطوق به مُوجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[1].

ثم إن حقيقة الخطاب ليست مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هي "**العلاقة الاستدلالية**" وليست العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مُخَاطَب من غير أن تكون له وظيفة "المعترض""[2].

ولعله قد تبين أن الخطاب التواصلي هو خطاب حجاجي تحكمه العلاقة التخاطبية والعلاقة الاستدلالية بين طرفي الخطاب: المرسل / المدعي والمرسَل إليه / المعترض.

تحليل الخطاب:

يطلق تحليل الخطاب بصفة عامة، كما ورد في معجم تحليل الخطاب "على العلاقة التي بين النص والمقام، فلا داعي للحديث إذن عن تحليل الخطاب في أبحاث تتعلق بالتداولية كأبحاث أ. ديكرو مثلا التي تتناول ملفوظات منقطعة عن السياق"[3].

فتحليل الخطاب هو دراسة للخطاب: " أي دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية، فإنه يبدو الفن الذي يدرس اللغة باعتبارها نشاطا راسيا في مقام ومنتجا لوحدات تتجاوز الجمل، وباعتباره استعمالا للغة لغايات اجتماعية تعبيرية وإحالية. وفي هذه الحالة يعمل تحليل النصوص على تعايش مقاربات شديدة التنوع: تحليل الخطاب، وإثنية التواصل، واللسانيات الاجتماعية التفاعلية"[4].

يدرس تحليل الخطاب - حسب منغنو - التلفظ في بيئته المحيطة به، والتي ساهمت في بنائه وفق ظروف اجتماعية، وعبر سياق خاص، لأنه يهتم بالكلام الحيوي في المقهى والمدرسة والمحلات التجارية، كما يهتم بمختلف الحقول التي تنشأ فيها الخطابات المختلفة؛ (تعليمية،

---

[1] - المرجع السابق 216.

[2] - المرجع السابق 226.

[3] - معجم تحليل الخطاب، لجماعة من المؤلفين، بإشراف: باتريك شارودو – دومينيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا،تونس (2008) ص 44.

[4] - دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب ص 44.

سياسية، دينية، وإخبارية)، فلكل ما يحيط بالخطاب أهمية في زيادة فهمه، وتحليله، ومعرفة قوانينه، والأمور المتحكمة فيه[1].

ومن أجل هذا كما ورد عند دومينيك منغنو: "نرى من المستحسن اعتبار تحليل الخطاب المخصص الذي بدل أن يقدم على التحليل اللغوي للنص في ذاته أو على التحليل السوسيولوجي أو النفساني لمحتواه، يسعى إلى مفصلة (**Articular**) تلفظه مع موقع اجتماعي بعينه، وهكذا يجد تحليل الخطاب نفسه حيال أنواع الخطابات المشتغلة في قطاعات الفضاء الاجتماعي (المقهى، المدرسة، المحل التجاري...)، أو في الحقول الخطابية (السياسي، العلمي...).[2]

فالنص - حسب منغنو – هو جزء من الخطاب بعيدا عن السياق، لذلك فإن تحليل الخطاب يدرس التلفظ في بيئته المحيطة به، والتي ساهمت في بنائه وفق ظروف اجتماعية، وعبر سياق خاص، لأنه يهتم بالكلام الحيوي في المقهى والمدرسة والمحلات التجارية، كما يهتم بمختلف الحقول التي تنشأ فيها الخطابات المختلفة؛ (تعليمية، سياسية، دينية، وإخبارية)، فلكل ما يحيط بالخطاب أهمية في زيادة فهمه، وتحليله، ومعرفة قوانينه، والأمور المتحكمة فيه.

فالباحث هنا يلح على دور السياق في تحليل الخطاب، وفي ربط النص بالمقام المحيط به، كما أنه يستبعد تلك الأبحاث التي تدرس الملفوظات بعيدا عن السياق(**Contexte**).

عناصر الخطاب:

عناصر الخطاب السياقية إجمالا هي:

المرسل – المرسل إليه – العلاقة بين طرفي الخطاب – ظروف التخاطب – المعرفة المشتركة ....

وقد أعطى العناني صياغة شكلية للخطاب وفق ثلاثة فروع متضافرة:

- ✓ شكل الخطاب؛
- ✓ مضمون الخطاب؛
- ✓ سياق الخطاب ومرجعيته؛

[1] - دومينيك مانغونو،المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد بحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008، ص 19.

[2] - المرجع السابق، ص: 19.

ويتجه التحليل حسب العناني إلى النسقية في الخطاب بتضافر العلاقات بين الجمل، وذلك نظرا لكونها تتصل بعضها ببعض بعلائق عن طريق الروابط النحوية أو عن طريق التلاحم المعنوي، إلى جانب اشتغال معاني الجمل في بعضها البعض[1].

ويختلف تحليل الخطاب من خطاب إلى آخر فإذا " كانت هذه هي المنظمات العامة لأي خطاب إلا أنها تتفاوت وتتمايز شكلا وبناء وفقا لطبيعة الخطاب وقصده. فالخطاب الأدبي مختلف عن الخطاب العلمي، والخطاب الديني مختلف عن الخطاب القانوني... الخ، ومن ناحية أخرى يفترق السردي والوصفي عن الخطاب الإقناعي الحجاجي، ويختلف الخطاب الإقناعي عن الخطاب التمثيلي والمقارِن...

فلكل خطاب خصوصياته الشكلية والمعنوية، فإذا كان من سمات الخطاب العلمي الدقة والوضوح، فإن الخطاب الأدبي من أهم سماته الجوهرية الخيال والمجاز والانزياح.

بينما يتسم الخطاب الديني بالوعظ والتركيز على الهداية وتبيين الخير من الشر بأساليب مختلفة، تتنوع بين بلاغتي الإقناع والامتاع بالقصة أو العبرة أو المثال وغير ذلك. وعلى محلل الخطاب أن يدرك خصائص المجال الخطابي الذي يعمل عليه مع المنهج المناسب لتحليله.

بدأ تحليل الخطاب،كما يقول محمد العناني، "يستقطب فروع اللسانيات المتخصصة، وصار يوظفها توظيفا خالصا لبناء منظومته المعرفية بإطاريها النظري والتطبيقي وصولا إلى خطاب مكين متماسك. وليس ثمة شك في هذه المنزلة التي يقصد محللو الخطاب إلى تأسيسها، ذلك أنه مجال معرفي حاضر في كل زمان ومكان، ويمارسه الناس يوميا في معظم فعاليات حياتهم وممارستهم القولية والفعلية، بدءا بالعلماء وانتهاء بعامة الناس... لقد صار تحليل الخطاب نشاطا يوميا نمارسه بوعي حاضر أو كامن، إنه زمن تحليل الخطاب"[2].

لذلك أعطت اللسانيات الحديثة اهتماما بالغا لتحليل الخطاب من خلال استعمال اللغة، كما هو عند بعض الباحثين التداوليين، وذلك بتجاوز وصف الخطاب وصفا شكليا، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند بيان علاقة وحدات الخطاب بعضها البعض وتحليلها. والدعوة إلى ضرورة الاعتناء بعناصر السياق ومدى توظيفها في إنتاج الخطاب وفي تأويله.

[1] - المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو،ص:94 .

[2] - تحليل الخطاب وتعليم مفردات العربية للناطقين بغيرها، ص 93.

البلاغة وتحليل الخطاب:

كانت البلاغة منذ نشأتها مهتمة بالخطاب والتخاطب، فالبلاغة اليونانية اهتمت منذ ظهورها بالخطابة، واتضح هذا أكثر في أعمال أرسطو الذي صنف الخطاب الحجاجي إلى أنواع وبين ما يناسب كل نوع. وإذا عدنا إلى البلاغة العربية القديمة، وجدناها قد نشأت في أحضان الخطاب، ثم تطورت وازدهرت بتشعب مباحثه وقضاياه، فاحتل الخطاب في أبحاث البلاغيين مكانة مهمة؛إذ نصادف عند البلاغيين العرب القدامى المؤسسين ملامح تحليل الخطاب في معظم مباحثهم التي تجمع بين النظرية والتطبيق. يقول محمد بازي: "تحليل الخطاب -...- ركن قوي في عمل البلاغيين، وشراح كتب البلاغة، والمختصرات، حيث يمدهم علم البلاغة بأدوات تحليل الخطابات أسلوبيا وحجاجيا ومقاميا، فضلا عن هذا، فإن تأليف البلاغيين في كل باب من أبواب البلاغة، يقوم على نسق تحليلي يكاد يمضي على منوال واحد، لم يعبر عنه صراحة، ولكنه قائم بشكل ضمني تلقائي ضمن تفكير المحلل البلاغي الموجه بمقاصد تعليمية إفهامية"[1].

وأصبح تحليل الخطاب يستقطب اهتمام البلاغيين الجدد، فالبلاغة الجديدة، كما يقول أحمد يوسف، تطمح إلى أن تصبح نظرية للخطاب،إذ أصبحت تقدم نفسها على أنها العلم المستقبلي لتحليل الخطاب ليشمل الحجاجية، ذات النزوع المنطقي واللساني، والأسلوبيات، والسميائيات النصية. وصارت تمتد إلى الإحاطة بأشكال التعبير الأيقوني بدءا من الكتابة إلى عالم الصورة والوقوف على تحولاتها الاجتماعية والجمالية ضمن حضارة الصورة التي فرضت أدبيات جديدة في الحوار[2].

وتضاعف الاهتمام بحقل الخطاب في الدراسات والأبحاث البلاغية الحديثة، خاصة بعد ظهور أعمال البلاغيين الجدد، وفي طليعتهم،شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا،مما أدى إلى ظهور حقل تخصصي، يجري الاشتغال عليه من قبل عدد من الدارسين المحدثين،يصطلح عليه: "**البلاغة وتحليل الخطاب**"، رغبة منهم في إيجاد أفضل مقاربة لخطابات متعددة.

وهكذا ارتبطت الدراسات الحجاجية الجديدة بحقل الخطاب، وانشغلت بتحليل الخطابات،بما فيها الخطابات الحجاجية؛ فالبلاغة الجديدة تتمحور أساسا حول تحليل تقنيات الحجاج،ولذلك فهي تحتفي كثيرا بالحجاج وتعطيه مساحة هامة في الدراسة،خاصة مع دراسات شاييم بيرلمان الحجاجية التي انطلقت من أعمال أرسطو.

---

[1] - البلاغة الكبرى، ج 1، ص: 148.

[2] - أحمد يوسف، السميائيات والبلاغة الجديدة، مقال بمجلة علامات ع 28، 2007، (المغرب) ص : 110 وما بعدها.

البلاغة العربية وتحليل الخطاب

اهتم البلاغيون العرب القدامى منذ بداية نشأة البلاغة العربية مع المتكلمين واللغويين والمتأدبين والنقاد بالخطاب، سواء أكان خطابا قرآنيا أم خطابيا أم شعريا. وقد زاد هذا الاهتمام عند البلاغيين المؤسسين والمنظرين كالجاحظ وابن وهب وتعمق أكثر مع عبد القاهر الجرجاني. فالنص والخطاب كانا حاضرين في تحليلات اللغويين والبلاغيين العرب، كما يقول منذر عياشي: "لقد انطلق الباحثون العرب في درسهم اللغوي من النص - تنظيرا وممارسة – فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانت نظرتهم للأسلوب - في جملة تلك العلوم - أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنيان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص"[1].

ملامح تحليل الخطاب في البلاغة العربية

أثبتت الدراسات الحديثة وجود إرهاصات لتحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة. فإلى جانب اهتمام البلاغيين العرب القدامى بالخطاب القرآني في دراساتهم الإعجازية، وهي دراسات في تحليل الخطاب القرآني نجدهم أيضا يُعرِّفون بالأساليب، وفي سياق ذلك التعريف يستشهدون لها ولأنواعها ولأغراضها بنصوص وخطابات إما من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو من الشعر العربي أو النثر وكلام العرب، وغالبا ما يشتغلون على تلك النصوص المستشهد بها تحليلا وتفسيرا ويبينون ما تنهض به تلك الأساليب من وظائف نصية وتعبيرية ودلالية وحجاجية إقناعية.

ومن المعروف أن الدرس اللغوي العربي، نحوا وصرفا ولغة، قد بدأ مبكرا وتطور بعد عصور التدوين، بينما تأخر التنظير البلاغي إلى حوالي القرن الثالث الهجري. وإذا كان التنظير البلاغي العربي قد جاء متأخرا إلى ما بعد عصر التدوين، أو إلى عهد الجاحظ، فإن الإنجاز البلاغي العربي كان قديما، بدأ مع بداية الإبداع العربي، أي منذ العصر الجاهلي. وهذا الإبداع لم يكن مقتصرا على الشعراء ولا الخطباء ولا الرجاز ولا الكهان، بل شمل غيرهم. فالعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة حتى في محادثاتهم العادية،وفي تحاورهم اليومي. ثم تضاعف هذا الإنجاز البلاغي

[1] - الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى(2002) ، ص 28- 29 بتصرف

في صدر الإسلام وفي العصرين الأموي والعباسي الأول مع الفرق الكلامية، والأحزاب السياسية المتصارعة التي سخرت - من ضمن ما سخرت في معاركها وخصوماتها - الشعر والخطابة والمناظرة والرسائل، وكانوا يعلمون المنتسبين إليهم أساليب الخطابة والمناظرة، وطرق الإقناع والتأثير في المخاطبين، وبدا ذلك واضحا عند المعتزلة، كما يتبين من صحيفة بشر بن المعتمر، التي نقلها إلينا الجاحظ وأبو هلال العسكري، وهي أول أثر بلاغي ونقدي مدون. "وكان أبو بشر شيخا من شيوخ المعتزلة، عاش الشطر الأطول من حياته في القرن الثاني الهجري، فعاشر طبقة اللغويين والنحاة من العلماء بالشعر كأبي عبيدة والأصمعي وعددا من كبار الشعراء المحدثين كأبي نواس ومسلم بن الوليد. وقد تضمنت صحيفته توجيهات إلى الخطباء والمتكلمين للتأثير في خصومهم، ركزت على الجانب البلاغي المؤثر في الحجاج والمحاورة. وفيها يتحدث عن المتكلم وما ينبغي أن يتوفر له من حسن الاستعداد للكلام وما ينبغي أن يتوفر لكلامه من الجمال والإمتاع وما ينبغي أن يسود من الملاءمة التامة بين الألفاظ والمعاني وبين الكلام وطبقات السامعين"[1].

وقد ترددت آراء بشر وما جاء في صحيفته الحجاجية عند البلاغيين العرب الأوائل، كالجاحظ الذي يُعد من أوائل المؤسسين للنقد والبلاغة في تراثنا العربي القديم. فالجاحظ في البيان والتبيين قام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان. فهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني"[2].

ويعد كتاب "البرهان في وجوه البيان" لأبي الحسين بن وهب الكاتب من أهم الكتب التي اهتمت بالخطاب مهما كان نوع ذلك الخطاب. وقد نسب هذا الكتاب خطأ لقدامة بن جعفر تحت عنوان "نقد النثر"، لكن المحققين أثبتوا فيما بعد أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة[3].

وبين المؤلف في مقدمة البرهان أن كتابه يأتي استجابة لأحد حكام عصره الذي طلب منه بيان ما قصر في بيانه الجاحظ من وظائف البيان وأقسامه. يقول: "البيان على أربعة أوجه. فمنه بيان

[1] - البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف،ص: 369

[2] - البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، ص: 28.

[3] - البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، تنظر مقدمة المحقق.

الأشياء بذواتها، وإن لم تبنْ بلغاتها؛ ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب، ومنه البيان باللسان ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغُ من بعُدَ وغاب".

وفي باب "العبارة" وباب "الكتاب"، أي في الوجه الثاني والوجه الثالث من أوجه البيان عند ابن وهب،نجد مباحث مهمة في البلاغة والكتابة والشعر والخطابة والجدل، تناولها ابن وهب من زوايا عدة، تواصلية وحجاجية وأجناسية ونقدية ... مما جعل كتابه جامعا بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر وبين مباحث التخييل ومباحث الحجاج والتواصل والتداول، لذلك فالكتاب يمكن تصنيفه دون تردد ضمن كتب البلاغة العامة. ففي باب تأليف العبارة - وهو أهم مبحث عنده- بين ابن وهب أنواع العبارة في لسان العرب وأنها إما شعر أو نثر، يقول: "اعلم أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوما أو منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام، فالشعر ينقسم أقساما: منها القصيد وهي أحسنها وأشبهها بمذاهب الشعراء، ومنها الرجز وهو أخفها... ومنها المسمط... ومنها المزدوج"[1].

ثم بين ابن وهب أن البلاغة والإيجاز من خصائص الشعر والنثر، إلا أن ما يجوز للشاعر من إخلال بهما لا يجوز للكاتب، وذلك لأن النثر مطلق غير محصور على خلاف الشعر فإن القافية والوزن يقيدانه،[2] يقول: "في الشعر والنثر تقع البلاغة أو العي، والإيجاز والإسهاب، إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في الشعر والقول قضى الشاعر بالفلج[3]، والعي والإسهاب إذا وقعا في الشعر والقول[4] كان الشاعر أعذر، وكان العذر من المتكلم أضيق، وذلك لأن الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية، فالكلام يضيق على صاحبه، والنثر مطلق غير محصور، فهو يتسع لصاحبه"[5].

[1] - البرهان في وجوه البيان: 127.

[2] - وقد ذكر ابن وهب ما أغتفره النقاد للشاعر من ضرورات كقصر الممدود وحذف الحركة وتخفيف الهمزة وصرف ما لا ينصرف واستعمال الزحاف في الوزن . ينظر البرهان 128- 129.

[3] - الفلج : الفوز

[4] - أي النثر.

[5]- البرهان: 127.

مباحث البلاغة العربية وتحليل الخطاب

انطلق البلاغيون العرب القدامى إذن من نتائج الدراسات النحوية والصرفية واللغوية عموما. وهذا ما يؤكده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز لما تحدث عن أهمية النحو في البلاغة.[1] ونتج عن ذلك أن البلاغةَ العربيةَ ارتبطت منذ بداية نشأتها بالخطاب؛ فاكتسبت بعدا تحليليا أسلوبيا ولسانيا.

وقد عمَّق ذلك البعد ارتباط العرب، منذ وقت مبكر، بالنص والخطاب. فبعدما كانوا مرتبطين بالنص الشعري في العصر الجاهلي، صاروا متعلقين بالخطاب القرآني، وزاد من ذلك التعلق والارتباط، ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغل البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية. فكانت الدراسات الإعجازية المبكرة مع المتكلمين كالرماني والخطابي والباقلاني ثم عند البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني هي دراسات في أسرار الإعجاز البياني للخطاب القرآني.

فقد ظل المتكلمون ناشطين في وضع المباحث البلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويأتي في مقدمة أبحاثهم: "النكت في إعجاز القرآن للرماني" الذي فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني.

فالبعد النصي والخطابي إذن قيمة معرفية هامة صاحبت أعمال اللغويين والمتكلمين والبلاغيين العرب القدامى، فمن النص ومن الخطاب انطلق اللغويون والبلاغيون العرب لتأسيس نظرياتهم في اللغة والبلاغة. كان الدرس البلاغي عند هؤلاء البلاغيين العرب إذن يرتكز على النص/الشاهد، لذلك جاءت مصادرهم حافلة بالنصوص القرآنية والحديثية والشعرية وكلام العرب.

ثم إن الاستشهاد بالنص عندهم كان مصحوبا بنوع من التلقي لهذا النص، فغالبا ما نجدهم يقرؤون الشاهد ويقفون عند مستوياته اللغوية والبلاغية، مبرزين دلالاته ومقاصدَه ومظاهر الإبداع فيه. ويزيد ذلك الاهتمام ويتقوى كلما اشتغل البلاغي على نص بعينه، وهذا ما يتجلى في

[1] - دلائل الإعجاز: 29 -32 وتنظر الصفحة 81.

أوضح صوره عند بعض المفسرين كالزمخشري في "الكشاف"، وابن عطية في المحرر الوجيز وأبي حيان الأندلسي في "البحر المحيط" والبلاغي الحديث الطاهر ابن عاشور في " التحرير والتنوير". وظهرت هذه العناية بالخطاب، في أبرز صورها وتجلياتها، أيضا في شروح الشعر العربي القديم التي ارتكزت على تحليل النص الشعري وقراءته عبر مستوياته اللغوية والبلاغية[1].

فالمتأمل في تلك الدراسات النصية، يجد استثمارا واضحا لأساليب البلاغة العربية في تحليل الخطاب، وفي القراءة والتفسير والتهذيب والتأويل.

الأبعاد الوظيفية لأساليب علم البيان في الخطاب

اتضحت معالم علوم البيان في البلاغة العربية بعد تأليف عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة رغم أنها كانت معروفة عند البلاغيين واللغويين المتقدمين. هذه الأساليب نجد في كتب البلاغة اهتماما بتعريفها وتوضيح مكانتها وأهم وظائفها وأغراضها. وهذا ما تم التركيز عليه في تدريس البلاغة في المؤسسات التعليمية. لكن هناك جانب مهم في هذه الأساليب قلما يفطن إليه الطلاب والمتعلمون رغم أن البلاغيين كانت لهم وقفات مهمة معه، ويتعلق الأمر بوظائف هذه الأساليب في الخطاب فهما وتلقيا وتحليلا. وفيما يلي توضيح لذلك من خلال بعض النماذج:

فلنتأمل ما قاله عبد القاهر الجرجاني في آية يونس 24:

«ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: **(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغْنَ بالامسِ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)**[2]، كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشْر جملٍ إذا فصلت . وهي وإنْ كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنَّ ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر حتى إنك لو حذفتَ منها جملةً واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه.

[1] - بينت ذلك في عدة أبحاث، ينظر على سبيل المثال كتابي "اللغة والدلالة في النص الشارح)، ط 1 (2012).

[2] - سورة يونس، الآية: 24.

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما»[1].

فالمتأمل في الآيتين السابقتين وغيرهما كثير في الخطاب القرآني يجد أن أسلوب التمثيل حقق عدة وظائف:

1) الوظيفة النصية وهي التي ركز على بيانها عبد القاهر الجرجاني في نصه السابق، إذ كشف عن ترابط وتناسق عدة جمل في هذا الخطاب وكأنها جملة واحدة، وأن التمثيل لا يمكن تحديد وجه الشبه فيه اعتمادا على بعض الجمل، بل إن الصورة منتزعة من كل هذه الجمل.

2) الوظيفة البيانية الإفهامية: فبالتمثيل تم توضيح حقيقة الحياة الدنيا وزينتها، وأنها سرعانما تفنى وتزول كفناء النبات المخضر بعدما كان مخضرا يانعا تعجب صورته وتغري.

3) الوظيفة الحجاجية الإقناعية: إقناع المخاطبين بأن هذه الحياة وزينتها لا تدوم لذلك لا ينبغي الاغترار بها، أو الانشغال بتحصيلها وترك ما هو أهم وهو العمل للآخرة.

4) الوظيفة التأثيرية: التأثير على المخاطبين وحملهم على تغيير موقفهم من زينة الحياة الدنيا.

5) تحليل الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني ركز على الجانب الأسلوبي المتمثل في أساليب التمثيل والوصل ثم أهمية الربط والتنسيق والترتيب في أداء وظائف هذا التمثيل: " ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما". وهذا طبعا بفلسفة النظم عنده، فلا تكتمل وظائف التشبيه ولا الاستعارة إلا بالنظم. وقد صنف عبد القاهر الجرجاني بابا من أهم أبواب الكتاب في الاستدلال على أن المزية لا تكون للفظ أو للأسلوب من حيث إنه أسلوب أو لفظٌ، بل لما يؤديه من مقاصد وأغراض[2]، ولما يأتي عليه من طرق إسناد في تراكيبه ونظمه وترتيب مكوناته. وقد توقف عند نماذج للاستعارة فبين كيف أسهمت عناصر أخرى مرتبطة بالتركيب والوصل والنظم في ما صار

[1] - أسرار البلاغة ص 88، وقد جاء بهذا الكلام في سياق تمييزه بين التشبيه المفرد والتشبيه المركب.

[2] - دلائل الإعجاز من الصفحة 87 إلى الصفحة 105، "فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤم".

لها من المزية والحسن، يقول: "ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا)...لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرفَ إلا إليها، ولمْ يروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام = لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سُلِكَ بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسندُ إليه، ويؤْتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول،إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة،كقولهم: طاب زيدٌ نفساً"[1].

فعبد القاهر الجرجاني في تحليل هذا الخطاب القرآني بيَّن أن الاستعارة لم تنفرد بما حققه هذا الكلام من أغراض ومعان، بل ساندها في ذلك التركيب النحوي للآية، الذي تم فيه إسناد الفعل (اشتعل)إلى الفاعل غير الحقيقي (الرأس) وصار فيه الفاعل الحقيقي (الشيبُ) مفعولا به. مما اثمر أغراضا ومعاني ما كان للتركيب الأصلي أن يحققها، يقول: "فإن قلتَ: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولمَ بان من المزية بالوجه الآخر هذه البيْنونة؟

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمَّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لمْ يبق منه إلا ما لا يعتدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: "اشتعل شيب الرأس، أو الشيبُ في الرأسِ"، بل لا يوجِب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة"[2].

وهكذا يظهر كيف جعل عبد القاهر الجرجاني الأسلوب البياني لا يحقق الأغراض المقصودة بمفرده بل بمعية التركيب النحوي وما يطرأ عليه على مستوى الإسناد من تقديم وتأخير وغير ذلك من أحوال المسند والمسند إليه المعروفة. وتلك المقاصد والأغراض هي مرتبطة بعناصر التخاطب من مخاطِبٍ ومخاطَب ورسالة تخاطبية، وعلى أساسها يحلل البلاغيون الأساليب ومقاصدها وأغراضها.

[1] - دلائل الإعجاز ،ص 100.

[2] - المصدر السابق 101.

ثم إن البلاغيين في تعريفهم للأساليب البيانية وفي حديثهم عن أغراضها ووظائفها، يربطون ذلك بأغراض الخطاب ومقاصد المتكلم؛ ففي بيان وظائف التمثيل ومواقع تأثيره على المخاطَبِ يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أنَّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقِلتْ عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوبَ إليها...

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظمَ، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدِح، وأوجب شفاعة للمادح.....

وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع، وميسمُه ألْذعَ، ووقعه أشدَّ، وحدُّه أحدَّ."[1]

فلنتأمل قوله: "فإن كان مدحا كان أبهى وأفخمَ... وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع"، فالتمثيل كأسلوب بياني ربط بالخطاب وبمقاصده، فهو إما أن يكون خطاب مدح أو خطاب ذم أو خطابا آخر، وفي كل خطاب يحقق أغراضا تخاطبية كما جاء في النص السابق. وهذا الربط للأسلوب البياني بالخطاب نجده راسخا عند النقاد والبلاغيين، وقد عبروا عن ذلك بقولهم على سبيل التقرير والتأكيد في تعريف الشعر وبيان حقيقته: "وهل الشعر إلا تشبيه نادر، ومثَلٌ سائر، واستعارةٌ قريبة؟".

فأن يختصر الشعر في حقيقته وجوهره في أنه تشبيه نادر أو مثل سائر أو استعارة قريبة، أمر دال على نظرة هؤلاء البلاغيين لهذه الأساليب وصلتها الوثيقة بالخطاب وعلاقتها بأطراف التخاطب.

من هنا نفهم لماذا كان النقاد المشتغلون على النصوص يهتمون باستثمار الأساليب البيانية في تحليل الخطاب. وذلك ما يتضح من الخطابات المفسرة والشارحة.

فالباحث في شروح الشعر العربي القديم - على سبيل المثال - سيجد توظيفا واضحا لهذه الأساليب وغيرها من الأساليب اللغوية والبلاغية في تلقي النص الشعري وفي تهذيبه، كشروح المعلقات وشروح الحماسة وغيرها. وكذلك الأمر في تفاسير القرآن الكريم، خاصة تلك التي وظفت اللغة والبلاغة في الشرح ،كتفسير أبي حيان الأندلسي (البحر المحيط) والزمخشري (الكشاف) والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير .

[1] - أسرار البلاغة، ص 93 .

الأبعاد الوظيفية لأساليب علم المعاني في الخطاب

تأتي أساليب علم المعاني في مقدمة أساليب البلاغة العربية التي تحضر في تحليل الخطاب عند أئمة هذه البلاغة،بشكل أسلوبي تداولي واضح. يتبين ذلك في دراساتهم لأساليب التقديم والتأخير والوصل والفصل، والإيجاز والاطناب، والحذف والذكر، والقصر وفي تناولهم لأساليب الخبر والإنشاء والدلالات والأغراض التي قد تفيدها في الخطاب والمقامات الخطابية التي تقضيها وتستدعيها.

فالبلاغيون العرب حين يدرسون هذه الأساليب، يقومون بتحليل النصوص المستشهد بها تحليلا أسلوبيا في سياقها وظروفها التخاطبية، فيبرزون وظائفها التعبيرية والدلالية والحجاجية. وقد يقارنون ويوازنون بين النصوص وبين الشعراء في الأسلوب نفسه. وفيما يلي نماذج لتلك الأساليب البلاغية ولأبعادها الأسلوبية والتخاطبية عند بعض البلاغيين العرب.

1 – أسلوب الوصل والفصل:

إن البلاغة العربية القديمة قد أولت أهمية بالغة لمسألة الربط بين الجمل في مبحث الوصل والفصل، وخاصة الربط بالواو، وهو عند البلاغيين مسلك دقيق. فقد بينوا متى يجب الوصل بين الجمل، ومتى يمتنع، ووضحوا علاقة ذلك بالدلالة والسياق وبمقصدية المتكلم وعلاقته بالمخاطب. فهذا عبد القاهر الجرجاني يقول في شأن الجمل التي لا تحتاج إلى وصل: "واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلته معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه....كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها. وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها."[1]. فعبد القاهر في هذا النص يبين أن ما يجري في المفردات يجري في الجمل، فكما أن المفرد في حال التوكيد والبيان والصفة لا يحتاج إلى وصل، فكذلك الجمل لا تحتاج إلى الوصل والربط في هذه الحالات. وقد استدل على ذلك بنصوص من القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة البقرة : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.)[2]، " فقوله تعالى: "لا يؤمنون" تأكيد لقوله: (سواء

[1] - دلائل الإعجاز 227 (بتصرف).

[2] - البقرة 6-7

عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)، وقوله : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)، تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة"[1]. وقد قام الجرجاني بتحليل عدة آيات بهذه الطريقة الأسلوبية[2].

ويتضح هذا المنحى الأسلوبي عند البلاغيين، بشكل واضح، في دراسة أساليب علم المعاني، في مباحث: الإيجاز والاطناب والتقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير والقصر.

ولعل أبرز المباحث البلاغية التي اتخذت عند بعض البلاغيين العرب القدامى بعدا أسلوبيا وتداوليا مبحث التقديم والتأخير، وقد أجاد في معالجته إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني[3]، الذي توقف عند التقديم مع همزة الاستفهام، ومتى يحصل، وما هي أغراضه المقامية، وعلاقة ذلك بالمقام التخاطبي وبمقاصد المتكلم. كما بين متى يتم تقديم الفعل، ومتى يقدم الفاعل، ومتى يقدم المفعول، مستشهدا بنصوص وشواهد، ومحللا لتلك النصوص تحليلا تداوليا.

2- مبحث المقام والسياق من مباحث تحليل الخطاب عند البلاغيين:

من المباحث البلاغية التي يمكن اعتبارها إرهاصات مبكرة لتحليل الخطاب مبحث المقام والسياق. وقد أبدع عبد القاهر الجرجاني في مقاربة أساليب علم المعاني في كتابه دلائل الإعجاز مقاربة مقامية، ويتضح ذلك عنده في عدة مباحث كالتقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير والقصر وغيرها.

وفي مبحث التقديم والتأخير توقف عبد القاهر الجرجاني وقفة طويلة مع حالات التقديم والتأخير وحاول تفسيرها بالعودة إلى المقام التخاطبي، ومن تلك الحالات تقديم النكرة على الفعل في الاستفهام والخبر، وقد حلل نماذج من هذا التقديم وربطه بالمقتضيات المقامية.

ويمكن اختصار كلامه في الجدول الآتي:

[1] - دلائل الإعجاز، ص: 228.

[2] - ينظر المصدر السابق، ص: 228 وما بعدها.

[3] - المصدر السابق 106 وما بعدها.

المثال	الطبقة المقامية المناسبة له حسب الجرجاني
1) أجاءك رجل؟	- السؤال هنا عن فعل المجيء هل حدث، ولا يجوز هنا تقديم الاسم.
2) أرجل جاءك؟	- السؤال عن جنس من جاء أهو رجل أم امرأة.
3) أرجل طويل جاءك؟	- السؤال عن وصف الرجل أطويل أم قصير.
	- القصد جنس من جاء .
4) رجلٌ جاءني.	- القصد فعل المجيء.
5) جاءني رجلٌ.	- القصد صفة الرجل.
6) رجل قصير جاءني.	- لا يقال إلا عندما يتوهم السامع أن الذي جاء امرأة.
7) ما أتاني إلا رجل.	- يقال عندما تريد قصر المجيء على زيد دون غيره لما يتوهم السامع أن
8) ما جاءني إلا زيد.	غير زيد أتاك.

ومن البلاغيين الذين أجادوا في ربط الأساليب بالمقام والسياق التخاطبي أيضا السكاكي،إذ خصه بمبحث مهم، تحدث فيه عما يقتضيه المقام من مقال، يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على الاستخبار أو الإنكار، وكذا مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار"[1].

واستحضر السكاكي السياق والمقام في عدة مباحث أبرزها "الخبر والإنشاء"، فتوصل إلى نتائج مهمة في بيان أغراض الأساليب الخبرية والإنشائية الأصلية والمقامية. ولذلك نجده مرجعا لبعض اللسانيين المحدثين في الكثير من دراساتهم التداولية لهذه الأساليب[2]. إذ بين أن الخبر قد يفيد الطلب بمعونة قرائن الأحوال، وأن الإنشاء قد يفيد الخبر، كدلالة الاستفهام على التقرير أو النفي، يقول: "واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر

[1] - مفتاح العلوم، ص:256.

[2] - ينظر مثلا د. أحمد المتوكل 86 و 89.

أحدهما في موضع الآخر، لا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا"[1].

ولأن الأساليب الإنشائية هي أكثر انزياحا وعدولا عن معانيها الأصلية، فقد خصها السكاكي ببحث مفصل تميز به عن غيره من البلاغيين. فقد بين السكاكي بتفصيل ما قد تفيده الأساليب الطلبية من معان مقامية. فقسم الأساليب الإنشائية الطلبية إلى نوعين:

- نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وهو التمني .
- ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول ويشمل باقي الأساليب الإنشائية الطلبية .

ثم قال: "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام كما إذا قلت لمن همك همه : ليتك تحدثني، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكره، على أصله فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصوله وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال،أو كما إذا قلت : هل لي من شفيع ، في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني، وكذا إذا قلت: لو يأتيني زيد فيحدثَني بالنصب، طالبا لحصول الوقوع فيما يفيد "لو" من تقدير غير الواقع واقعا، ولَّد التمني، وسبب توليد "لعل" معنى التمني في قولهم: "لعلي سأحجُّ فأزورَك بالنصب هو بُعْد المرجو من الحصول، أو كما إذا قلتَ لمن تراه لا ينزلُ: "ألا تنزل فتصيبَ خيرا؟"، امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلا، ويوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: ألا تحب النزول مع محبتنا إياه؟، وولد معنى العرض، كما إذا قلت لمن يؤذي أباه: أتفعل هذا؟ امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى، لعلمك بحاله، وتوجه إلى ما لا تعلم، مما يلابسه، من نحو أتستحسن؟. وولَّد الإنكار والزجر، أو كما إذا قلت لمن يهجو أباه، مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئا غير هجو النفس: هلْ تهجو إلا نفسك؟ أو غير نفسك؟ امتنع منك إجراء الاستفهام على ظاهره، لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عندك توجها إلى غيره، وتولد منه بمعونة القرينة، الإنكار والتوبيخ"[2].

وقد استطرد السكاكي في الحديث عن هذه البنيات الاستفهامية التي خرجت عن أصل الوضع تبعا للمعطيات المقامية ومن النماذج التي ذكرها:

---

[1] - مفتاح العلوم، ص : 323.

[2] - مفتاح العلوم ص : 416- 417.

المثال	الغرض
- ألا تنزل فتصيبَ خيرا؟	- العرض
- أتفعل هذا ؟ (لمن رأيته يؤذي أباه)	- الإنكار والزجر.
- هل لي من شفيع	- التمني
- لو يأتيني زيد فيحدثَني	- التمني
- لعلي سأحجُّ فأزورَك.	- التمني.
- ألَم أؤدبْ فلانا؟	- الوعد والزجر .
- أما ذهبت بعد؟	- الاستبطاء (أما تيسر لك الذهاب بعد؟).
- ألا أعرفك؟	- الإنكار والتعجب : (أتظنني لا أعرفك؟)
- افعل هذا الأمر؟ وأنت تعرف عجزه عن فعله.	- التعجيز.
	- التهديد.
- اشتُمْ مولاك ؟ بعد تأديب العبد على ذلك.	- التهديد.
- لا تمتثل أمري؟	

ولا يخفى ما لهذا المحث من أهمية في تحليل الخطاب؛ إذ يمد المحلل بأغراض الأساليب ودلالاتها بحسب سياقاتها التواصلية. ومن المعلوم عند المشتغلين بتحليل الخطاب، أن هذا التحليل لا يمكن أن يتم بعيدا عن سياق الخطاب وظروف إنتاجه.

وما بيناه بخصوص الأساليب الخبرية والإنشائية وغيرها، يمتد إلى أساليب أخرى من علم المعاني، سبق التطرق إليها في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

البلاغة العربية والتأويل

لن أبالغ إن قلت إن مجال البلاغة والتأويل يعد من أكثر مجالات البلاغة التي ما تزال مهجورة، وتحتاج إلى فضل دراسة وبحث وبيان. فقد بينت في المباحث السابقة أهمية الأساليب البلاغية في فهم الخطاب وتفسيره وتأويله؛ وأن الخطاب يتشكل من أساليب بلاغية، قد لا تدل في كثير من السياقات التداولية، على معانيها الأصلية، بل تنصرف إلى أغراض مقامية، وأن استخلاص تلك الأغراض والدلالات مما لا يتيسر لمن لا يمتلك معرفة كافية بالبلاغة وأغراض الأساليب. ومع ذلك فإن هذا المنجال؛ أعني "البلاغة والتأويل"، ما تزال الدراسات والأبحاث فيه نادرة، رغم أن مجال الممارسة والتطبيق، في تراثنا الأدبي والنقدي والشرعي عرف إنجازات مهمة، تنتظر من يميط عنها اللثام؛ فتفاسير القرآن الكريم، وشروح الحديث النبوي، وشروح الشعر،وكتب علوم القرآن وكتب أصول الفقه ومصادر فقه اللغة، تزخر بنصوص ثرية في تأويل الأساليب البلاغية وبيان أغراضها ودلالاتها، لكن هذه الإنجازات ما تزال تنتظر من يقدمها ويظهرها في شكل يليق بالتطور الحاصل في الدراسات النصية والخطابية.

ومن الباحثين الذين التفتوا إلى أهمية هذه الدراسات، وإلى أهمية التأويل البلاغي، الباحث محمد بازي الذي يقول: "توقف كثير من دارسي البلاغة عند علاقتها بالتخييل والتدليل (الحجاج)، وأنجزتْ دراسات عربية وأخرى غربية عن دوران علم البلاغة على هذين المحورين، ونحب الإشارة إلى قارتين في حاجة إلى مزيد من الدراسة والاستكشاف": البلاغة التأويلية، والبلاغة باعتبارها علما لتحليل الخطاب.

فبلاغة التأويل، عنده، قارة كبيرة مغمورة لم تحظَ بالعناية التي حظيت بها قارة "التخييل" وقارة "الاستدلال".أشار البلاغيون إشارات موجزة إلى الشق التأويلي في صناعة الخطاب البليغ وكيفيات فهمه، لكن لم يتم النظر إلى مُنْجز المفسرين بوصفه خطابا ينضوي ضمن بلاغة القول، أو الخطاب البليغ"[1].

وعلم البلاغة أداة لوصف الخطاب وتحليله من أجل بيان أساليب القول التخييلية أو الحجاجية التي يقوم عليها بناء المعنى. وهذا ما يستدعي التفاعل مع هذا العلم الجامع من هذا

[1] - البلاغة الكبرى، محمد بازي،1/ 146.

المنظور النسقي الشامل، وعدم حصر البلاغة العربية في مجال ضيق، والأمر نفسه في كتب البلاغيين، فمن سماتها تحليل الخطابات والأقوال بهدف بيان الأسلوب، أو نقده أو الإشادة به، أو صياغة مصطلح له،أو غير ذلك"[1] .

ويخلص الباحث إلى أن "علم البلاغة ليس فقط علما للتخييل أو المدافعة أو الحجاج، بل علما للتأويل والتحليل والتجميل (التحسين) كذلك"[2].

أهمية أساليب البلاغة في التأويل:

تمكن البلاغة القارئ والمؤول من جهاز تأويلي مهم في الفهم والتفسير، فهي تمده بآليات بناء المعاني،انطلاقا من المستويات النصية والسياقية. فالخطاب، يتضمن أساليب بلاغية، تدل على معان وأغراض وتؤدي وظائف وأدوار، وللكشف عنها يعتمد القارئ على المداخل البلاغية التي تسعفه في تحديد نوع الأسلوب، ضمن مباحث علم البيان والمعاني والبديع. فالبلاغة اهتمت بدلالات الأسلوب وأغراضه التي تتعدد بحسب طبيعة النص وسياقه ومقصدية المتكلم، ثم بحسب قدرات القارئ ومحلل الخطاب. الذي يحتاج -من ضمن مداخل القراءة - استحضار السياق والمقام التخاطبي ومقصدية المتكلم،وهو ما يسميه البلاغيون القرائن الحالية والسياقية وما سيصطلح عليه حديثا السياق التداولي.

فالبنيات النصية،في الخطاب الشعري مثلا، ليست كلها حقيقة، بل تتراوح بين الحقيقة والمجاز. والأساليب البلاغية في الخطاب لا ترد دائما وفق معانيها المعهودة المعروفة، بل قد تفيد معاني مقامية تستخلص من سياق الخطاب وظروف إنجازه، وباستحضار علاقة المرسل/المتكلم بالمخاطب، ودواعي القول[3].

إن التراكيب البلاغية تفرض تملُّك القارئ والمؤول لآليات التأويل البلاغي، في كل مستوى من مستويات التحليل البلاغي؛ تستدعي ذلك في المستوى البياني عند الوقوف عند الصور الفنية القائمة على المشابهة أو غير المشابهة، وتستدعيه في تعرف أساليب علم المعاني ودلالاتها وأغراضها، وفي الكشف عن وظائفها التعبيرية والحجاجية والتأثيرية، وتستدعيه أيضا في

[1] - البلاغة الكبرى، محمد بازي 149/1.

[2] - البلاغة الكبرى محمد بازي، ص: 155/1.

3 - وقد بينت هذا في كتاب "اللغة والدلالة في النص الشارح"، ط1 (2021).

الجانب البديعي لتلك البنيات، وما تدل عليه الأساليب والتراكيب من دلالات وأبعاد، وما تؤديه من وظائف وأدوار تتجاوز المستوى التحسيني البديعي إلى مستويات دلالية وتعبيرية أعمق.

فالمدخل البلاغي، كما قال الباحث محمد بازي، يزيل أستار المعنى وحُجُبَه، ثم يتم إغناؤه بالنصوص أو الأقوال أو الوقائع؛ ولذلك فإن البنيات البلاغية مستوى نصي بنائي تقف عنده القراءات التفسيريةالبانية للمعنى، إنها مناسبة لبزوغ المعنى، وللقول المدعَّم بإجهزة الفهم واستكشاف الدلالات فيها"[1].

وهكذا، فالمعرفة المعمقة بعلوم البلاغة وأساليبها البيانية والمعنوية والبديعية، تعد من أبرز مستويات ومداخل تحليل الخطاب وتفسيره وتأويله. ولذلك فالمتأمل في أعمال البلاغيين الكبار، يلحظ أنهم قد نبهوا إلى دور هذه العلوم في بناء الخطاب، وفي فهمه تفسيره وتأويله. وكلما اتجهنا صوب الدراسات النصية والخطابية، ألفينا جهودا رائدة في استثمار البلاغة في عمليات الشرح والتفسير، يتبدى ذلك جليا في أعمال شراح الشعر العربي، وفي كتب النقد العربي القديم، ويتجلى أكثر في أعمال المفسرين وشراح الحديث النبوي الشريف، خاصة أولئك الذين، اعتمدوا المدخل اللغوي والبلاغي في الشرح والتفسير، ومن أشهرهم: الزمخشري وابن عطية وأبي حيان قديما، والشنقيطي والطاهر بن عاشور حديثا.

[1] - قال ذلك في سياق بيانه أهمية المدخل البلاغي عند المفسر للخطاب القرآني. ينظر كتابه صناعة الخطاب، ص 206.

نماذج تطبيقية

- نصوص التفسير
- شروح الشعر

نماذج تطبيقية من نصوص التفسير

غني عن البيان أن المجال التطبيقي للنظر البلاغي هي كتب تفسير القرآن الكريم وشروح الشعر العربي، لأنها تشتغل على الخطاب بوصفه خطابا بليغا وتحاول قراءته وتفسيره وتأويله، اعتمادا على آليات القراءة اللغوية والبلاغية.

وقد أجاد في ذلك عديد من المفسرين قديما وحديثا، منهم الزمخشري في تفسيره الكشاف، وشهد له بذلك الدارسون والباحثون في تاريخ البلاغة العربية. يقول شوقي ضيف: " وعلى أضواء مباحث عبد القاهر وقواعده التي أصلها في علمي البيان والمعاني مضى الزمخشري يفسر القرآن الكريم في كتابه " الكشاف" مطبقا تطبيقا دقيقا على آياته كل ما استنبطه عبد القاهر من قواعد وأصول في العلمين جميعا، إذ تَمَثَّلَ كتابيه " الدلائل" و"الأسرار" تمثلا رائعا، نافذا إلى استكمال كثير من شعب المعاني الإضافية، حتى ليمكن أن يقال إن علم المعاني تكامل عنده بكل تفاصيله ودقائقه"[1].

وفي العصر الحديث نماذج أخرى من التفاسير، استثمرت المداخل والأدوات النحوية واللغوية والبلاغية في تفسير الخطاب القرآني، و في مقدمتها تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – رحمه الله-؛ إذ نجده يحلل الآية القرآنية تحليلا دقيقا موظفا في ذلك ما تمده به علوم اللغة والبلاغة من مقومات في القراءة والفهم والتفسير، مع ربط التحليل اللغوي بالأبعاد البلاغية للخطاب، بشكل متفرد يكشف عن القدرات البلاغية للرجل في التحليل والتفسير والتأويل وفي بناء الخطاب البليغ؛ خطاب المفسر البليغ. وليتضح هذا الأمر، فلنقف عند نماذج من هذا الخطاب البليغ في كتب التفسير، انطلاقا من تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

[1] - البلاغة تطور وتاريخ، ص: 373

النموذج الأول:

قال تعالى :**(هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب)** غافر 13.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله مفسرا: « هذا استئناف ابتدائي، إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينة ذلك قوله: (ولو كره الكافرون) غافر 14

ومناسبة الانتقال هي وصفا (العلي الكبير) غافر 12 لأن جملة (يريكم آياته) تناسب وصف (الكبير) بمعنى الغني المطلق. والآيات دلائل وجوده ووحدانيته . وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله (و الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) الرعد 12 .....

وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عُقب الأمران بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب).

وصيغة المضارع في (يريكم) و (ينزل) تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد ، وإنما يكون ذلك في الدنيا ، فتعيَّنَ أن الخطاب مستأنف مراد به المؤمنون وليس من بقية خطاب المشركين في جهنم، ويزيد ذلك تأييدا قوله: (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) غافر 14

وعُدِّيَ فعلا (يرى) و (ينزل) إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فأمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات فجُعِلَ غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنهم لم ينتفعوا بها كما قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) العنكبوت 43 فجعل غير العالمين كمن لا يعقل ولا يفقه.

ولذلك ذُيلتْ إراءة الآيات وإنزال الرزق لهم بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب) أي من آمن ونبذ الشرك لأن الشرك يصد أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة.

والإنابة : التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإنابة المحصلة للمطلوب هي الإنابة المتجددة المتكررة، وإذ قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان قوله : (وما يتذكر إلا من ينيب) دالا بدلالة الاقتضاء على أنهم رأوا الآيات واطمأنوا بها وأنهم عرفوا قدر النعمة وشكروها فكان بين الإنابة وبين التذكر تلازم عادي، ولذلك فجملة (وما يذكر إلا من ينيب) تذييل.

وتقديم (لكم) على مفعول (ينزل) وهو (رزقا) لكمال الامتنان بأن جُعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لِ(رزقا) فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن

الرزق صالح للمخاطبين . وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة.

وجُعِل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين وهم المؤمنون إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم بالتبع لهم لأنهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى» .

إن المتأمل في التحليل والتفسير الذي قدمه الطاهر بن عاشور للآية من سورة غافر، ليدرك قيمة تكامل وتضافر مستويات الدرس اللغوي والبلاغي في تحليل الخطاب القرآني وتفسيره.

فالمفسر لم يكتف بالتهذيب المعجمي لمفردات الآية، لأن المفردات واضحة، لا تحتاج إلى تهذيب، وإنما شغل بالتحليل التركيبي والأسلوبي، وبربط الصيغ الصرفية والجوانب التركيبية بدلالة الخطاب، ومقتضياته، واستعان على ذلك بالمستوى التداولي المقامي. وقد أجاد في توظيف هذا المستوى، إذ على أساسه بين سياق الخطاب وعلاقته بما سبق (الآية 12)، وعلى أساسه وضح مقصدية الخطاب، والغرض من التقديم والتأخير، وجعْلِ الرزق متعلقا بالمؤمنين، وصيغة الفعل المضارع. وهذا يبين بجلاء قيمة المستوى التداولي في تحليل الخطاب وتفسيره.

وقدأسهم توظيفه للمستوى البلاغي، بشكل واضح، في تحليل الآية وتفسيرها وبيان أسرار مكوناتها الصرفية والتركيبية من الناحية البلاغية؛ إذ بين بجدارة الأسرار البلاغية للظواهر التركيبية، لما تحدث عن الغرض من تقديم الجار والمجرور (لكم)، وأبدع في تفسير تعلُّق بعض المكونات ببعض في الآية، كتعلق الضمير بالمخاطب (المؤمنون)،ولماذا جاء الرزق مرتبطا بالمخاطبين /المؤمنين وليس بغيرهم.

ويتضح المستوى البلاغي عنده في هذا النص أيضا في بيان وظيفة جملة: (**وما يتذكر إلا من ينيب**)، لما أشار المفسر إلى أنها تذييل. والتذييل أسلوب بلاغي جاء الحديث عنه عند البلاغيين ضمن مبحث الاطناب، وعدوه " اطناب تذييل"، وبينوا أغراضه الدلالية والتداولية.

ولم يفت الطاهر بن عاشور الوقوف عند التناسب البياني بين الآية، موضوع التفسير، والآيات السابقة، وخاصة الآية من سورة غافر12.

والمثير للإعجاب في هذا التحليل أيضا أن الغاية عند المفسر هي الدلالة والمقصدية، لذلك تجده حريصا على ربط كل مستوى بدلالة الخطاب ومقصديته. فالمفسر/ المحلل للخطاب القرآني يستحضر خصائص الخطاب الذي يشتغل عليه، ويستحضر مقصدياته وغاياته.

لذلك فهو بعدما حسم في تحديد المرسِل/المخاطِب (الله عز وجل)، صار كلِفا بالوقوف عند هدايات الآيات، وما ترمي إليه من رسائل دعوية/ تبليغية للمخاطَب/الإنسان، وبتحديد نوعية المخاطَب، وعلاقة الخطاب بالمخاطب،ولماذا خوطب بهذا الخطاب .

وفيما يلي توضيح لمستويات تحليل الخطاب القرآني عند الطاهر بن عاشور، انطلاقا من هذه الآية.

المستوى	نص المفسر/ محلل للخطاب
المستوى الصرفي	- الصيغة الصرفية: وصيغة المضارع في (يريكم) و (ينزل) تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد، وإنما يكون ذلك في الدنيا...
المستوى التركيبي	- أشار المفسر إلى العلاقة التركيبية بين الآية وما سبق في سياق تتابع الجمل فقال: هذا استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينة ذلك قوله: (ولو كره الكافرون) . - الخطاب الاستئنافي: وصيغة المضارع في (يريكم) و (ينزل) تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد ، وإنما يكون ذلك في الدنيا ، فتعيَّنَ أن الخطاب مستأنف مراد به المؤمنون وليس من بقية خطاب المشركين في جهنم، ويزيد ذلك تأييدا قوله:(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)غافر14. - التعدية إلى الضمير: وعُدِّيَ فعلا (يرى) و (ينزل) إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فأمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات ...

المستوى الدلالي والمعجمي	- توضيح دلالة العبارات المجازية: وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عُقب الأمران بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب). - دلالة الصيغ: وصيغة المضارع في (يريكم) و (ينزل) تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد ، وإنما يكون ذلك في الدنيا... - والإنابة: التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإنابة المحصلة للمطلوب هي الإنابة المتجددة المتكررة، وإذ قد كان المخاطبون منيبين إلى الله، كان قوله: (وما يتذكر إلا من ينيب) دالا بدلالة الاقتضاء على أنهم رأوا الآيات واطمأنوا بها وأنهم عرفوا قدر النعمة وشكروها فكان بين الإنابة وبين التذكر تلازم عادي، ولذلك فجملة (وما يذكر إلا من ينيب) تذييل.
المستوى البلاغي	- مقام الآية ضمن الخطاب الذي وردت فيه؛ (هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب) غافر 13. « هذا استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينة ذلك قوله: (ولو كره الكافرون) غافر 14 - **مناسبة الانتقال** هي وصفا (العلي الكبير) غافر 12 لأن جملة (يريكم آياته) تناسب وصف (الكبير) بمعنى الغني المطلق. والآيات دلائل وجوده ووحدانيته . وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله (و الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) الرعد 12 ... - **المقام المقتضي للتقديم**: وتقديم (لكم) على مفعول (ينزل) وهو(رزقا) لكمال الامتنان بأن جُعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لِ(رزقا) فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين. وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة.

- **التنبيه على أسلوب الالتفات** في الآية وعلى القرينة السياقية الدالة . **الاستئناف**: هذا استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينة ذلك قوله: (ولو كره الكافرون). **االمجاز المرسل:** وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عُقب الأمران بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب). - **بلاغة التعدية** إلى ضمير المخاطب: وعُدِّيَ فعلا (يرى) و (ينزل) إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فأمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات .. - **أسلوب التذييل**: ولذلك ذُيلتْ إراءة الآيات وإنزال الرزق لهم بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب) أي من آمن ونبذ الشرك لأن الشرك يصد أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة. - **تقديم ما حقه التأخير**: وتقديم (لكم) على مفعول (ينزل) وهو (رزقا) لكمال الامتنان بأن جُعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لِ(رزقا) فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين . وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة. - **بلاغة جعل الرزق للمؤمنين**: وجُعِل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين وهم المؤمنون إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم بالتبع لهم لأنهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى...». - **التناسب البياني**: "ومناسبة الانتقال هي وصفا (العلي الكبير) غافر 12 لأن جملة (يريكم آياته) تناسب وصف (الكبير) بمعنى الغني المطلق.	

نماذج تطبيقية من شروح الشعر

أهمية المستوى البلاغي في تفسير النص الشعري

يتشكل النص الشعري من أساليب بلاغية تسهم في بنائه وإبداعه، لذلك فالوقوف عندها يساعد القارئ على تلقيه. ولهذا يُعد المدخل البلاغي من أهم مرتكزات قراءة النص الشعري وتفسيره. والأساليب البلاغية متنوعة تنوع علوم البلاغة؛ فثمة الأساليب البيانية التي تعد أسسا في بناء الخطاب الشعري القائم على التخييل والتصوير، وهناك أساليب علم المعاني التحكمة في بنيته التركيبية والأسلوبية، وثمة الأساليب البديعية المسهمة في بنيته الإيقاعية والنصية والدلالية والتعبيرية.

فالشعر العربي القديم يقوم على التصوير والتخييل؛ لذلك جاء غنيا بالأساليب البيانية، وفهمه وتفسيره وتأويله يستدعي تحليل تلك الأساليب وتحديد أغراضها ووظائفها، ويتشكل من أساليب متعددة من علم المعاني تفيد أغراضا ومقاصد، لا بد من الوقوف عندها لقراءته وتفسيره. ولا ينبغي إغفال وظيفة الأساليب البديعية في هذا النص الشعري، وأثرها في بناء النص ودلالاته، وفي زيادة تماسكه وجماليته الإيقاعية. وهذا ما سأحاول بيانه باختصار يناسب المقام.

حينما يعود الباحث إلى شروح الشعر العربي القديم يسجل غناها بالقراءة البلاغية للنص أثناء توضيحه وتهذيبه.فمن شراح الشعر من خص البلاغة بوقفة توضيحية، كما هو الحال عند الزوزني في شرح المعلقات السبع، إذ نجده يقف في شرح النص عند اللغة ثم البلاغة ثم يخلص للمعنى[1].

في حين نجد شراحا آخرين يأتي عندهم التفسير البلاغي مساندا للتفسير اللغوي والنحوي ومسهما في تحديد المعنى المراد، كما هو الحال عند الخطيب التبريزي في شرح القصائد العشر.

يقول في شرحه قول زهير:

كأن السباعَ فيه غرقى عشيةً *** بأرجائه القُصوى أنابيش عُنْصُلِ

1 - شرح المعلقات السبع للزوزني، الصفحات: 29 – 42 – 47 – 50 – 51 – 57 – 58 – 61 – 65.

"وغرق في موضع نصب على الحال. يقول: حين أصبح الناس ورأوها فكأنها تلك الأنابيش من العنصل والأنابيش جماعات من العنصل يجمعها الصبيان ويقال الأنابيش العروق. وإنما سميت أنابيش لأنها تنبش أي تخرج من تحت الأرض، ويقال نبشه بالنبل إذا غرزه فيه... والعُنْصُلُ والعُنْصَل بصل بري، يعمل منه خل عنصلان، وهو شديد الحموضة، **شبه السبع الغرقى بما نبش من العنصل** لأن السيل غرقها فهي في نواحيه تبدو منها أطرافها فشبهها بذلك، وقوله القصوى كان يجب أن يقول القصا لأنه نعت الأرجاء، إلا أنه حمله على لفظ الجمع"[1].

فالنص غني من الناحية اللغوية والبلاغية، إذ قام التبريزي بتوضيح مفرداته صرفيا ونحويا، ثم توقف عند أسلوب التشبيه الوارد في البيت. وقد أشار الزوزني أيضا إلى هذا التشبيه قائلا: "شبه تلطخها بالطين والماء الكدر بأصول البصل البري، لأنها متلطخة بالطين والتراب"[2].

ومن الشروح الشعرية التي استثمرت المدخل البلاغي في تفسير النص بشكل لافت للنظر، شرح أبي علي المرزوقي.

يقول المرزوقي مفسرا قول الربيع بن زياد:

عطفْنا وراءك أفراسَنا *** وقد أسلَمَ الشفتان الفما

"يقول: تعطفنا عليك في ذلك الوقت، ودافعنا دونك، وقد كشَرَتِ الأسنان وأسلمتها الشفاه، تقلصا عنها ويبوسة حادثة فيها. وذكر الفم كناية عن الأسنان، كما يقال: فض الله فاه. ويقال في هذا المعنى: ذَبَّت[3] الشفاه. ومثله قول عنترة:

إذ تقلِص الشفتان عن وضَحِ الفم

والاستعارة بإسلام الشفتين في نهاية الحسن "[4].

وضح المرزوقي الاستعارة الواردة في هذا البيت، فبين أن "الفم" كناية عن الأسنان، واستحسن الاستعارة في قول الشاعر "أسلم الشفتان الفما"، بل عدها "في نهاية الحسن". ولكنه لم يعلل لماذا كانت كذلك، إلا أنه يبدو من توضيحه لها سر ذلك الإعجاب، فالشاعر صور تصويرا حسيا حالة الفوارس في المعركة، وشدة قتالهم حتى إن شفاههم تقلصت عن الأسنان لما أصابها من يبوسة طارئة بسبب هذا الاقتتال، والمرزوقي مولع بالتصوير الحسي.

1- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص: 54- 55.

2- شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص: 51.

3 - ذَبَّت: ذبُلتْ وجفتْ.

4 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي487/1، وينظر الأعلم 344/1.

ونظير ذلك عنده أيضا تفسيره قول تأبط شرا، يقص كيف نجا من الموت وقد أحيط به:

فخالطَ سهلَ الأرض لم يكْدَحِ الصفا *** به كدْحَةً والموتُ خزْيان ينظرُ

"يقول: أسهلت ولم يؤثر الصفا في صدري أثرا، لا خدشا ولا خمشا، والموت كان طمع فيَّ، فلما رآني وقد تخلصت بقي مستحييا ينظر ويتحير. والواو من قوله (والموت) واو الحال، وهذا من فصيح الكلام ومن الاستعارات المليحة. وقد حُمِل قول الله عز وجل: ﴿وأنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرونَ﴾ على أن يكون المعنى: تتحيرون. وقد سلك أبو تمام مسلك هذه الاستعارة فقال:

* إن تنفلتْ وأنوفُ الموتِ راغِمَةٌ* "[1]

ولا يخفى ما في التوضيح الذي قدمه المرزوقي للاستعارة في هذا البيت من أثر في تفسير النص وتوضيح معناه.

وبالإضافة إلى اهتمام شراح الشعر العربي القديم بتوضيح الأساليب البيانية، فإننا نجدهم يهتمون أكثر ببيان أغراض أساليب علم المعاني ودلالاتها المقامية، لما لذلك من أثر في توضيح مراد الشاعر ومقصدية النص.

من ذلك ما ورد في عند المرزوقي في سياق شرحه قول الحماسي:

إن يحسدوني فإني غيرُ لائِمهم *** قَبْلي منَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدوا

فـــدام لي ولهم ما بـــــي وما بهمُ *** ومـــــات أكـــثـرُنا غيظا بما يَجِد

"هذا الكلام دعاء لنفسه وعليهم، على طريق التسلي وقلة الاحتفال ولأن الحاسد يرفع الخامل من الفضل وينوه به"[2].

فالعبارتان " دام لي ولهم..." و" ومات أكثرنا ..."، رغم أن ظاهر اللفظ فيهما الخبر، فإنهما أفادتا الدعاء؛ فالشاعر لا يخبر بل يدعو لنفسه بدوام النعم ويدعو على حساده بالموت غيظا وبأن يبقوا على حالهم من حسد أهل النعم.

ومن هذا النوع عند الأعلم قول أم الصريخ الكندية:

هوتْ أمهم ماذا بهمْ يوم صُرِّعوا *** بجَيْشانَ من أسبابِ مَجْدٍ تصرَّما

قال الأعلم: "قولها: "هوت أمهم" دعاء في معنى التعجب"[1] . وقد أخرج المرزوقي هذا الكلام على الاستفظاع والتعجب[2]. وقال التبريزي: "يقال هذا في الاستعظام والتعجب.أي ثكلتهم أمهم ،ويقال

1 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي82/1.

2 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي406/1.

" هوت أمهم " : أي هلكت ... وقال أبو العلاء : " هوت أمهم " من الأدعية التي تستعملها العرب على العكس، وذلك أن ظاهرها ذم ودعاء على المذكور والمراد بها المدح، ويدل على غرضهم في ذلك أنهم لا يجيئون بها في مواطن الذم"[3].

يتضح من هذه النصوص أن الخبر، "هوت أمهم"، أفاد الدعاء والتعجب والاستفظاع. وتميز شرح أبي العلاء لهذا الأسلوب بالإشارة إلى أن العرب تستعمل هذا الدعاء "على العكس"، لأن ظاهر العبارة الذم، ولكن المراد المدح. فالعبارة "هوت أمهم" جملة خبرية فعلها ماض، لكن مراد أم الصريخ ليس الإخبار بأن أمهم هوت وإنما غرضها الدعاء على مخاطبيها بما يفيد مدحهم والتعجب من شأنهم وكذا استفظاع صرعهم، وذلك رغم أن ظاهر هذا الدعاء الذم لأنه،كما قال أبو العلاء، من الأدعية التي تستعملها العرب معكوسة. فالدعاء،وهو معنى مقامي أول، ولد بمعونة القرائن السياقية والحالية، التعجب الذي أفاد - بدوره - المدح والاستفظاع: مدحهم واستفظاع صرعهم. وقد تضافرت في هذا البيت دلالات الخبر والاستفهام الذي يعقبه مباشرة لأداء هذه المعاني اللطيفة.

ولما كانت الأساليب الإنشائية غالبا ما تخرج عن دلالاتها الحرفية إلى دلالات مقامية أخرى تستخلص من سياق ورودها، فإن شراح الشعر العربي قد اهتموا بتوضيح ذلك لأهميته في تفسير النصوص، من ذلك قول المرزوقي في سياق توضيح قول الشاعر أسود بن زمعة:

أتبكِي أنْ يَضِلَّ لها بعيرٌ *** ويمنَعُها منَ النوم السُّهودُ

"وقوله " أتبكي أن يضل" لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى معنى الإنكار"[4].

"وكان الأسود قد فجع بابنه زمعة، إذ كان من قتلى ذلك اليوم[بدر]، فاقتدى بالناس في ترك البكاء عليه"[5]، فلما سمع المرأة تبكي على بعير ضل عنها، ظن أن البكاء صار مباحا في قريش على قتلاها، لكنه خاب ظنه بعد علمه سبب بكاء المرأة، فقال هذا الشعر مُنكِرا.

والنماذج البلاغية كثيرة في شروح الشعر، لكن المقام لا يتسع لبسطها، وحسبي أني بينت أهمية المستوى البلاغي في تفسير النصوص، وأنه آلية مهمة من آليات القراءة والتفسير والتأويل.

---

1 - شرح حماسة أبي تمام للأعلم1/571.

2 -شرح ديوان الحماسة للمرزوقي1/934.

3 - شرح ديوان الحماسة للتبريزي 1/593.

4 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي1/873 – 874،

5 - نفسه1/ 873.

ومما يغني القراءة البلاغية للشعر عند الشراح، الوقوف عند المقام التخاطبي، وأعني به كل القرائن الحالية والمقامية واللفظية التي لها علاقة بالنصموضوع الشرح، سواء تعلق الأمر بظروف الحماسيات ومناسباتها أو بعلاقة الشاعر بالمتلقي أو بمقصدية النص أو بعلاقة البيت بالأبيات الأخرى من الحماسيات. وكلها أمور نجدها في الشروح الشعرية القديمة، بل على أساسها يرجح الشارح غالبا معنى معينا على آخر أو رواية على أخرى، ويرجح تحليلا صرفيا أو نحويا على آخر. ويكثر توظيفها أيضا في تحديد دلالة الأساليب الخبرية والإنشائية عندما تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام.

ولا يخفى ما لمناسبة النص وظروف إنشاده من أهمية بالغة في فهم النص وتحديد معناه، خاصة إذا كان الفهم يتوقف على ذلك. وقد اهتمت الشروح الشعرية بذلك.

فالتبريزي في شرح ديوان الحماسة - على سبيل المثال - تطرق إلى أخبار كثير من الحماسيات ومناسباتها، وتستغرق هذه الأخبار في بعض الحماسيات الأولى حيزاً مهما من الشرح قد يتجاوز أحيانا أربع صفحات كما هو الحال في الحماسية الثالثة عنده. وقد استفادها من الشراح قبله وخاصة أبي رياش.

ويرد الخبر عنده غالبا، بعد فراغه من شرح الحماسية، وقد يجمع خبر عدة حماسيات إذا كانت لشاعر واحد كحماسيات جعفر بن علبة الحارثي[1].

ثم إن شراح الشعر يشرحون مفردات الحماسيات في سياق استعمالها، ولا يكتفون بمعناها الحرفي المعهود بل يركزون على إيضاح معنى المفردة في البيت وفي علاقته بأبيات النص الأخرى وبما يقصد الشاعر قوله. ثم إن الشارح قد يرجح وجها إعرابيا على آخر على أساس بلاغي تداولي، وقد يرجح رواية على أخرى ومعنى على آخر على الأساس نفسه.

فالمرزوقي – على سبيل المثال - في شرحه قول بشامة النهشلي:

إنَّا بني نهشل لا ندَّعي لأبٍ *** عنه ولا هو بالأبناء يَشْرِينَا

رجح وجها إعرابيا في (بني) وهو النصب على الاختصاص، لأنه بهذا يفيد الافتخار بقومه... وإلى ذلك يرمي الشاعر، بينما لو رُوِي بالرفع فسيصير القصد "هو التعريف بنفسه عند مخاطبته"

1 - شرح ديوان الحماسة للتبريزي تنظر عنده الحماسيات 4-5-6.

وهذا لا يخلو من الدلالة على أنه خامل الذكر فيهم[1]. وهذا ما ذهب إليه الأعلم في شرحه كذلك إذ عدَّ النصب على الاختصاص "أبلغ وأمدح من الرفع على الخبر"[2].

وليؤكد المرزوقي ما قاله ربط هذا البيت بسياق الحماسية ومقصدية الشاعر قائلا: "وهذا الكلام ظاهره استعطاف لها (أي سلمى) والقصد به التوصل إلى بيان شرفه واستحقاقه ما يستحقه الأفاضل الأشراف، والأماثل الكرام، ولا سَقْي ثَمَّ ولا تحية ولا دعاء ولا مغاثة. ألا ترَى كيف اشتغل بمقصوده من الافتخار فيما يتلو هذا البيت"[3].

وهذا الكلام من المرزوقي في هذا النص يدل على عناية بالغة بالسياق والمقام، فلولا استحضاره القرائن السياقية والمقامية، ما توصل إلى هذا المعنى غير المصرح به في البيت وإنما ظاهر البيت استعطاف لسلمى، لكن الأبيات الموالية تظهر أن مقصدية الشاعر الافتخار.

وهذا ما نجده في مواضع كثيرة من شرحه منها أيضا حماسية عمرو بن معْدِ يَكْرب التي رجح في البيت الأول منها أن يكون جواب (لمَّا) محذوفا، لأن الحذف "في مثل هذه المواضع أبلغ وأدل على المراد، وعضد ذلك بسياق البيت في الحماسية قائلا: "وذلك مراد الشاعر (أي الافتخار بشجاعته) بدليل أنه قال في البيت الثالث في سياق الافتخار:

علامَ تقول الرمح يُثقل سَاعِدِي *** إذا أنا لمْ أطعَن إذا الخيل كَرَّتِ "[4]

وعلى أساس المقام والسياق قد يرفض الشارح رواية من الروايات الواردة في البيت؛ فقد رفض المرزوقي رواية (زيد) في حماسية عمرو بن معْد يَكْرب على أساس **"سياق اللفظ ونظام المعنى"** ، كما قال: فالشاعر "تحدث بصيغة العموم وبما يفيد الكثرة (كم أخ لي صالح) فكيف يعود في البيت الذي يليه ليَخُصَّ زيداً بما ذُكِر؟" مع أن قصد الشاعر التعبير عن عدم جزعه وهلعه عن إخوان له صلحاء كُثُر فقدوا في المعركة، وعن صبره وثباته كما أضاف في البيت الموالي[5]. بل إن المرزوقي أحيانا ليشعرك أنه يشارك الشاعر خوالجه ومشاعره ويخبرك بمقاصده

---

1 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي **102/1** والبيت هو:

إنَّا بني نهشل لا ندَّعي لأبٍ *** عنه ولا هو بالأبناء يَشْرِينَا

2 - شرح حماسة أبي تمام للأعلم **368/1**.

3 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1/ 101 – 102.

4 - نفسه **159/1** والبيت هو:

ولما رأيت الخيلَ زوراً كأنها **** جداولُ زرع خُلِّيَت فاسْبطَرَّتِ

5 - المصدر السابق 179/1-180 والبيت هو:

ما إن جزعت ولا هَلِعْ **** ت و لا يَرُدُّ بُكاي زنداً

وهو يرجح رواية على أخرى أو معنى على آخر كما فعل في هذه الحماسية، فقد قال بعد ترجيح رواية (زند) وبيان معانيها: "وإنما عقَّبَ نفي الجزع بهذا الكلام تنبيها على أن صبره عن تأدُّب وتبصُّر ومعرفة بالعواقب وحسن تأمل"[1].

ويتضح هذا أكثر في تعليقه على قول المثلم بن رياح:

سأكفيك جنبي وضْعَهُ ووسَادَهُ *** وأغضب إنْ لم تُعطِ بالحق أشجَعَا

"ويغلب في نفسي أن الشاعر: قال: وأغضب إن لم تعطيا الحق أشجعا، لأنه بنى الرسالة على أن تكون متوجهة نحو اثنين: سِنَانٍ وشجْنَة، ومخاطبَتُه من بعدُ أحدَهمَا في قوله (سأكفيك)، على عادتهم في الافتنان والتصرف، لا يمنع من الرجوع إلى ما بنى كلامه عليه من ذكر الاثنين، وهذا ظاهر لمن تأمله"[2].

ويتجلى حضور المقام عند شراح الشعر العربي القديم أكثر في تأويل الأساليب الخبرية والإنشائية عندما تفيد معاني مقامية أخرى غير المعنى الذي وضعت له.

خلاصة

تؤكد النماذج السابقةأهمية المستوى البلاغي في تلقي الشعر العربي في الشروح الأدبية؛ فشارح الشعر في تراثنا النقدي القديم يستدعي كل المداخل التي تسهم في تفسير النص الشعري، سواء كان المدخل لسانيا أو بلاغيا أو مدخلا آخر يرتبط بظروف النص الشعري ومناسبة قوله.

وتكشف النصوص السابقة المستشهد بها بجلاء حرص الشارح التراثي على استثمار عدة مستويات نسقية وسياقية في استخلاص المعنى وفي التلقي والتأويل.

وتبرز من جهة أخرى سعة وصبر هذا الشارح، الذي لا يستعجل في تحديد معنى النص، بل يتتبع الأوجه اللسانية الممكنة، والاحتمالات البلاغية الواردة، قبل أن يذكر معنى النص أو معانيه المحتملة.

وقد بدا واضحا أثر المستوى البلاغي في القراءة والتفسير، وكيف يستثمره الشارح لترجيح معنى من المعاني المحتملة للنص وعلى أساس يرجح رواية على أخرى، ويستثمره في محاججة من ذهب إلى قراءة أخرى[3].

---

1 - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي **1/180**.

2 - نفسه **1/383**.

[3] - وقد بينت هذا الأمر بشكل مستفيض في مؤلف " اللغة والدلالة في النص الشارح".

البلاغة والحجاج

مفهوم الحجاج

يعد مفهوم الحجاج مفهوما عاما يصعب حصره وتحديده، إذ نجده في حقول معرفية مختلفة، نجده في الفلسفة والمنطق، وفي البلاغة القديمة، وفي الدراسات القانونية، كما نجده في المقاربات البلاغية واللسانية المعاصرة. لكننا سنركز في هذا المبحث على الحجاج البلاغي واللغوي.

والحجاج خطاب غرضه التأثير في المواقف والأفكار والقناعات. وبالتالي فهو نوع من أنواع التواصل والتفاعل، لكنه تواصل لا يقف عند حدود الإخبار بالمعلومة، أو التعبير عن الموقف، أو الشعور أو العاطفة، بل يراهن على الإقناع والتأثير في المستقبِل/المرَسَل إليه.

ويعد الحجاج في الدراسات الحديثة جزءا من تحليل الخطاب، فقد ورد في معجم تحليل الخطاب أنه يمكن أن " نميز بين الحجاج الذي يحدد بأنه التعبير عن وجهة نظر في ملفوظات عديدة أو ملفوظ واحد، بل حتى في كلمة واحدة، بل حتى في كلمة واحدة، وبين الحجاج باعتباره طريقة خصوصية في تنظيم مجموعة ملفوظات وليس هذان التحديدان متنافرين"[1].

فالحجاج تواصل لأنه عبارة عن تعبير عن وجهة نظر معينة لمُرسِل إلى مرسَل إليه في مقام تواصلي معين، يتم بالألفاظ، وليس ضروريا أن يكون الحِجاج خطابا طويلا، فقد يتم الحجاج بلفظة واحدة، وقد يتم بعدة ملفوظات، كما يعتبر الحجاج أسلوبا وخاصية من خواص اللغة، يتم بتنظيم محدد ذي مميزات يتصف بها عبر الخطاب الذي يتضمن مجموعة من الملفوظات والتراكيب والأساليب والصور تنهض بذلك. فالحجاج وسيلة بيد المُرسِل / المُخاطِب / المُحاجج تهدف إلى تغيير بعض قناعات المرسَل إليه\المخاطَب، وكل وسيلة تضطلع بهذا الدور فهي حجاج، "كما تنتج عن هذا الحجاج ملفوظات تكون متناسقة ولها علائق وخيوط ناظمة"[2].

وللحجاج دور في زيادة تناسق الخطاب وانتظامه، كما يعتمد المخاطِب /المحاجُ ترتيبا مُمَنهجا لحججه حتى تؤدي دورا كاملا، وحتى يؤثر المخاطب في السامعين ويكسب تأييدا حول كلامه وقناعاته.

والحجاج خطاب مألوف في حياتنا وأنشطتنا اليومية،إذ "نصادفه في الحوارات بين الأشخاص،وعلى صفحات الجرائد،وفي البرامج والمواد الإذاعية والتلفزية، ونتلمسه في النصوص

[1] - معجم تحليل الخطاب، ص 69

[2] - تحليل الخطاب بين البلاغة والسميائيات، سعد لخداري، ص: 206.

والعروض الإشهارية، أو في المجلات واليوميات المتخصصة. بل إننا، في لحظات مختلفة وظروف متباينة، نلجأ إلى الحجاج، لندافع عن قضية أو نبرر سلوكا، لندين أو نمدح، لنقف مع أو ضد اختيار أو قرار. ونكون أيضا، هدفا لحجاج الآخرين، في نفس السياقات وحول نفس المواقف"[1].

ويختلف الحجاج، حسب محمد طاروس[2]، باختلاف العلاقات التداولية، وباختلاف الوظائف والمجالات. فقد يكون ذاتيا حميميا، تلجأ فيه الذات إلى حوار داخلي لإقناع نفسها؛ وقد يكون ثنائيا يتم بين فردين أو فريقين متقابلين، أو بين خطيب وجمهور؛ وقد يحتاج الأمر إلى عدد من الأفراد. "ففي مجال الدعاية والإشهار، مثلا، يكون التصور والبث من عمل المجموعات، ويستهدف جمهورا عريضا؛ إذ يكلف رؤساء أحزاب أو مقاولات فرقا متخصصة، باكتشاف وتنظيم الحجج الكفيلة بدفع أكبر عدد ممكن، إلى الانخراط في برنامج أو استهلاك منتوج. وقد تكون الوضعية التواصلية ثلاثية ، فيتحاور الأشخاص ويتناظرون أمام جمهور، كما هو الشأن في محاورات أفلاطون والمناظرات الجدلية والقضائية، والمواجهات التلفزيونية"[3].

أما الجمهور المستهدف، فتتفاوت سلبيته حسب نوع الوضعية؛ ففي المحاورات الأفلاطونية يتتبع الجمهور عملية البحث عن الحقيقة؛ وفي المناظرات الجدلية والخطابية؛ يتابع كما لو كان حاضرا في فرجة رياضية؛ وفي الحالات الأخرى يكون هو المستهدف مباشرة؛ إذ أن للمتناظرين موقفا محددا منذ الانطلاقة، لا يتغير أثناء التبادل، ولا يتغيى طرف إقناع الطرف الآخر، بل غاية كل محاور أن يتبنى السامع موقفه، أو أن يقترب منه، ويبتعد عن الموقف المضاد[4].

فكيف يتبنْين الحجاج داخل الخطاب ليقوم بأدواره؟ وكيف يشتغل ويتفاعل مع باقي المكونات الخطابية، ومع الأوضاع السياقية والعلاقات التداولية الخارجية؟

إن التفاعل بين الذوات المتحاورة يشكل المحور الأساس في العملية التواصلية الحجاجية بين طرفي الحوار المتمثلين في العارض والمعروض عليه، مع إمكان تبادل المواقع ليصبح العارض معروضا عليه والمعروض عليه عارضا. والتفاعل من الخصائص الرئيسية للغة لكونه يقوم على التأثير المتبادل بين مختلف أطراف الحوار. فالتفاعل الحجاجي بين الذات المستدِلة والذات المستدَل لها يشكل عاملا حاسما في نجاح كل عملية حجاجية، فهو يلعب دورا أساسيا في تفعيل السياقات التي تحرك الحوار وتضبط آلياته. وكل انزياح عن المقتضيات المقامية والسياقية

[1] - مجمد طروس، النظرية الحجاجية، دار الثقافة، الطبعة الأولى (1426هـ\2005)، ص 7 .

[2] - نفسه، ص 11.

[3] - نفسه، ص 11.

[4] - نفسه، ص 11 (بتصرف).

ينظر إليه كمراوغة وتضليل وخرق مقصود أو غير مقصود لضوابط الحوار والتناظر والتَّحاجج[1].

وإذا كان هناك خطاب حواري يقوم على التعاون بين المتحاورين للوصول إلى الحقيقة في الأمر المنظور فيه، فإن ثمة نوعين من الحوار لا يقومان على هذا التعاون ولا يقصدان الحقيقة:
أحدهما خطاب حواري يهدف أحد المتحاورين فيه إلى إلزام المخاطَب وإفحامَه، والآخر حوار يقصد فيه العارض تغليط المعروض عليه. وهذا ما أدى إلى تكوثر الخطاب الحجاجي مما يستدعي تضافر العديد من العلوم للكشف عن مقومات مختلف أنماط التفاكُر والتناظر.

التفاعلات الحوارية بين الإقناع والاقتناع

ليست التفاعلات الحوارية، حسب حسن باهي، مجرد تواصل من أجل الإخبار وتبادل الرأي، بل غالبا ما تتجاوز ذلك في كثير من السياقات التخاطبية إلى حجاج إقناعي يحاول فيه كل طرف من أطراف العملية التواصلية إقناع الآخر بموقفه. وإذا كان الطرفُ المحاجِجُ يهتم بوسائل الإقناع من حجج وأدلة، فإن الطرف الثاني المتلقي لهذا الخطاب الإقناعي ينشغل بفحص تلك الأدلة والحجج. فليس من السهل حصول الاقتناع لديه بل لا بد من جهد حجاجي تكون فيه وسائل الإقناع ناجحة. كما أنَّ المُحاجَجَ يهتم بفحص وتقويم تدليلاته الموجهة للغير[2].
"فالقصد الأساسي لكل أنواع التناظر هو الفهم والإفهام بغاية الإقناع والاقتناع بفعل أمر ما أو تركه. ووراء هذين الهدفين العامين المتمثلين في الفعل والترك تكمن أهداف أخرى متعددة تعكس تعدد وسائل الخطاب الإقناعي وتنوع القنوات والمسالك التي يمكن نهجها لتحقيق الأهداف التي ترمي إليها"[3].

[1] - الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان باهي، ص: 10 (بتصرف).
[2] - نفسه، ص 16: (بتصرف)
[3] - نفسه، ص: 16.

البلاغة دعامة للحجاج

للبلاغة علاقة وثيقة بالحجاج، فهي التي تمده بأساليب الحجاج وتقنياته؛ إذ بينا فيما سبق أن أساليب البلاغة العربية ذات أبعاد حجاجية إقناعية، فضلا عن وظائفها البيانية والتعبيرية والنصية، لذلك لا نتصور خطابا حجاجيا دون بلاغة.

يقول الحباشة في شأن هذه العلاقة: " ليس الحجاج علما / فنا يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتم افتراضها من البلاغة (ومن غيرها كالمنطق واللغة العادية...)، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج مع البلاغة في كثير من الأساليب. ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية"[1].

فالبلاغة دعامة للحجاج، كما يمكن في بعض الحالات أن يصير الحجاج بلاغة، ويتكلم بلسان حالها، ولما كان الحجاج يتوجه إلى مخاطب بخطاب مجهول النتيجة، لأن المرسل إليه قد يقبل هذا الخطاب الحجاجي أو يرفضه، فإن من مصلحته أن يستند إلى معطيات البلاغة وتراثها في التأثير في الآخر، "لأن الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية إنشائية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في الحجاج). ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية"[2].

تتضمن البلاغة عدة وظائف، فبالإضافة إلى وظائفها التعبيرية والتخييلية والجمالية، فبإمكانها النهوض بوظائف حجاجية وتأثيرية بالإقناع والاستدلال، وذلك هو جوهر الحجاج. فالبلاغة بوسائلها اللغوية وأدواتها الأسلوبية تستطيع تحقيق أغراض عدة في دعم الحجاج، وتيسير الإقناع. فتصبح البلاغة بذلك تداولية[3].

وقد حفل التراث البلاغي العربي بالحجاج، ويعد الجاحظ من أهم الأقطاب الأوائل للحجاج العربي؛ إذ فصل القول في كتابه "البيان والتبيين" فيما يخص الخطيب من صفات جسدية

---

[1] - التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، صابر الحباشة، ص: 50.

[2] - المرجع السابق،ص: 50.

3 - تحليل الخطاب بين البلاغة والسميائيات،سعد الخداري ص 208 – 209.

وملكات ذهنية، وقام بتعداد مميزات الخطيب الإيجابية التي تمنح خطابه القبول، من حلاوة القول والحذق فيه، كما نبه على الخصائص السلبية التي تضعف من موقفه مثل العيوب النطقية والعي.

ومن أقطاب الحجاج في تراثنا البلاغي ابن وهب الكاتب، في كتابه البرهان في وجوه البيان؛ إذ بين منذ مقدمة كتابه، أن عمله هذا يأتي استدراكا على الجاحظ في مفهوم البيان وأقسامه.

ثم بين بأسلوب حجاجي أنواع البيان وأقسامه ووظائفه، وبسط القول في أنواع البيان في العبارة وأنساقه؛ فبدأ بالشعر ، كنوع وجنس من أجناس البيان، وحدد خصائصه وسماته، ثم توقف عند جنس الرسالة، فبسط القول في خصائصها ومميزاتها، وما ينبغي أن يتوفر في الرسالة و المرسِل والرسول والمرسَل إليه. والأمر نفسه سلكه مع جنس الخطابة، باعتبارها من أجناس البيان بالعبارة.

ولم يقف عند هذا الحد، بل في باب "العبارة" وباب "الكتاب"، أي في الوجه الثالث والوجه الرابع من أوجه البيان عند ابن وهب، نجد مباحث مهمة في البلاغة والكتابة والشعر والخطابة والجدل، تناولها ابن وهب من زوايا تواصلية وحجاجية وأجناسية وبلاغية ونقدية، مما جعل كتابه جامعا بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر وبين مباحث التخييل ومباحث الحجاج والتواصل والتداول، فكان كتابا في بلاغة الخطاب.

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني، فكان إمام البلاغيين في الحجاج، بل إن كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، قائمان على الحجاج والمناظرة؛ ففيهما خطاب حجاجي واضح؛ إذ يحاور فيهما عبد القاهر الجرجاني النحاة والبلاغيين والنقاد السابقين عليه، وعلماء الدراسات الإعجازية والمتكلمين، وكل من خاض في قضايا: اللفظ والمعنى والفصاحة والإعجاز والنظم والتأليف، وكل من نسب المزية للأساليب دون ربطها بالنظم والتأليف؛ فجاء كتاباه غنيين بقضايا الحجاج وأساليبه وتقنياته. وجاء الخطاب في الكتابين خطابا حجاجيا تداوليا بامتياز[1].

---

1 - أنجِزتْ عدة دراسات حول عبد القاهر الجرجاني، وخطابه الحجاجي والتداولي، نذكر منها، الدراسة التي أنجزها طه عبد الرحمن، عن الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني. ومقال "مصطلح اللفظ والمعنى ومستويات التحليل اللغوي عند عبد القاهر"، نشر بمجلة كلية الآداب بفاس، ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، عدد خاص 4، مطبعة المعارف الجديدة (1993). ومقال عز الدين على مختار علي: "حجاج الجرجاني لنظريته في الفصاحة من كتابه دلائل الإعجاز"، عالم الفكر، العدد 189، (يناير-مارس2023).

وعموما فالبلاغيون العرب الأوائل كانوا مهتمين أشد الاهتمام بالحجاج، وذلك أمر طبعي، يقول سعد الخذاري: "وطبيعي أن يكون الحجاج البلاغي سمة مميزة لحضارة العرب، لأنها أمة فكر ونقد وإقناع، كما أنها حضارة تراث لغوي وبلاغي بامتياز، ولأن القرآن – كذلك – يدعو إلى المجادلة بالحسنى في الدين الإسلامي. وبسبب اختلاف التوجهات وتعدد الفرق الكلامية تطور أسلوب المناظرة وأصبح كل توجه يستعمل كل الحجج لدحض أفكار المجادل، كما أن الأسلوب البياني الذي يتمتع به المناظرون زاد من ثراء هذا الفن على صعيد الاستعمال والإقناع"[1].

ثم توالت الأبحاث في تراثنا الأدبي العربي من منظور بلاغي جديد، وركزت تلك الأبحاث على الخطاب الحجاجي والإقناعي، بعدما لاحظ الدارسون المحدثون أن ذلك الخطاب لم يحظ بالدراسة الوافية، يقول الدكتور محمد العمري: " فقد ظل البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي مغتربا، يعيش حياة الشتاة، في ديار المنطق أو في ديار اللسانيات التداولية. وبذلك ظل بعيدا عن النص الخطابي العربي القديم والحديث، كما ظل بعيدا عن حليفه التاريخي وقسيمه هموم الخطاب البلاغي، أي الشعر والشعرية"[2].

ولذلك نجد عند بعض الباحثين تنويها بالبلاغيين العرب القدامى الذين تمكنوا من التوفيق في دراساتهم بين التخييل والإقناع، مثل حازم القرطاجني الذي بين "أن التخييل هو قوام المعاني الشعرية، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية. واستعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع."[3] وقد فسر ذلك بأنه استجابة لرغبة المتلقين، "لما كانت النفوس تحب الافتتان / في مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض، ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام عليها"[4].

ولعل هذا الاهتمام بالمتلقي عند حازم، وبضرورة مراعاة الشاعر للمقام التخاطبي، والعمل على تنويع الأساليب، هو ما جعل بعض الدارسين، يذهب إلى الحديث عن البعد التداولي في بلاغة حازم[5].

---

[1] - تحليل الخطاب بين البلاغة والسميائيات، لخداري، ص 210 -211.

[2] - بلاغة الخطاب الإقناعي مقدمة الطبعة الثانية، ص 5.

[3] - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص 361.

[4] - المصدر السابق 361.

[5] - ينظر على سبيل المثال الباحث: مصطفى الغرافي، في مقال عنوانه "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال "منهاج البلغاء وسراج الأدباء""، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 40 (يوليو \سبتمبر) 2011 ص 249.

والمتأمل في تلك الدراسات التي صارت تتوالى في السنوات الأخيرة، يسجل جمعها بين ما هو بلاغي حجاجي، وما هو لساني تداولي أسلوبي، ويسجل عودة الاهتمام بالأبعاد التداولية والحجاجية والإقناعية للأساليب البلاغية في سياق علاقتها بالخطابات والنصوص[1].

فقد تزايد الاهتمام بالحجاج من طرف اللسانيين والبلاغيين الجدد، وإذا كان اللسانيون يركزون على وسائل وآليات الحجاج اللغوية النصية، فإن البلاغيين يهتمون بجوانب أخرى منطقية وفلسفية.

[1]- وهذا أمر جيد لو تم استثماره في التعليم الثانوي والجامعي، لأصبح الدرس البلاغي العربي درسا وظيفيا تداوليا وتواصليا ودرسا تحليليا مهاريا يفيد في التعامل مع كل أشكال الخطاب.

الحجاج في البلاغة الجديدة

من أبرز الباحثين الذين كان لهم دور واضح في تجديد البلاغة اليونانية القديمة والنهوض بها: شاييم بيرلمان CH.Perleman (رائد المدرسة البلجيكية)،الذي توج أبحاثه في الفلسفة والقيم بكتابه: "مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة"، الصادر سنة 1958م بالاشتراك مع زميلته لوسي أولبريخت تيتيكا O.Tyteca، وهو أكثر أعماله "شهرة واكتمالا وإلماما بقضايا الحجاج، يقول أحمد يوسف: "أعطى شاييم بيرلمان CH.Perleman دفعا كبيرا للبلاغة،فأعاد لها الروح من جديد، وذلك بالعودة إلى بلاغة أرسطو، ثم صارت تعرف على يديه بـ "البلاغة الجديدة": (la nouvelle rhétorique) التي انبثقت زمنيا قبل البنيوية والتداوليات"[1].

فـ"شاييم بيرلمان" إذن هو رائد البلاغة الجديدة، وقد عالجها من بعدها السميائي كحجاج(Argumentation)، وكآلية في تحليل الخطاب سيميائيا. لقد حاول بعث بلاغة الإقناع بعد الإهمال الذي لحقها لقرون طويلة، وبعد انحصار البلاغة في المجازات والمحسنات والصور، بتخليص الحجاج من تهمتين ألصقتا به: "تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور،وتهمة صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب، مدفوعين بوعيهما بمحدودية المنطق الصوري والعقلانية الديكارتية في تغطية كل مجالات الحياة. ففرضت البلاغة وجودها بعدما كانت منسية ومهملة ومصنفة في خانة العلوم التراثية.

وتتمحور البلاغة الجديدة أساسا مع شاييم بيرلمان وزميلته أولبريخت تيتيكا حول تحليل تقنيات الحجاج،ولذلك فهي تحتفي كثيرا بالحجاج وتعطيه مساحة هامة في الدراسة.

يقول شاييم بيرلمان في مدخل مصنفه: "وفي الحقيقة فإن موضوع هذه النظرية هو دراسة الأدوات الخطابية التي تسمح ببعث أو زيادة استمالة الأذهان إلى الدعاوى التي تقدم للموافقة عليها"[2]. ووصف نظريته في الحجاج بأنها خطابة جديدة أو جدل جديد، ويعترف بأن عمله جاء امتدادا لعمل أرسطو في الخطاب والطوبيقا وتنفنيد السفسطة[3]. وبين في مدخل مصنفه أن مجال الحجاج هو مجال المُرَجَّح أو المُفضَّل أو المحْتَمَل (**Probable**)[4].

---

1 - السميائيات والبلاغة الجديدة، أحمد يوسف، مجلة علامات ع 28، 2007، المغرب ص : 110

2 - المصنف في الحجاج، لبيرلمان ولوسي أولبريخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، ص: 89.

3 - المرجع نفسه، ص8-9.

4 - نفسه، ص:85.

وقد انطلق بيرلمان في مصنفه من نقد بلاغة المحسنات تمهيدا لطرح تصوره الذي سماه خطابة جديدة؛ إذ وضع نصب عينيه نقض بلاغة المحسنات في صيغتها المعروفة عند فونطانيي (1765-1844)؛ لأنها أدت إلى تفسخ بلاغة الحجاج الأرسطية، ونقضَ كل الأعمال التي انخرطت في هذا المنحى التحسيني، وشمل نقده جماعة لييج البلجيكية، رغم أنها سمت عملها "بلاغة عامة"، فهو لا يعدو – حسب بيرلمان أن يكون بلاغة محسنات، لم تكن تشكل في بلاغة أرسطو إلا جزءا يسيرا من إمبراطورية مترامية الأطراف[1].

ولم يكن تشييد بيرلمان الخطابة الجديدة على أنقاض بلاغة المحسنات المصدر النقدي الوحيد لذلك الفعل الثوري، حسب محمد الوالي[2]، بل لقد كان نقده للنظرية القانونية مصدرا ثانيا أساسيا لذلك العمل الجديد الذي أنجزه، "فالخطابة الجديدة عند بيرلمان تهتم بموضوع يستعصي على معالجة المنطق التقليدي والعلم. إنها تهتم بالاستدلال على ما يأخذ به الإنسان من اعتقادات وعلى اختياراته وقراراته العملية. وهذه أمور لا تعني المنطق الصوري إطلاقا، إذ الأمر يتعلق بالقيم والاختيارات الإنسانية،فلأجل تحليل هذه الأمور، من الضروري توسيع المنطق لكي يشمل هذه الأمور، وهذا المنطق المؤهل لهذه المهمة هو الخطابة الجديدة، باعتبارها النظرية الحجاجية، والواقع أن بيرلمان يصل الحبل المنقطع، لأن هذا المجال سبق لأرسطو أن أفاض في معالجته في كثير من أعماله، خاصة في الطوبيقا وتفنيد السفسطة والخطابة"[3]. غير أن بيرلمان لم يلتزم بتمييز أرسطو بين الخطابة والجدل، بل جعل منهما مجالا واحدا بل نظرية واحدة، يدعوها الخطابة الجديدة أو الجدل الجديد. ولتكون نظريته منسجمة عمد إلى بتر أطراف من بلاغة أرسطو القديمة؛ فاستغنى عن الإيتوس أو الطبائع **ethos** والباتوس **pathos** أو الأهواء، ولم يحتفظ إلا باللوغوس **logos**.

وفي المقابل قام بيرلمان بتطعيم اللوغوس وتوسيعه بمواد مجلوبة من الجدل ومن المنطق الصوري؛ وبهذا ساغ له أن يدعو كتابه:"الخطابة الجديدة"**Nouvelle Rhétorique**[4].

---

[1]- انتقد بيرلمان من حولوا البلاغة إلى بلاغة محسنات؛ لأن محاولاتهم ساقت بالتدريج إلى تفسخ الخطابة، وبالتالي إلى موتها، وذكر منهم بيير دولارمي (1515- 1572)، وتالون (1572) وفونطانيي (1765-1844) وهوج بلير (1718 - 1800)، وانتقد كذلك من المعاصرين جماعة لييج البلجيكية؛ فبالرغم من تسمية كتابها "بلاغة عامة" ، فإنها بلاغة للمحسنات التي كانت في بلاغة أرسطو مجرد إقليم صغير في إمبراطورية مترامية الأطراف. ينظر المرجع السابق، ص: 33-34.

[2] - المرجع السابق، مقدمة المترجم ص:40-41.

[3] - المصنف في الحجاج، لبيرلمان ولوسي أولبريخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، مقدمة المترجم ص:41-42.

[4] - المرجع السابق، ص:43-44.

وحدد موضوع نظرية الحجاج في دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة، وحدد الغاية من الحجاج في جعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد من درجة ذلك الإذعان، وجعل متن أرسطو،لا سيما في الجدل والخطابة، منطلقا لهما لتطوير نظرية الحجاج[1].

وإذا كانت خطابة أرسطو خطابة جموع وحشود، فإن خطابة بيرلمان تعنى بكل أنواع المستمعين، سواء بحشد مجتمع أو باجتماع مختصين أو بشخص واحد، أو بكل الإنسانية، إنها تعنى أيضا بالحجج التي يوجهها المرء لنفسه خلال حديث النفس[2].

لذلك صارت تغطي كل خطاب يسعى إلى تفعيل المخاطب وإلى وصف كل ما ينأى عن العلم والعقل المجرد. وهذا هو معنى الربط بين الجدل والخطابة في مشروع بيرلمان حسب محمد الوالي. لقد وسع بيرلمان البلاغة إلى الحدود البعيدة، وذلك عبر دمج الجدل،والانسانيات عامة والتحاور اليومي في هذا النموذج الموحد الذي دعاه الخطابة الجديدة.

ويندرج تصور بيرلمان للبلاغة ضمن توجه بلاغي عام "يروم جعل البلاغة علما مستقبليا هدفه - أو على الأصح أهدافه- تطوير المجتمع وتحليل مختلف الخطابات عن طريق الوقوف على خططها الحجاجية المتأسسة عليها"[3].

دور المستمع في النظرية الخطابية

المستمع هو الفكرة المركزية التي أقام عليها أرسطو صرحه لفن الخطابة، وعليه اعتمد لإقامة أجناس الخطابة. فالمستمِع إما متفرج، كما في الخطابة الاحتفالية، وإما أن يصدِر حكما، كما في الخطابة القضائية،وإما أن يصدر حكما على الأحداث المستقبلية،كما في الخطابة الاستشارية.

وقد حذا بيرلمان حذو أرسطو في الاهتمام بالمستمع، يقول:" بما أن الحجاج الخطابي يهدف إلى الاستمالة، فإنه يخضع بشكل أساسي للمستمع الذي يتوجه إليه، إذ إن ما يكون مقبولا لمستمع ما، لا يكون كذلك لمستمع آخر؛ وهذا لا يتعلق فقط بمقدمات الاستدلال، ولكنه يتعلق أيضا بكل حلقة من حلقات هذا الاستدلال، ويتعلق في النهاية بالحُكم نفسه على الحِجاج في جملته"[4].

---

[1] -المرجع السابق، ص:45.

[2] - المرجع السابق، ص:46.

[3] - الحجاج أطره ومنطلقاته، عبد الله صولة، ص: 102.

[4] - المصنف في الحجاج، لبيرلمان ولوسي أولبريخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، مقدمة المترجم ص:49.

وهكذا يتبين أن المستمع / المخاطَب يحتل، في النظرية البلاغية البيرلمانية والأرسطية أهم موقع؛ فالإقناع هو إقناع شخص ما، ولا وجود لإقناع بدون مخاطَب به،ولذلك فإن إهمال هذا الطرف/المستمع؛ سيجعل العملية الحجاجية تتهاوى،والحقائق نفسها في الحجاج لا تكسب الأهمية إلا باعتراف المستمع[1].

وقد لا يلتفت المستمِع / المتلقي إلى الحقائق العلمية ولا يخصها بإي تقدير، ويتشبث بدل ذلك ببعض الأوهام التي يجعلها فوق الحقائق.

لكن من هو هذا المستمع الذي تستهدفه الخطابة؟

يستدرك محمد الوالي على بيرلمان بأن المستمِع ليس بالضرورة هو ذاك الذي يستهدفه الخطيب ويقصده بالخطاب، فقد يتلقى الخطاب مخاطبون آخرون غير معنيين به، فنحن اليوم نقرأ هوميروس، دون أن يكون في نيته أننا سنكون من مخاطبيه، ونتلقى أشعار الصعاليك دون أن يكون في نيتهم أننا سنكون من متلقيهم. فاللعبة معقدة، وليس هناك اتفاق بين نية الخطيب ونية المتلقي. لذلك يعلق محمد الوالي على تحديد بيرلمان للمستمع على أنه تبسيطي[2].

<u>منطلقات الحجاج</u>:

حدد بيرلمان وتيتكا المنطلقات الحجاجية في مقدمات الحجاج واختيارها وطريقة صوغها. ومن هذه المنطلقات:

- الوقائع: وتمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس...
- الحقائق: تقوم على الربط بين الوقائع، ومدارها النظريات العلمية والتصورات الفلسفية والدينية المتعالية على التجربة.
- الافتراضات: تحدد بالقياس إلى المحتمل والعادي وتكون موضع موافقة عامة، إلا أن التسليم بها يستمد من عناصر أخرى في المسار الحجاجي تقويها.
- القيم: هي أساس الحجاج في مجالات القانون والسياسة والفلسفة، "إذ يعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين وفي دفعهم إلى الفعل المطلوب." واعتبرها بيرلمان بمثابة قواعد حجاجية، نستند عليها لكي نحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى، كما أننا نستدعيها

[1] - المصنف في الحجاج، لبيرلمان ولوسي أولبريخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، مقدمة المترجم ص:49

[2] - نفسه، ص:50.

خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة ومؤيدة من طرف الآخرين... فبالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذي يريده المبدع (المحاجج)...

وهي إما مجردة مثل العدل والحق أو محسوسة مثل الوطن، ونكون بصدد القيم حينما " يصبح أحد الشيئين أرفع من شيء آخر أو أحط منه، حيث يحكم على شيء بأنه أرفع ويجب تبعا لذلك أن يخص بالتفضيل"[1].

- الهرميات: تخضع القيم لهرمية ما، فهي درجات ومراتب. وتكتسي هذه الهرمية قوة حجاجية قد تفوق القوة الحجاجية للقيم نفسها.

- المواضع: هي مقدمات عامة، يلجأ إليها المحاجج لبناء القيم وترتيبها،كمواضع الكم، ومواضع الكيف ومواضع الترتيب، ومواضع الجوهر.

التقنيات الحجاجية:

إن ما يميز المنطق عن الخطابة هو أننا في المنطق نستدل دوما داخل نسق معطى ومغلق، يفترض أنه مقبول، في حين أننا في الحجاج الخطابي يمكن دائما أن يوضع كل شيء موضعَ شك، وذلك بسبب تجذر الخطاب في المقام، فالمستمِع يلون أحكامه تبعا للأحوال والعلاقات مع الباث، فهو الذي يحسمُ الاختيار. فبالإمكان دائما سحب الاقتناع لأن ما يسلم به هو واقعة وليس مبدأ.[2]

وقد بسط بيرلمان وتيتيكا في القسم الثالث من كتابهما مصنف في الحجاج **Traite de L arqumentation** أهم الطرائق في الخطاب الحجاجي، وهي في نظرهما نوعان:

- طرائق الاتصال
- طرائق الانفصال

1) طرائق الاتصال في الحجاج:

وهي طرائق تربط بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها. وهي الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة وتمكن من إقامة روابط علاقة بينها كي يمكن دمجها في بنية حجاجية متماسكة وموحدة، و تشمل كل الحجج التي اهتمت بها البلاغة القديمة، وهي كما يلي.

[1] - الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ص، 12.

[2] - المصنف في الحجاج، لبيرلمان ولوسي أولبريخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، مقدمة المترجم ص:56

يتخذ الاتصال الحجاجي ثلاثة مظاهر، هي:

ا- الحجج شبه المنطقية: حجج تقبل الصياغة المنطقية غير أنها غير ملزمة لهذا وصفت بالمشابهة.

ب- الحجج المؤسسة على بنى الواقع: وهي حجج تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها وأحكام يسعى الخطباء إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلما بها، وذلك لجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججا اتصالية أو قائمة على الاتصال"[1].

ج - الحجج المؤسسة لبنى الواقع: تقوم هذه الحجج على مستويين اثنين؛ "أولهما تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة، كالمثل الذي يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة.. ويلحق بالمثل الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة.. أما ثانيهما فيقوم على استخدام التمثيل استخداما حجاجيا[2]".

2) طرائق الانفصال في الحجاج

يقتضي الانفصال بين العناصر في الحجاج وجود وحدة بينها ومفهوم واحد، ويقوم هذا النوع من الحجاج على كسر هذه الوحدة بالفصل بين العناصر المتضامنة، ويقصد بطرائق الانفصال"التقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل كلا لا يتجزأ، وغالبا ما تستخدم هذه التقنيات في تفكيك الأبنية الحجاجية التي يخشى المتكلم على نجاح حجاجه منها"[3].

وتتجلى طرائق الفصل في الأقوال والخطابات في عبارات من قبيل:

- ظاهري /حقيقي؛ **Apparent/réel**

- ظاهريا / حقيقة ؛ **Apparemment/réellement**

كما يعبر عنها بطرائق من قبيل: هو شبه كذا، مثل شبه علمي؛ لا علمي، غير صحيح،

---

[1]- الحجاج أطره ومنطلقاته. عبد الله صوله،ص:33.

[2]- الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم، ص: 131-132.

[3]- الحجاج في البلاغة المعاصرة ،ص: 127.

- بعض الجمل الاعتراضية كقولنا: إن هذا البطل – إن صح أنه بطل –
- بعض الأفعال: مثل يزعم، يتوهم،
- وضع بعض الكلمات بين قوسين أو مزدوجتين، كأن نكتب: لقد كنتَ يومها "بطلا".

ويرى المؤلفان أن أنجع الكلام ما جاء على قدر المقام ، إذ يتطابق موضوع الخطاب وأسلوبه فيتجنب حصول ضروب الفصل السابقة[1].

وقد فتح بيرلمان، من هذا المنظور، أمام الحجاج آفاقا جديدة، وحاول إخراجه من الدائرة الضيقة التي حصرته فيها الدراسات التقليدية، كأداة تقنية صرفة، توظف في المجالات العقلية أو التجريبية الصرفة؛إلى عالم الاحتمالات، عالم الآراء والقيم والتفاعلات بين الأفراد والجماعات، بين الأفكار والأطروحات، يريده أن يكون ذرعا واقيا أمام انفعالاتنا وغرائزنا، وأن تتحول أدواته العقلية واستنباطاته التطبيقية والتجريبية من حجج متراكمة إلى نظرية للخطاب.

أصبح الحجاج إذن مع بيرلمان نظرية تدرس التقنيات الخطابية كوظيفة حجاجية، وتفحص شروطها وآثارها، إذ تنصب الممارسة على الحجج العقلية والتجريبية، وعلى قضايا ترجع إلى الرأي وتواجه الجانب اللاعقلاني من رغبات ومصالح وأهواء؛ مما يوجب التمييز بين البرهنة المستقلة عن الذات، وبين الحجاج كممارسة ذاتية اجتماعية.

[1] - بلاغة الإقناع، عبد العالي قادا، ص: 176.

الفصل الخامس

البلاغة العربية والتنمية الاجتماعية

- البلاغة وبناء القيم الإيجابية

- البلاغة والتربية على القيم القرآنية (تطبيق)

الفصل الخامس - البلاغة العربية وبناء القيم الإيجابية

تمهيد

تبين من الفصول السابقة أن أساليب البلاغة العربية لها وظائف تعبيرية وتواصلية وحجاجية وتأثيرية؛ فهي ليست مجرد أساليب جمالية، ولا محسنات أسلوبية، بل إنها تعبر عن مواقف المتكلم، وتبلغ رسائله إلى المخاطب. وبأساليب البلاغة نحاجج ونقنع ونؤثر ونتأثر.

فالأساليب البلاغية تعبر عن قيم المتكلم وتصوراته، وتسهم في التواصل بين أطراف التخاطب، وتحقق التفاهم أو تعيقه. لذلك نبه البلاغيون إلى ضرورة مراعاة المقام، واختيار الكلام المناسب لكل موقف تواصلي.

ولأساليب البلاغة تأثير في مواقف الإنسان وقيمه وما يصدر عنه من تصرفات وسلوكات يومية. لذلك لابد من الاهتمام بتربية المتعلم بلاغيا حتى يختار الأسلوب المناسب لكل موقف تخاطبي؛ فلا يخاطب أباه ولا أمه بما يخاطب أقرانه، ولا يتواصل مع معلميه بأسلوب لا يليق بهم، ويحرص على أن يراعي آداب الحديث، فلا يأمر في مقام يقتضي الالتماس، بل يلتمس ويطلب بأدب؛ لأنه ليس في موقع الآمر الناهي.

بالبلاغة إذن ننمي قيم التواصل والحوار والتفاهم، ونسهم في حل كثير من المشكلات الاجتماعية التي تطرأ بين الأفراد بسبب أسلوب القول أو فساد الفهم.

إن دراسة الأساليب البلاغية من منظور تواصلي سيسهم في تربية المتعلم على كيفية مخاطبة كل صنف من أصناف المخاطبين على قدره، وبما يليق به. فلا يزيغ في استعمال الأساليب في المواقف التواصلية الكثيرة التي يواجهها.

بالبلاغة يخاطب المتعلم المدير والمدرس والأب والصديق وأفراد العائلة كبارا وصغارا؛ فتجعله ناجحا في التواصل، محققا للتفاهم، لا يقول كل شيء في أي مكان ومع أي مخاطب، بل يتواصل بلاغيا على قاعدة؛ لكل مقام مقال.

بالبلاغة نحسن الفهم، فلا نزيغ في التأويل والتفسير؛ إذ كثيرا ما تحدث مشاجرات بسبب سوء الفهم والتأويل، ولو نجحنا في تعليم البلاغة التأويلية[1]، لتجنبنا كثيرا من المشكلات الأسرية والاجتماعية المتعلقة بالفهم والتأويل.

بالبلاغة ندخل السعادة والسرور على المخاطبين، وبغيابها قد نعكر صفو المجالس، ونحبط من كان يطمح إلى المعالي.

وحتى يتضح المقال لنتأمل الحوار الآتي:

- ما شاء الله أنت ذكي، كيف استطعت أن تتوصل إلى هذا الجواب؟
- شكرا، على حسن ظنك.

قارن بينه وبين هذا الحوار:

- ما هذا الغباء؟ ألا تستطيع حل هذه المعادلة البسيطة؟
- لم أفهم الدرس، هل يمكنكم إعادة الشرح؟
- لا فائدة منك، أنت دائما فاشل...

[1] - أقصد البلاغة التي تسهم في تسديد الفهم والتأويل، أغراض الأساليب ودلالاتها بناء على سياقات ومقامات إجرائها، وهي بلاغة تسهم في التاصل والتفاهم؛ إذ كثيرا ما يكون سبب غياب التفاهم والتواصل هو الأسلوب البلاغي إنجازا وتلقيا وفهما وتأويلا.

كيف نستثمر البلاغة في بناء القيم

من الخطإ اعتقاد أن الأساليب البلاغية تقتصر وظائفها على التزيين والزخرفة، أو إن تجاوزنا المسلمات التقليدية إلى اجتهادات المحدثين، تحدثنا عن الوظائف الجمالية والتعبيرية والحجاجية للبلاغة وأساليبها. لكن أن نتحدث عن أثر البلاغة في التربية، وأهميتها في بناء الأخلاق... فهذه أمور قلما نصادفها في مراجع البلاغة.

لذلك أريد في هذا الكتاب أن أحاججَ بأن للأساليب البلاغية أثر واضح في التربية على القيم والأخلاق الإيجابية؛ فبهذه الأساليب يمكن أن نشجع على العمل الإيجابي وعلى السلوك الإيجابي في كل المواقف، وفي مختلف المجالات.

لذلك نجد المهتمين بالتربية، منذ العهود القديمة، يؤكدون على الكلمة الطيبة، وعلى حسن القول. وفي ديننا الحنيف نصوص كثيرة في الحث على بلاغة القول وحسنه.

قال تعالى: (ألمْ ترَ كيف ضربَ الله مثلا كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الامثال للناسِ لعلهم يتذكون)إبراهيم:24-25، وقال سبحانه:(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمِل صالحا وقال إنني من المسلمين) فصلت:33.

فبالتشبيه والاستعارة يمكن أن نحفز المخاطب على الإيجابية، ونحارب فيه السلبية؛ فحين يقول الأب مثلا لابنته:

- أنتِ شمسُ بيتي، كم أصبح البيت منورا بوجودك !
- ما قمتِ به أثلجَ صدري !

لا شك أن هذه التعابير ستجعل المخاطبة تُسَر بما سمِعتْ ويزيد عطاؤها إحسانا وإتقانا، لأنها ترغب في إسعاد أبيها، وتتشوق إلى أن تسمع منه مثل هذا الثناء.

وفي المقابل فإن مخاطبة الأبناء أو غيرهم بالتعابير السلبية – وما أكثرها في المجتمع - كالتعابير المرتبطة بوصف الإنسان، وتشبيهه ببعض الحيوانات أحيانا احتقارا له وسخرية منه، تؤثر عليهم سلبيا وقد تفقدهم الثقة في قدراتهم وإمكاناتهم.

وتزداد خطورة هذه التعابير حين يكون المخاطَب بها طفلا؛ إذ كثيرا ما ينادي الآباء على الأبناء بنداءات سلبية تؤثر تأثيرا عميقا في نفسية الطفل، الذي قد يقتنع بأنه وفق ما يوصف به؛ فلا يجتهد ولا يبذل مجهودا في تغيير نفسه.

أثر البلاغة وأساليبها في التواصل الناجح

لنتأمل النماذج الآتية:

- عندما يقول الأب أو الأم مخاطبا ابنه:
- هل أنجزت واجباتك يا غزال؟
- ما شاء الله عليك أنت رائع، كيف استطعت الحصول على هذه النتيجة؟
- نورت البيت يا بني !
- إنجازاتك رفعت رأسي بين أصدقائي؛
- أخلاقك تضيء قلبي بهجة؛
- ما هذه الروعة؟ أأنت من كتب هذه اللوحة الفنية ؟ !
- تأخرت يا ولدي ، كم كان البيت مظلما في غيابك!

هذه نمادج في عالم التربية الأسرية تبين الفرق بين التعبير البلاغي الإيجابي والتعبير البلاغي السلبي. وتتضح قيمة هذه التعابير عند استحضار النماذج السلبية الشائعة في مجتمعنا:

- ما هذا العمل يا غبي؟
- أنت دائما هكذا؛ لا تأتي بخير.
- انظر إلى ابن فلان وإلى نتائجه !
- ما هذا الخط؟ أتكتب برجليك؟

وهذه التعابير ليست مجرد ألفاظ، بل هي تصورات تم التعبير عنها بأقوال، وتترتب عنها ردود فعل سلبية؛ فقد يقتنع المخاطب أنه فاشل غبي لا يستطيع النجاح، فيصاب باليأس والإحباط، وقد يحاول الفرار من البيت، أو الدخول في حالة مرضية، لذلك لا نستغرب عندما يجيب بمثل التعابير الآتية:

- أنا لا أستطيع فعل ذلك، انظر غيري؛
- أنا فاشل، إذن لا فائدة من المحاولة؛

وفي مجال العلاقات الاجتماعية، نجد المتحاورين كثيرا ما يتنازعون ويختلفون بسبب أسلوب القول وطريقته؛ فقد يأمر منْ ليس في مقام الأمر، فتسمع المخاطَب يرد:

- أنت تأمرني ! من تكون حتى تأمرني !
- هل تعتقد أنني أشتغل عندك؟ ما هذه الوقاحة ؟ تعلم كيف تخاطبُ مديرك؟

سبب هذا الخلاف بلاغي؛ مرتبط بأسلوب القول، فالمتكلم كان عليه أن يتأدب فلا يأمر، بل يلتمس، فيقول على سبيل المثال:

- من فضلك، هل يمكنك مساعدتي ؟
- إذا لم يكن هذا مزعجا لفضيلتكم، هل بإمكاني أن آخذ بعض وقتك؟
- كمْ سأكون سعيدا بمرافقتكم إلى المكتبة، لاأستطيع الذهاب لوحدي !

وفي مجال الأسرة كثيرا ما نجد الحوار بين أفرادها يتم بدون بلاغة؛ فأفعال الكلام الصادرة عن الطرفين - أحيانا- لا تحترم المشاعر، ولا تراعي المقام التواصلي؛ فتنتج عن ذلك شجارات وخلافات قد تؤدي إلى تصدع العلاقات، وأحيانا إلى هدم كيان الأسرة.

بالبلاغة يمكن إشاعة القيم الإيجابية

تمدنا البلاغة بأساليب متنوعة في مختلف المقامات التواصلية؛ سواء أردنا أن نخبر أو نستفهم أو نطلب أو نتعجب ... والمتكلم البليغ هو من ينتقي الأساليب المناسبة، في كل السياقات والمقامات.

1) فالأساليب البيانية تمكننا من التعبير عن مقاصدنا بطرق عدة، فنختار أكثرها بيانا وإفهاما، فأمامنا التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، هي أساليب تستدعيها مقامات التواصل.

الاستعارة و إشاعة القيم الإيجابية

إن القيم التي نؤمن بها تحتاج إلى من يشيعها في كل أشكال التخطاب؛ فالخطاب التواصلي اليومي خطاب استعاري؛ لذلك ينبغي أن نشيع فيه الاستعارات الإيجابية، وأن نتجنب الاستعارات السلبية السائدة. والخطاب الأدبي بوصفه خطابا استعاريا، غني بالقيم الإيجابية.

فالمتأمل في الشعر العربي منذ بداية نشأته يجده يتغني بقيم الخير والجمال، لذلك فاختيار النصوص الغنية بالقيم دعامات للدروس يعد من أهم أساليب التربية على القيم الإيجابية المسهمة في بناء الإنسان.

والخطاب الروائي بدوره خطاب استعاري، يستعير وقائعه وشخصياته وفضاءاته من الواقع، لذلك فهذا الخطاب يمكن أن يسهم في بناء القيم؛ فالقارئ غالبا يتعاطف مع البطل الذي يتصف بقيم العدل والحرية وغيرها. ويتخذ موقفا سلبيا من الشخصية الظالمة الخائنة الانتهازية...

والأمر ذاته ينسحب على كل الأشكال الأدبية؛ فالاستعارة توجد في المسرح، وفي السينيما، وفي مختلف الفنون والآداب. لذلك كلما كان المبدع مهتما بالقيم الإيجابية، وبترسيخها في المتلقي، كان إبداعه مسهِما في بناء الإنسان.

ولهذا ولغيره وجدنا في تاريخ الإبداع من يُلح على سؤال الوظيفة في هذا الإبداع، ويدعو إلى أن تكون للأدب رسالة في المجتمع.

ومع تطور الفنون ووسائل التواصل أصبحت الصور والأشكال تمارس تأثيرها على المتلقي، طفلا كان أو شابا أو كهلا أو شيخا، لذلك صارت الصورة من أخطر وسائل التأثير في مختلف وسائل التواصل الحديثة. ومعلوم أن الصورة تقوم على الاستعارة وعلى المشابهة والرمز، وكلما كانت الصور دالة على القيم الإيجابية كان تأثيرها إيجابيا، وكلما كانت سلبية انعكست آثارها على المتلقي.

لذلك فإن التركيز على الخطابات والصور الغنية بالقيم الإيجابية في الإبداع والإعلام والتدريس يعد من أهم المداخل للإسهام في بناء الإنسان الإيجابي المتصف بقيم الخير والجمال.

2) أساليب علم المعاني عمدة التواصل

إن أساليب علم المعاني تتيح لنا التعبير عن مقاصدنا، نظرا لما تزخر به من أساليب متنوعة، حسبما يقتضيه المقام؛ فنوجز في مقام الإيجاز، ونطنب في مقام الاطناب، ونقدم ونؤخر ونحذف إذا اقتضى السياق التواصلي ذلك، ونختار التعريف تارة، والتنكير أخرى، وهكذا...

وبها نتواصل باستمرار؛ إذ لا نستغني عنها في مواقفنا التواصلية، فهي التي تمدنا بأسلوب القول المناسب، حسب المقامات التواصلية، وحسب العلاقة التي تربطنا بمن نخاطب؛ فنتأدب في حواراتنا؛ نلتمس من أصدقائنا ولا نأمرهم، نعبر عن تساؤلاتنا وطلباتنا بأسلوب بليغ حين يكون المخاطب أكبر منا، أو ذا سلطة علينا (أب – مدير – مسؤول...).

خلاصة

إن إشاعة التعابير البلاغية الإيجابية لمن شأنه أن يسهم في التواصل الإيجابي بين الأفراد والأسر والجماعات، وينشر قيم الحوار والتعاون والتسامح بين الأطراف المتواصلة.

فكمْ من أسرةٍ تهدمتْ أركانها بسبب أساليب القول بين الطرفين، وكم علاقة تصدعت لأن أحد أطرافها أغلظ القول لصديقه، وخاطبه بما لا يليق في حق الأصدقاء، أو أساء الفهم والتأويل لقول صديقه.

وكمْ من طفل نجح في مسيرته العلمية والعملية بسبب تلك التعابير المشجعة التي كان يسمعها من أفراد عائلته ومؤطريه.

وكم من شاب أصابه الإحباط واستسلم لليأس بسبب التعابير والأساليب الاحتقارية التي يعرض لها في البيت أو المدرسة .

من هنا تتأكد أهمية البلاغة في التربية الإيجابية، وضرورة إشاعة الأساليب والتعابير البلاغية الإيجابية في المجتمع، في كل مؤسساته وبين كل أفراده.

وتتحمل الأسرة والمدرسة وكل المؤسسات الاجتماعية مسؤولية التربية على قيم التواصل والحوار والتفاهم، وللبلاغة أثر كبير في تحقيق ذلك، كما تقدم بيانه.

ولبيان أهمية الأساليب البلاغية في التعبير عن القيم الإيجابية والتربية عليها، وحتى لا يبقى هذا الكلام دون تطبيق، سأتوقف في المبحث الموالي عند الأساليب البلاغية التي تم بها التعبير عن القيم في الخطاب القرآني، وكيف حققت أغراضها في الدعوة إلى تلك القيم بأساليب بديعة، تضافرت فيها أساليب البيان والمعاني والبديع، وهي فرصة للتطبيق على نوع من أنواع الخطاب؛ إنه الخطاب القرآني.

الأساليب البلاغية

والتعبير عن القيم القرآنية

- تطبيق -

الأساليب البلاغية والتعبير عن القيم القرآنية

القرآن الكريم هو المصدر الأول للقيم الإسلامية. ولذلك فقد وصفه رب العزة بأنه كتاب يهدي للتي هي أقوم في كل شيء: في العقيدة وفي العبادات وفي الأخلاق وفي المعاملات، وفي الشريعة؛ في تنظيم العلاقة بين العبد وربه، وبين العبد ونفسه، وبين العبد وسائر المخلوقات.
قال تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدي إلى التي هي أقوم ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهمُ أجرا كبيرا**﴾[1]. وقال سبحانه مخاطبا رسوله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾الشورى الآية: 52.

فكيف دعا القرآن الكريم إلى القيم؟ وما هي الأساليب البلاغية الأكثر استعمالا في التعبير عن القيم القرآنية ؟ وما أغراضها وما وظائفها؟ وكيف أسهمت في أداء وظائفها التعبيرية والحجاجية والتأثيرية؟

1) تنوع الأساليب البلاغية في التعبيرعن القيم في الخطاب القرآني

جاءت الدعوة إلى القيم الإسلامية في القرآن الكريم بأساليب وطرق متعددة ومتنوعة، مما يجعل القارئ المتدبر المتفهم لهذا الخطاب يتأثر بهذه القيم والأخلاق.
فتارة تتم تلك الدعوة بتزكية من اتصف بها والثناء عليهم، وأخرى تتم بالترغيب في الاتصاف بها وتحبيبها إلى المخاطبين. وحينا تأتي القيم في قالب قصصي سردي أو في مشهد حواري أو عن طريق الوصف.
وقد تتم الدعوة إلى التخلق بهذه القيم بأسوب مباشر إما بالأمر بها، أوالنهي عن مضاداتها، بعد النداء على المخاطبين وتنبيهم. وأحيانا أخرى يتم ذلك بأسلوب الترهيب عن عدم التخلق بالقيم الإسلامية؛ مما جعل الأساليب البلاغية تتعدد في عرض القيم الإسلامية وترسيخها وتتنوع بين الأساليب البيانية وأساليب علم المعاني والأساليب البديعية.

أما صيغ عرض القيم في الخطاب القرآني،فقد تعددت وتنوعت بين السرد والوصف والحوار. فبأسلوب السرد قدمت عدة قيم إيجابية من خلال سرد قصص الأنبياء والصالحين.

[1] - سورة الإسراء، الآية 9.

وبأسلوب الحوار، الذي ورد بنوعيه الخارجي والداخلي، تم عرض قيم الصالحين في مقاطع حوارية، في عدة سور قرآنية. ومثال الأول (أي الحوار الخارجي)حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وحوار موسى مع قومه. وحوار يعقوب عليه السلام مع أبنائه. ومثال الحوار الداخلي حوار إبراهيم مع نفسه. وأما أسلوب الوصف فأمثلته في القرآن الكريم أكثر من تحصى كوصف المؤمنين وأولي الألباب والمتقين والأبرار.

وفيما يلي بيان لبعض هذه الأساليب من خلال نماذج من آي القرآن الكريم.

1) أساليب علم المعاني

- الأسلوب الخبري المفيد للمدح والثناء:

عندما نتدبر السور والآيات القرآنية ونتأملها، نجد أن الأسلوب الخبري المفيد للمدح والثناء يأتي في مقدمة الأساليب المعتمدة في ترسيخ القيم الإسلامية. ورد هذا الأسلوب في عدة مواضع من كتاب الله. ففي سورة الفرقان، لم يقتصر الخطاب القرآني على وصف عباد الرحمن فقط، بل مدحهم وأثنى عليهم بأسلوب بلاغي بديع. ففضلا عما أفادته الإضافة إلى الرحمن من تشريف وتكريم لعباد الرحمن (وعباد الرحمن)، فإن في عرض صفاتهم أيضا بالأسلوب الخبري مدح وثناء، قال عز وجل في سورة الفرقان:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70)﴾ الفرقان 63-70.

قال الإمام القرطبي في تفسيره: « لما ذكر جهالات المشركين، وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم، كما قال: (**سبحان الذي**

أسرى بعبده)، فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره، فهو الذي يستحق اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى: (أولئك كالأنعام بل هم, أضل)»[1].

وقال الطاهر بن عاشور «والمراد بـ (عباد الرحمن) بادئ ذي بدء أصحاب رسول - الله صلى الله عليه وسلم - فالصفات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها. وإذ قد أجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة، علم أن من اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء وقد شرفهم الله بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمن لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم: اسجدوا للرحمن. قالوا : وما الرحمن؟»[2].

وفي بداية سورة المومنين، يقول سبحانه مادحا المؤمنين ومبشرا لهم بالفلاح:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُومِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. المؤمنون الآيات 1-11.

ففي هذه الآيات إخبار بجزاء المؤمنين، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾، وجاء الخبر مؤكدا بالمؤكِّد (قد)، لإقناع المخاطبين بهذا الخطاب، ومحاججة غيرهم، ممن يشكون في ذلك. وبعد هذا الوعد تم عرض صفات المؤمنين المفلحين عرضا بديعا، عن طريق الوصف المفيد للثناء والمدح، وبتكرار اسم الموصول (الذين) والضمير (هم)، وجاءت الجمل موصولة بالواو، تعبيرا عن اجتماع صفات نبيلة في الموصوفين؛ استحقوا بسببها الفلاح والفوز.

وفي ذلك ما فيه من الترغيب في تمثل تلك الصفات والتخلق بها، لكل من يقرأ هذه الآيات ويتدبرها؛ فالقارئ حينما يبدأ بقراءة الحكم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾، لا شك سيتساءل؛ لماذا أفلحوا؟ ما العمل الذي عملوه حتى نالوا هذا الجزاء؟ فيأتي الجواب سريعا، عن طريق هذا

[1] - الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي تفسير الآيات 63-70 من سورة الفرقان.

[2] - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تفسير الآيات 63 -70 من سورة الفرقان.

الأسلوب البلاغي البديع؛ **الإخبار بصفاتهم إخبارا يفيد الثناء عليهم، والدعوة إلى التخلق بأخلاقهم وتمثل صفاتهم**.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: «﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾،افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم، لإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه»[1].

فهذه الآيات جمعت قيما وخصالا نافعة من خصال الخير التي يحصل بها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة. إذ جمعت هذه الآيات الكريمة بين حق الخالق وحق المخلوق، وبين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وبين الأعمال اللازمة والأعمال المتعدية. وتضمنت أسبابَ الفلاح المتمثلة في الاتصاف بقيم وأعمال صالحة، هي:

- الخشوع في الصلاة.
- المحافظة على الصلاة.
- الإعراض عما لا ينفع من القول والعمل.
- حفظ الفروج عن الحرام.
- أداء الأمانات.
- الوفاء بالعهود.

وبالأسلوب الخبري ختمت هذه الآيات مخبرة بالجزاء الحسن لأهل هذه الأعمال الحسنة فكشفت عن حقيقة الفلاح: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

تضمنت هذه الآيات قيم إسلامية وأخلاق مُثلى تم عرضها بأسلوب خبري يفيد غرض المدح والثناء، فالحكم على المؤمنين بأنهم قد أفلحوا، فيه ما فيه من الدلالة على تزكية أخلاقهم وصفاتهم التي بها استحقوا الفلاح، وهي قيم يحبها الله تعالى ويرضى على من اتصف بها.

فالقارئ لهذه الآيات بتدبر وتفهم لا شك سيتأثر بهذا المدح وبهذا الثناء الذي استحقه المومنون من خالقهم، وسيتوقف عند هذه الصفات وسيحاول التخلق بها طمعا في الفلاح.

[1]- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، تفسير الآيات:1-11من سورة "المومنون".

ولا شك أن تفهم هذه الآيات يحتاج إلى بلاغة القراءة وبلاغة التدبر. وإنما يتحقق الانتفاع بالتدبر والتفكر في آي كتاب الله.

وبالأسلوب الخبري المفيد للمدح والثناء تم عرض صفات المتقين وأولي الألباب في قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ آل عمران: 134.

فبعد أسلوب الأمر الذي يفيد الترغيب في قيمة المبادرة إلى المغفرة والمسارعة إلى الجنة، جاء وصف الجنة، ثم بعدها جاء وصف أهلها، في سياق الثناء عليهم، بذكر صفاتهم وأخلاقهم وقيمهم المثلى، إغراء بها وحثا عليها. فالغرض بالأسلوب الخبري هنا، المدح والثناء. وهو أسلوب يُرغب ويُشوق المؤمنين في هذا الجزاء، ويَحْملهم على تَمَثُّل هذه القيم والصفات، ما دامت تؤدي إلى المغفرة والجنة.

وفي قوله سبحانه:﴿إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (20) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب(21) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ الرعد 20-22.

فبعد أسلوب القصر[1]﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾، جاءت صفات المقصور عليهم (أولو الألباب)، بالأسلوب الخبري المفيد للمدح والثناء، فتم التعريف بقيم أولي الألباب وبأخلاقهم، التي بوأتهم هذه المنزلة. وذلك بأسلوب بديع، يجعل متدبر هذه الآيات يتشوق إلى أن يكون مثلهم، متصفا بأخلاقهم وبقيمهم التي بوأتهم هذه المنزلة منزلة التذكر، ويا لها من منزلة!

فأنْ ينال أولو الألباب هذا الثناء من الله تعلى، فذلك دليل على قيمة هذه الأوصاف وترغيب فيها.

إن المدح والثناء، كغرض أفاده الأسلوب الخبري، ليعد أسلوبا مؤثرا في القارئ المتدبر والمتفهم للخطاب القرآني. وقد يكون تأثيره أبلغ من الترهيب والتخويف، لذلك ينبغي على الواعظ والخطيب الاستفادة من الأسلوب القرآني في دعوة المخاطبين إلى الاستقامة وإلى الاتصاف بالأخلاق والقيم الإسلامية.

[1] - وهو أسلوب بلاغي يتكرر في القرآن الكريم ويسهم في تصحيح المفاهيم والتصورات والمعتقدات.

- الأسلوب الخبري القصصي

من أساليب القرآن في ترسيخ القيم الإسلامية أسلوب القصة، ومن أشهر القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام التي رسخت قيما إيجابية مهمة تأتي في مقدمتها قيم الإيمان والتوحيد والإخلاص والعفة والصبر و الأمانة و الصدق والعفو وقيمتي الأمل والتفاؤل.

كل ذلك وغيره بأسلوب قصصي حضرت فيه مقومات القصة من وقائع وشخصيات وفضاء مكاني وزماني ووصف وسرد وحوار.

ونصادف هذا الأسلوب أيضا في عدة سور من كتاب الله. فقصص الأنبياء والحكماء قصص غنية بقيم الإيمان والصبر والحياء والصدق والأمانة والثبات على الحق والعفو والصفح.

- أسلوب القصر:

وهو من أشكال الأسلوب الخبري، وهو أسلوب كثر وروده في القرآن الكريم لأهميته في بيان حقيقة القيم وإزالة الفهم الخاطئ عنها. وهو أسلوب بلاغي يمكن من إثبات الصفات المميزة للمفهوم وفي الوقت نفسه يعمل على نفي الصفات العالقة بالمفهوم خطأ. وغالبا ما يتشبث الناس بالأشكال والعادات الخاطئة ظنا منهم أن ذلك هو المقصود من الدين. وبهذا الأسلوب تم تعريف مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالقيم الإسلامية ارتباطا وثيقا؛ كمفهوم الإيمان ومفهوم البر. من ذلك قوله تعالى في حقيقة البر:

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾البقرة 177 .

وقال تعالى مبينا حقيقة المؤمنين: ﴿إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ الأنفال:2.

وقال سبحانه:﴿ إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ الحجرات 10. ﴿إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات 15.

وقال تعالى في تعريف من يعمر المساجد: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ التوبة:18.

- الأساليب الخبرية والإنشائية المفيدة للترغيب والتحبيب:

من أكثر الأساليب المعتمدة في التربية على القيم والأخلاق في القرآن الكريم، الأساليب الخبرية والإنشائية المفيدة لغرض الترغيب في القيم الإيجابية وتحبيبها إلى المدعوين، وقد تكون البداية بأسلوب النداء أو الأمر ثم يأتي الأسلوب الخبري مبينا للجزاء ترغيبا في التخلق بالقيم المعبر عنها بالأمر أو الشرط.

ففي قوله تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾. الأحزاب: الآيتان 70-71، تضافرت أساليب النداء والأمر والوصل وجواب الشرط والخبر المؤكد ... في الترغيب في قيم التقوى والقول السديد والطاعة ثم جاء الإخبار عن الجزاء بخبر مؤكد (فقد فاز فوزا عظيما)، زيادة في الترغيب في هذه الخصال وتأكيدا لوعد الله.

وفي قوله تعالى:﴿ومن يطع اللهَ والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا﴾. النساء 69؛ فقد تم التعبير عن قيمة الطاعة بأسلوب الشرط (ومن يطع ...) وتم الإخبار عن الجزاء بالخبر المؤكد (فأولئك....).

وبأسلوب الشرط كذلك وجوابه تم الترغيب في قيمة اتباع الهدى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ طه:23 .

وتم الترغيب في قيمة الصبر في قوله تعالى: ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ البقرة الآيتان: 155-157، بعدة أساليب من علم المعاني، وهي:

- أسلوب الأمر، وهو هنا أسلوب دال على البشارة والتحفيز؛
- أسلوب الشرط وجوابه: (إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)، وفيه بيان لنوع الصابرين المبشرين والموعودين بالجزاءات المذكورة في الآية؛
- الخبر المفيد للوعد (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ؛
- الوصل بالواو بين الجزاءات الثلاثة، وفائدته تعظيم الأجر وبيان قيمة الصبر.

وبالنداء والأمر المتبوعين بالخبر المؤكد المفيد لمعية الله للصابرين تم الترغيب في قيمة الصبر، قال تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ البقرة 153.

وفي سياق الترغيب في العمل الصالح، الصادر عن إيمان وإخلاص، والتشجيع عليه، جاء الأسلوب الخبري المؤكد بعدة مؤكدات (فلتنحيينه - ولنجزينهم) مقترنا بأسلوب الشرط وجوابه (من عمل...)، قال تعالى: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى، وهو مومن، فلنحيِيَنَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ النحل: 97.

وبهذا الأسلوب القرآني البديع تمت الدعوة إلى كثير من خصال الخير، كفضيلة الخوف من الله وخشيته؛ إذ تم الترغيب في الجزاء بالأسلوب الخبري، كقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ الرحمان: 46، وقد أسهم أسلوب التقديم في ذلك؛ إذ تم تقديم الخبر (شبه الجملة:لمن خاف مقام ربه) على المبتدإ النكرة(جنتان).

أسلوب الاستفهام في الخطاب القرآني

من الأساليب الإنشائية التي وردت في القرآن الكريم، وتم عن طريقها عرض القيم والأخلاق القرآنية، أسلوب الاستفهام المفيد لمعان مقامية، كالتقرير والنفي والإغراء أو غيرها من الدلالات المقامية. من ذلك الاستفهام الدال على النفي في مثل قوله تعالى:

- ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾.الزمر الآية 9.
- ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ الرعد 19.
- ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم 22﴾ الملك 22.
- ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ آل عمران 162.

أسلوب الشرط

يعد أسلوب الشرط من أكثر الأساليب المعتمدة في عرض القيم الإيجابية في القرآن الكريم. فهو أسلوب مهم في ربط الجزاء بتحقق القيمة المرغوب فيها. فبهذا الأسلوب يبين للمخاطبين أن كل عمل له جزاء من جنسه، فمن كان يريد النجاة فعليه القيام بشرط ذلك من الأعمال والأقوال والقيم الصالحة التي يترتب على فعلها والاتصاف بها أجر وجزاء عظيم يرغب فيه كل عاقل. من نماذج ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:

- ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ الإسراء: 7.

- ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة يره﴾ الزلزلة :7-8.
- ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾طه :112.
- ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ الأنفال:29.
- ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ الطلاق2.

تداخل الأساليب الإنشائية الطلبية في الدعوة إلى القيم القرآنية:

يكثر في القرآن الكريم المناداة على المؤمنين أو على غيرهم من المقصودين بالقيم قبل الأمر بها أو النهي عنها، مما جعل أسلوب النداء غالبا ما يقترن بأسلوب الأمر أو أسلوب النهي أو هما معا، أو بأساليب أخرى خبرية أو طلبية.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك سورة الحجرات، التي سميت بسورة الأخلاق.

ورد أسلوب النداء في هذه السورة خمس مرات ب (يا أيها الذين آمنوا) و مرة واحدة (ياأيها الناس). وبعد النداء في هذه الآيات نجد:

- ✓ أسلوب النهي (لا تقدموا - لا ترفعوا - لا تجهروا - لا يسخر - لا تلمزوا - ولا تجسسوا - ولا يغتب).
- ✓ أسلوب الأمر (واتقوا - واعلموا – فأصلحوا – وأقسطوا - اجتنبوا) - قلْ...).
- ✓ أسلوب الشرط بعد النداء (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا)

(وإن طائفتان - وإن تطيعوا.. – لو يطيعكم ... – إن طائفتان .. – فإن بغت إحداهما..

- ✓ الخبر المؤكد وعن طريقه تم تقرير قيم وأخلاق يجدر بالمؤمنين تمثلها والتخلق بها: (إن الذين يغضون – ولو أنهم صبروا... - إنا خلقناكم – إن أكرمكم عند الله أتقاكم – إن الذين ينادونك). وجاءت خواتم الآي كذلك بأسلوب خبري مؤكد، في الغالب،لصفات الله سبحانه: (إن الله يحب المقسطين.. – إن الله تواب رحيم – إن الله عليم خبير – إن الله يعلم غيب السموات والارض)، باستثناء بعض الآيات التي جاء فيها الخبر ابتدائيا :(والله غفور رحيم - والله بصير بما تعلمون – والله بكل شيء عليم).

✓ **أسلوب القصر**

عرفت السورة حضورا متميزا لأسلوب القصر، ومن أمثلته:

- (إنما المومنون الذين...)
- (قالت الأعراب آمنا قلْ لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا) – (إنما المومنون إخوة).

✓ **أسلوب الاستفهام**

وجاء هذا الأسلوب في السورة مفيدا للتعجب والاستغراب

- (قلْ أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الارض والله بكل شيء عليم) الحجرات 16.

2) الأساليب البيانية

- أسلوب التمثيل

من أهم وأبرز الأساليب البيانية في الخطاب القرآني، وأكثرها تعبيرا عن قيم الخير والبر والمعروف، أسلوب التمثيل، المفيد للترغيب والتحبيب، فبه تم التشجيع على الإنفاق في سبيل الله في عدة مواضع من كتاب الله، منها ما ورد في سورة البقرة كما في قوله تعالى:

- ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ البقرة 261 .

-﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)البقرة 274.

تنوعت الأساليب البلاغية في هذه الآيات بين أسلوب التمثيل في الآية الأولى، وأسلوب الخبر المنبئ بالجزاء في الآية الثانية، لكنها اتحدت في غاية واحدة؛ هي الترغيب في قيمة الإنفاق وتحبيبها إلى النفوس بأسلوب بلاغي بديع.

ويعد أسلوب التمثيل أو ضرب المثل من أهم الأساليب البيانية في القرآن الكريم التي استعملت في ترسيخ القيم الإسلامية. ففي سبيل التربية على الزهد والقناعة جاءت عدة آيات تبين حقيقة الحياة الدنيا بأسلوب التمثيل كقوله سبحانه ﴿ **وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح**﴾ الكهف: 32 .

ولبيان فضل الكلمة الطيبة قال سبحانه:﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾إبراهيم: 24-25.

وفي سبيل التربية على الفاعلية والإيجابية قال سبحانه: ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبْكَمُ لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتيه بخير هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾ النحل: 76.

قال ابن عاشور: "هذا تمثيل ثان للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبه. فاعتبر هذا المعنى الحاصل من حال الأبكم، وهو العاجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذر الفائدة منه في سائر أحواله؛ والمعنى الحاصل من حال الرجل الكامل العقل والنطق في إدراكه الخير وهديه إليه وإتقانه عمله وعمل من يهديه، ضربه مثلا لكماله وإرشاده الناس إلى الحق، ومثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر.

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفننا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا) النحل 75"[1].

3) أساليب علم البديع والتعبير عن القيم القرآنية

إلى جانب الأساليب البيانية وأساليب علم المعاني السالفة الذكر، تم التعبير عن القيم القرآنية في الخطاب القرآني بأساليب البديع، كالجناس والطباق والتكرير والمقابلة والالتفات واتحاد الفواصل. وسأركز في هذا المبحث على أسلوب المقابلة لكثرة وروده في القرآن الكريم.

أسلوب المقابلة

من أبدع الأساليب القرآنية وأجملها في التربية على القيم الإسلامية أسلوب المقابلة، وهو أسلوب بديعي، تتم به المقابلة في الخطاب القرآني بين من قيم المومنين وقيم غيرهم ، وبين جزاء المومنين وجزاء غيرهم. وهو من أكثر الأساليب البلاغيةاستعمالا في الخطاب القرآني للتعبير عن

[1] - التحرير والتنوير تفسير الاية 76 من سورة النحل.

غرضي الترغيب والترهيب؛ إذ نجد في الخطاب القرآني الدعوة إلى القيم الإيجابية بأساليب بلاغية متنوعة تفيد التخويف والترهيب من عواقب التخلي عن قيم البر أو تركها، بإتيان مضاداتها من قيم الشر. وغالبا ما نجد المقابلة بين حالين؛ حالٌ يتم الترغيب فيها، وحالٌ يتم الترهيب منها. من ذلك قوله تعالى بأوجز لفظ: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم**﴾ الانفطار 13-14؛ فالأسلوب الخبري الإنكاري في الآية قابل بين حالين مختلفين، حال تم الترغيب فيها، وحال تم الترهيب منها، عن طريق أسلوب المقابلة.

ونجد مثل هذه المقابلة والموازنة البديعة في سورة النازعات في قوله سبحانه: ﴿**فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾النازعات:37-40 .

وفي قوله عز وجل: ﴿**فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ سورة الليل من الآية:5 إلى الآية:10.

وفي قوله تعالى في سورة طه: ﴿**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾طه:123-124.

والمثير للانتباه أن أسلوب المقابلة في هذه الآيات جاء مقترنا بأسلوب الشرط.

خلاصة

نخلص مما سبق بيانه إلى أن الأساليب البلاغية التي عرضت القيم الإسلامية في القرآن الكريم كثيرة. وهي أساليب تؤدي عدة وظائف، كمحاججة المخاطبين وإقناعهم والتأثير فيهم، وحملهم على التخلق بتلك القيم.

ومعلوم أن أحوال المخاطبين مختلفة، فهناك من يتأثر بأسلوب القصة والوصف والحوار، وهناك من يتأثر بأسلوب الترغيب في قيم الخير والبر، وبالأساليب التي تحببها إلى النفوس؛ كالإغراء بها ومدح المتخلقين بها والثناء عليهم.

وهناك من المخاطبين من لا ينفعه إلا الأمر بالتخلق والتحلي بالقيم الإسلامية؛ باعتبارها السبيل إلى نيل مرضاة الله والفوز في الدارين، والنهي عن التخلي عنها أوالاتصاف بمضاداتها (قيم الشر)، والترهيب من ذلك ببيان عوقبه.

وهذا التنوع من رحمة الله بعباده، وإرادته الخير لهم.

الفصل السادس

تدريس البلاغة العربية بين الواقع والمأمول

- نحو درس بلاغي وظيفي -

الفصل السادس - تدريس البلاغة العربية بين الواقع والمأمول

تمهيد-

نشأت البلاغة العربية في سياق الخطاب والتواصل منذ كانت مُنجزة بالسليقة عند المتكلم العربي شعرا ونثرا. فالشاعر العربي القديم كان متواصلا مع المتلقي، يخاطبه ويعبر عن أفراحه وأتراحه، يفتخر ببطولاته وانتصاراته، ويبكي لآلامه وانتكاساته وأوجاعه؛ مما خلف نصوصا وخطابات غاية في البلاغة والفصاحة والبيان. وكان المتلقي العربي بدوره متلقيا بليغا، يتفاعل مع الشاعر والخطيب ، وتصدر عنه ردود فعل لا تخلو من حس بلاغي، كما تثبت ذلك كتب تاريخ النقد والبلاغة عند العرب.

واستمرت هذه البلاغة متصلة بالخطابات وبالنصوص، في عهد التأسيس للبلاغة العربية مع اللغويين والمتكلمين وعلماء الدراسات الإعجازية وعند أشهر النقاد والأدباء كالجاحظ والمبرد وأبي هلال العسكري وابن طباطبا العلوي وغيرهم. وظلت البلاغة العربية متصلة بالخطاب ومرتبطة بوظائفها في بناء الخطابات والنصوص، وفي فهمها وقراءتها و تفسيرها وتأويلها في عهد التأصيل والإبداع والتطور البلاغي الذي بدأ مع العلامة عبد القاهر الجرجاني واستمر مع الزمخشري ومن جاء بعده.

لكن الضرورة التعليمية اقتضت في ظروف وسياقات معينة، فصل الدرس البلاغي عن خطابه، بالتركيز على الشاهد والمثال، وكان الأمر مفهوما حينئذ، لأن المتعلم ظل مرتبطا بالخطاب، بل ممتلكا لكثير من الخطابات، مضمرا لها، يستحضرها فتتكامل عنده المعارف والمهارات.

والفصل الذي حدث للدرس البلاغي عن مجاله الطبيعي، إنما هو فصل طارئ. فعندما نستقرئ تاريخ علوم العربية وآدابها وبلاغتها ونقدها، نجد اتصالا لا انفصالا، نجد تفاعلا وتكاملا لا انقطاعا. ويتضح ذلك في الدراسات الأدبية والنقدية والكلامية والشرعية وفي التفاسير وشروح الشعر.

غير أن الهوة اتسعت الآن بين الدرس البلاغي والخطاب بعدما صار المتعلم مفتقرا للخطابات والنصوص، وبعدما ضعف مخزونه منها،فتعمقت الأزمة في كل الدروس اللغوية. وعاد سؤال الوظيفة إلى الواجهة.

ويعد درس البلاغة في التعليمين الثانوي والعالي أكثر الدروس حاجة إلى سؤال الوظيفة، لأنه درس مرتبط بالنصوص والخطابات وبالتواصل والتعبير والإبداع والكتابة.

فحاصل ما سبق بيانه في الفصول السابقة، أن البلاغة العربية نشأت وتطورت في سياق خطابي تواصلي. لذلك كانت الدراسات البلاغية منذ نشأتها منشغلة بوظائف البلاغة في فهم الخطاب وتفسيره. وظل البلاغيون في عصور ازدهارها وتطورها مهتمين بالأبعاد الوظيفية للأساليب البلاغية تنظيرا وممارسة. تدل على ذلك مؤلفاتهم ورسائلهم التي جاءت حافلة بالخطابات، وجمعت بين التنظير والتطبيق، بين التعريف والقراءة والتحليل والتفسير.

وقد شهدت الدراسات البلاغية الحديثة تطورا ملموسا في اتجاه إعادة الاعتبار للبلاغة العربية في علاقتها بالخطاب والتخاطب. لكن الحصيلة التعليمية لاتزال دون الطموح المنشود. فعلى الرغم من كثرة الأبحاث والمؤلفات في هذا الموضوع، إلا أن واقع تدريس البلاغة في الجامعات العربية ما يزال يدل على ضعف الحصيلة.

فكيف يمكن النهوض بتدريس البلاغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا؟

الدرس البلاغي في التعليم التأهيلي والجامعي بين الو اقع والمأمول:

إن الارتقاء بدرس البلاغة في التعليم التأهيلي والجامعي يشكل مطلبا ملحا، ليس فقط لأهميته المعرفية والعلمية، بل لقيمته التواصلية والمنهجية، ولما يتيحه تعليمه من إضافات نوعية لتعلمات التلاميذ ولتنمية مهاراتهم وقدراتهم التواصلية والتعبيرية والإبداعية، ولقيمته كذلك في تمكين المتعلمين من فهم وتحليل النصوص الإبداعية وإدراك قيمتها التخييلية والتداولية.

لذلك ينبغي الارتقاء بطرق تدريس البلاغة العربية والعمل على ملاءمة النقل الديداكتيكي لهذا الدرس في التعليم الثانوي التأهيلي وفي التعليم العالي حتى تتحقق الأهداف المرجوة عند الطالب والمتعلم.

فنحن نعلم أن النقل الملائم للمعارف المرتبطة باللغة العربية بمختلف الأسلاك التعليمية، يعد من أهم مداخل إصلاح التعليم في المدرسة المغربية. فالمعارف المرتبطة باللغة العربية في التعليم الثانوي التأهيلي، على سبيل المثال، متنوعة ومتشعبة، بين المعارف الأدبية والنقدية واللغوية والثقافية وغيرها. وهذا ما يطرح ضرورة الاهتمام بالنقل الديداكتيكي لهذه المعارف في كل مكون من مكونات اللغة العربية، لتكون ملائِمة ومناسبة للمتعلم، سليمة من مخاطر النقل، مساهمة في تحقيق الكفايات المستهدفة في هذه المرحلة.

ويعد درس البلاغة بالتعليم الثانوي التأهيلي من أهم الدروس اللغوية المقررة، وأكثرها إثارة للاهتمام، وأوثقها صلة بالقراءة المنهجية للنصوص والخطابات.

ومن المعلوم أن المعرفة البلاغية تتميز في مصادرها الأصلية بالتجريد والتعقيد والتشعب، وهذا ما يطرح إشكال ملاءمتها مع الفئة المستهدفة في كل مرحلة من مراحل التعليم.

إن المعرفة في مراحل عبورها لتصل إلى المتعلم تخضع لعدة تعديلات وتصرفات قد تضر بها. ولعل من أخطر ما تتعرض له المعرفة الأصلية أثناء النقل: التجزيء والتفكيك الناتجين عن عدم مراعاة النسقية والوحدة والتكامل بين المعارف.

لذلك فإن ملاءَمة النقل الديداكتيكي للمعارف البلاغية بالتعليم أصبح أمرا ملحا وضروريا لأي إصلاح بيداغوجي. إذ يطرح النقل الديداكتيكي للمعرفة عدة إشكالات ترتبط، في معظمها بحدود نقل هذه المعرفة من معرفة عالمة إلى معرفة متَعَلمة أو ممدرسَة.

فكيف يتم الانتقال من معرفة عالمة إلى معرفة ممدرسة ؟ من معرفة خالصة تتسم بالتجريد والتعقيد والتحول المستمر، إلى معرفة متداولة داخل الفصل الدراسي وقابلة للتعلم؟ وكيف يمكن التخطيط لعبور المعرفة البلاغية من مجال التخصص إلى مجال التعليم والتعلم؟ وبعبارة أخرى، كيف يتم تحويل المعرفة البلاغية من شكلها الخام، إلى شكل يلائم المتعلمين في التعليم الثانوي ثم العالي، ويناسب مستواهم الإدراكي والنفسي ويستجيب لحاجياتهم؟ ثم إلى أي حد يمكن للنقل الديداكتيكي أن ينجح في عبور المعرفة إلى المتعلم بأمان ودون إلحاق الضرر بالمعرفة الأصلية؟

هي إسئلة وإشكالات تطرح نفسها على الأستاذ والباحث المهتم بنقل المعرفة البلاغية من مصادرها إلى الطالب والمتعلم في أسلاك التعليم المختلفة.

فالمعرفة البلاغية في مراحل عبورها لتصل إلى المتعلم تخضع لعدة تعديلات وتصرفات قد تضر بها. ولعل من أخطر ما تتعرض له المعرفة الأصلية أثناء النقل:

التجزيء والتفكيك مما يجعلها تفقد نسقيتها وتكاملها. وهذا مما يعاب على المواد الدراسية. وهذا ما يفرض على المدرس أثناء النقل الديداكتيكي مراعاة هذه النسقية والوحدة والتكامل، بربط الدرس بباقي الدروس وجعله ضمن نسقه ووحدته.

لذلك يحرص الأستاذ،في بحثه لنقل المعرفة البلاغية إلى الطالب والمتعلم، على سلامة النقل الديداكتيكي من التجريد والتجزيء، وعلى تهذيب المعرفة لتكون في مستوى الطالب والمتعلم، فضلا عن ضرورة التركيز على تدريس أصول المعرفة البلاغية ودروسها الأساس والإعراض عن تفريعاتها وتقسيماتها. وحتى لا يبقى الكلام عاما أقترح بعض المداخل التي تبدو لي أساسية للنهوض بالدرس البلاغي في التعليمين التأهيلي والجامعي.

اقتراحات للنهوض بالدرس البلاغي في التعليم الثانوي التأهيلي

خلصت من تجربتي في تدريس البلاغة العربية بالسلكين التعليميين الثانوي والعالي إلى ضرورة الأخذ بالمبادئ الآتية في أي مشروع تجديدي لهذا الدرس:

1) مبدأ التدرج

يعد هذا المبدأ من أهم المبادئ التي تسهم في التعليم والتعلم. فالمدرس لا يمكنه النجاح في مهمته التدريسية إذا لم يتدرج مع المتعلمين من البسيط إلى المركب ومن الجزء إلى الكل ومن السهل إلى الأقل سهولة ...

ومن الثغرات المسجلة على ما هو مقترح في كتب التعليم الثانوي التأهيلي،أن الدروس المعتمدة في المرحلة التأهيلية لم تراع في الغالب هذا المبدأ؛ إذ يأتي الدرس مباشرة دون تمهيد ولا ربط بدرس سابق مما يعقد مهمة المدرس، الذي يجد نفسه مضطرا ليمهد بما يناسب الدرس الجديد، ويتدرج مع المتعلمين ليقرب إليهم المطلوب.

وبالعودة إلى الكتاب المدرسي في الجدع المشترك الأدبي، نجد أن دروس البلاغة تم نقلها بطريقة لم تراع مبدأ التدرج، ولا الربط بين الدروس اللغوية، ولم يتم الاهتمام بالتمهيد لها[1].

وكان ينبغي أن يتضمن الكتاب المدرسي تمهيدا مناسبا حول علوم البلاغة وموقع علم المعاني ضمن هذه العلوم، ثم تمهيدا مناسبا حول الخبر والإنشاء وكذا دروس بلاغة الإقناع والامتاع، وينبغي أن يتضمن ذلك التمهيد الإشارة إلى الوظائف التعبيرية والتواصلية والأسلوبية لتلك الدروس.

2) مبدأ التكامل

إن تدريس البلاغة في إطار تكاملها مع باقي المكونات، من نصوص وتعبير، يمكننا من تجاوز كثير من التعثرات والنقائص التي تم تسجيلها في طريقة تعامل التلاميذ مع هذه الدروس؛ ذلك أن معظم المتعلمين بمجرد ما يفرغون من الدرس البلاغي يهملونه ولا يستثمرونه في وضعيات تعلمية جديدة، لأنهم لا يدركون وظيفته في تعلم المكونات الأخرى، ولا يقفون عند أهميته ووظائفه التواصلية والمنهجية والتعبيرية.

[1] - ينظر المنير في اللغة العربية الصفحات: 244 إلى 254 و 278 إلى 284.

وقد أسهم الكتاب المدرسي في هذا الأمر؛ لأن بعض الدروس المقررة لا علاقة لها بنصوص المجزوءة ولا بدروسها التعبيرية. وكان من المفروض مراعاة هذا المبدإ في اختيار دروس كل مكون لأن كل الوثائق المؤطرة لإصلاح منهاج اللغة العربية تؤكد على تكامل مكونات اللغة العربية[1].

وقد بدت أهمية هذا المبدأ عندما روعي في منهاج السنة الثانية آداب وإنسانيات؛ إذ نجد الدرس البلاغي جاء خادما لدرس النصوص، يساهم في تذوقه وتحليله. فدروس الصورة الشعرية مثلا كانت مناسبة لنوع النصوص المقررة، وحققت التكامل المطلوب في المجزوءة.

3) ملاءمة النقل الديداكتيكي لدرس البلاغة

من المبادئ الأساس في تدريس أي مكون ملاءمة النقل الديداكتيكي للمعارف المرتبطة به لتكون في متناول المتعلمين. وذلك طبعا بتحويلها من معرفة عالمة إلى معرفة ممدرسة متعلمة. وهذا ينطبق على درس البلاغة الذي يشكو حاليا من سوء النقل، مما يجعل المعارف المرتبطة به تبدو غامضة للمتعلم ومغرقة في التجريد.

ويعد المدرس أهم ناقل ديداكتيكي للمعرفة؛ لذا ينبغي أن لا نمارس عملية النقل هذه إلا بعد تخطيط محكم، ينطلق فيه المدرس من عملية تشخيصية لمكتسبات المتعلمين، ويستند إلى التوجيهات التربوية والأطر المرجعية التي تحدد له مواصفات المتعلم، والكفايات والقدرات المستهدفة. والمدرس الناجح هو الذي يبني المعرفة مع المتعلمين وبمشاركتهم، ولا يقوم بإلقائها أو تقديمها جاهزة.

ومن المهم أن ينطلق المدرس من تمثلات المتعلمين، وأن يستثمرها في بناء المعرفة المتعلّـَمَة. "لأن المادة المعرفية ليست بنيات جاهزة ومغلقة ومنتهية، وإنما هي في وضعية بناء وتشكيل وتكوين. إنها حصيلة نشاط تفاعلي تبادلي للذات المتعلمة دور مركزي في بنائها وتشكلها"[2].

وليكون النقل الديداكتيكي للمعارف البلاغية ملائما، أقترح ما يلي:

- ✓ الإلمام بالكفايات والقدرات والأهداف المتوخاة من الدرس.
- ✓ استعمال لغة واصفة ملائمة للمتعلمين.
- ✓ اختيار منهجية واضحة ومناسبة للنقل الديداكتيكي.

---

[1] - الميثاق الوطني بند 106 (هـ) ص 47 -48 ، التوجيهات التربوية 2007 ص 3 و 16.

[2]- ديداكتيك مادة اللغة العربية بالتعليم الثانوي التأهيلي (الدرس القرائي)، وزارة التربية الوطنية، الوحدة المركزية لتكوين الأطر، يونيو 2009، ص:22

- ✓ الانطلاق من وضعيات تعليمية ملائمة.
- ✓ ضرورة الاهتمام في التمهيد بالربط بين المعارف دون نسيان التعرف على التمثلات حول المعرفة الجديدة المراد بناؤها.
- ✓ اختيار الأنشطة التعليمية – التعلمية المناسبة لبناء المعرفة.
- ✓ التدرج في عرض المحتوى التعليمي على المتعلمين من الجزء إلى الكل ومن البسيط إلى المركب.
- ✓ انتقاء المعرفة وتبسيطها حسب مستوى المتعلمين.
- ✓ التأكد من استيعاب المتعلمين للمعرفة المنقولة بأنشطة تطبيقية في وضعيات جديدة.
- ✓ بناء تركيب الاستنتاجات المتوصل إليها في الدرس بمشاركة المتعلمين، وعدم الاكتفاء بالتركيب المقدم في الكتاب المدرسي.
- ✓ الحرص على إنجاز التقويم الإجمالي وعلى تنويع الأنشطة التقويمية قصد ترسيخ المعارف وتثبيتها.
- ✓ الاهتمام بامتدادات الدرس البلاغي واستثماره في وضعيات جديدة قصد الربط والتثبيت والدعم والتطبيق.

4) الإبداع والتجديد في طرق التدريس

إن الرتابة في تدريس البلاغة صارت مملة للمدرس والمتعلم معا، لذلك يمكن أن نبدع في طرق تدريسنا لهذا المكون باعتماد وسائل أخرى، كجعل درس النصوص مثلا هو المنطلق لدروس اللغة، أو جعل إبداعات المتعلمين في القصة أو في التعبير والإنشاء منطقا لدروس لغوية، وغير ذلك من أساليب جديدة. فبدل أن ينطلق المدرس من أمثلة مقتطفة من نصوص، يجعل النص القرائي هو المنطلق لدرس لغوي تم توظيفه في هذا النص. مثلا يمكن الانطلاق من نص شعري لدراسة التشبيه أو الاستعارة. كما أن إنجازات المتعلمين في التعبير والإنشاء أو في الأنشطة الإبداعية الموازية يمكن أن تكون منطلقا لدروس لغوية تقويمية، تمكن من تجاوز التعثرات التي كشف عنها تصحيح تلك الانجازات.

وقد أتاحت تكنولوجيا الاتصال فرصة كبيرة لتجديد الممارسات الصفية، لذلك ينبغي الاستفادة منها في تدريس البلاغة، وفي ترغيب المتعلمين في تعلم هذا الدرس واستثماره في وضعيات جديدة.

لذلك ينبغي أن يوظف المدرس هذه التكنولوجيا الحديثة بمشاركة المتعلمين في إنجاز بعض الدروس البلاغية.

فعلى سبيل المثال يمكن الانطلاق من نص مكتوب على الحاسوب يعرض على العاكس الضوئي، بحيث يتضمن أمثلة خبرية وأخرى إنشائية. ثم يقرأ المدرس النص قراءة نموذجية تمكن من التمييز بين تنغيم الجملة الخبرية والجملة الإنشائية. بعد ذلك يطلب من بعض المتعلمين قراءة ذلك النص مع الحرص على صحة الأداء الصوتي للجمل. وبعد أنشطة الفهم والاستفادة من النص ومن قيمه التربوية، يطلب منهم تحديد الجمل التي كان تنغيمها مغايرا ثم يسجلها على اللوح. ثم يعرض الجمل كما هي معدة عنده في شريحة واضحة ومنظمة تتضمن الجمل الخبرية والجمل الإنشائية. ثم يصف ويحلل كل صنف باستعمال أسئلة دقيقة تحقق المطلوب وتضمن مشاركة المتعلمين في بناء المعرفة اللغوية المرتبطة بذلك الدرس. بعد ذلك يستنتج تعريف الأسلوب الخبري ثم تعريف الأسلوب الإنشائي.

وبعد قراءة التعريفين والتحقق من فهم المتعلمين، يطلب منهم أمثلة لكل صنف ويدونها مباشرة على شريحة تعرض أمام التلاميذ، ويصحح ما يحتاج إلى تصحيح.

وفي الختام يخلص إلى تركيب الاستنتاجات بأسلوب بسيط، يشارك في صياغته المتعلمون. ومن الأفضل أن يكون التركيب بأسلوبهم، وأن يعرض عليهم ليصوبوا ما يرونه في حاجة إلى تعديل. ثم تتم عملية قراءة التركيب، ويطلب منهم كتابته على دفاتر الدروس. وتنتهي الحصة بتطبيقات إجمالية تنوع بين الشفهي والكتابي.

لكن لا ينبغي أن تتحول جميع الحصص إلى هذا النوع من الدروس الحاسوبية حتى لا تصاب هي الأخرى بالرتابة، لذلك يحسن التنويع. بل يمكن أن تجمع الحصة الواحدة بين اللوح والحاسوب.

وعموما يحسن بالمدرس الإبداع والتجديد في طرق تدريس البلاغة قصد تجاوز الرتابة، ولتحقيق الأهداف المرجوة بطرق محببة للمتعلمين.

5) الاهتمام بالأبعاد الوظيفية لأساليب البلاغة العربية

وذلك بالتركيز على ما يلي :

- ✓ ربط المتعلم بالنصوص والخطابات البليغة والانطلاق منها في تدريس اساليب البلاغة العربية؛
- ✓ إبراز أهمية الأساليب البلاغية في بلاغة الخطاب وفي فهمه وتفسيره؛
- ✓ تمهير المتعلم على فهم دلالات الأساليب في سياقاتها التخاطبية، وفهم الخطاب انطلاقا من مكوناته اللغوية والبلاغية، وبالتالي ضبط الفهم والتأويل عند قارئ الخطاب، والحد من القراءات السطحية للخطاب والتأويلات الفاسدة،
- ✓ تنمية الحس الإبداعي لدى المتعلم؛
- ✓ تدريبه على التواصل والتعبير والتخاطب البليغ؛
- ✓ تمكين المتعلم من آليات القراءة والتحليل والتفسير؛
- ✓ التركيز على ترسيخ الأبعاد الوظيفية للدرس البلاغي العربي؛
- ✓ عدم الانشغال بالحدود والتفريعات التي خاض فيها شراح البلاغة والاقتصار على المواضيع الكبرى للبلاغة العربية؛
- ✓ تدريس البلاغة في شموليتها، وتعريف الطالب بأهم أساليبها، وبما تنهض به تلك الأساليب من وظائف في التخاطب والتواصل وفي التفسير والتأويل؛
- ✓ الحرص على استثمار الدرس البلاغي في التعامل مع النصوص والخطابات، فهما وتحليلا وتأويلا وتلقيا؛
- ✓ اعتماد طريقة ملائمة للدرس البلاغي تراعي الفئة المستهدفة في كل سلك تعليمي.

من سبل النهوض بدرس البلاغة في التعليم العالي

تعد وحدة البلاغة من الوحدات المعرفية الأساسية في النموذج البيداغوجي المعتمد في الجامعة المغربية، في مسالك اللغة العربية والدراسات الإسلامية. وغالبا ما تدرس في مسلك الدراسات العربية فصلين اثنين: الفصل الأول أو الثاني[1] والفصل الخامس[2].

لكن تدريسها لا يخلو من إكراهات تحول دون تحقيق النتائج المرجوة؛ إذ غالبا ما يتم الإفراط في المداخل النظرية، وفي التعريفات المتعلقة بمفاهيم (البلاغة - الفصاحة - البيان - المعاني - البديع...)، فيتيه الطالب أمام هذا الإطار النظري الطويل، ولا يكاد يصل إلى الدروس البلاغية حتى يكون قد تعب وضاع وسط المتاهات النظرية والتعريفات المختلفة والمتعددة.

وحينما يصل إلى دروس البلاغة يكون الوقت قد استهلك، والامتحانات على الأبواب، فيتم الاكتفاء بدروس علم البيان؛ فيضيع علم المعاني أمام هذا الخلل المنهجي، وهذا الإسهاب في المقدمات والمداخل النظرية. وهي مداخل متوفرة في مراجع البلاغة، وليس من الضروري الاطناب فيها.

لقد آن الآوان لإعادة النظر في طرق تدريس البلاغة العربية بالجامعة المغربية،بدءا من اختصار الكلام في المقدمات والتعريفات والمداخل النظرية، واختيار المحتويات البلاغية من مصادر البلاغة،وملاءمة النقل الديداكتيكي للمعارف البلاغية،حسب فئات المستهدفين، والتركيز على النصوص البليغة في الاستشهاد والتمثيل، مع الاستثمار الجيد أثناء قراءة النصوص وتحليلها ودراستها، والتشجيع على الإبداع والإنجاز. فالبلاغة العربية كانت إنجازا وإبداعا قبل أن تكون تنظيرا وتقعيدا.

إن الدرس البلاغي في التعليم الجامعي، ليكون درسا ناجحا في تحقيق أهدافه، ينبغي أن يعود إلى الخطاب البليغ،ومنه ينطلق؛ فذلك هو السبيل لإبراز وظائفه وأهميته في التخاطب والتواصل. فتدريس البلاغة بعيدا عن الخطاب، يغيّب وظائف الأساليب البلاغية التعبيرية والتبليغية والحجاجية، التي وقفنا على أهميتها مع الأعلام الكبار في النماذج السابقة.

---

[1]- تدرس حاليا في الفصل الثاني في مسلك الدراسات العربية المعتمد برسم الموسم الجامعي 2024/2023 بالكلية متعددة التخصصات بالرشيدية ، وقد كانت تدرس في الفصل الأول في النموذج السابق.

[2] - تدرس "وحدة البلاغة وتحليل الخطاب" في الفصل الخامس، مسار الأدب العربي وحوار الثقافات المعتمد برسم الموسم الجامعي 2024/2023، بالكلية متعددة التخصصات بالرشيدية،.

فالخطابات والنصوص البليغة هي المجالات الخصبة لحياة البلاغة،ولتدريس أساليبها في سياقاتها التخاطبية والتواصلية.

وللنهوض بالدرس البلاغي في التعليم الجامعي، لا بد من الاهتمام بالأبعاد الوظيفية لأساليب البلاغة العربية. وذلك بالتركيز على :

- ✓ ربط الطالب بالنصوص والخطابات البليغة والانطلاق منها في تدريس اساليب البلاغة العربية؛
- ✓ إبراز أهمية الأساليب البلاغية في بلاغة الخطاب وفي فهمه وتفسيره وفي ضبط القراءة والتأويل؛
- ✓ تمهير الطالب على فهم دلالات الأساليب البلاغية في سياقاتها التخاطبية، وفهم الخطاب انطلاقا من مكوناته اللغوية والبلاغية، وبالتالي ضبط الفهم والتأويل عند قارئ الخطاب، والحد من القراءات السطحية للخطاب والتأويلات الفاسدة؛
- ✓ تنمية الحس الإبداعي لدى الطالب من خلال أنشطة تطبيقية وأعمال موجهة؛
- ✓ تدريبه على التواصل والتعبير والتخاطب البليغ؛
- ✓ تمكين الطالب من آليات القراءة والتحليل والتفسير البلاغية، عن طريق الأساليب البلاغية بالخطابات والنصوص قراءة وفهما وتحليلا وتفسيرا وتأويلا؛
- ✓ ترسيخ الأبعاد الوظيفية والتواصلية للدرس البلاغي العربي،
- ✓ التركيز على تدريس على المباحث الكبرى للبلاغة العربية وعدم الانشغال بالحدود والتفريعات التي خاض فيها شراح البلاغة؛
- ✓ تدريس البلاغة في شموليتها، وتعريف الطالب بأهم أساليبها، وبما تنهض به تلك الأساليب من وظائف في التخاطب والتواصل وفي التفسير والتأويل؛
- ✓ إعادة الاعتبار لعلم المعاني وتدريسه في شموليته، وبأبعاده التواصلية والحجاجية والجمالية؛
- ✓ التركيز على ترسيخ الأبعاد الوظيفية للدرس البلاغي العربي،
- ✓ الحرص على استحضار امتدادات الدرس البلاغي واستثماره في الوحدات الأخرى (الشعر – الرواية – المسرح – النقد...)...
- ✓ التأكيد على الأبعاد التنموية والتواصلية للدرس البلاغي العربي؛

خاتمة

بينت في هذا الكتاب النشأة المبكرة للبلاغة العربية إبداعا وإنجازا، وكيف أسهمت الدراسات النصية والخطابية في تطور الدرس البلاغي العربي مع البلاغيين الكبار، بفضل صلة البلاغة العربية القوية بالخطاب فهما وتلقيا وتحليلا وتفسيرا، وبفضل علاقتها بالدراسات النصية منذ بداية نشأتها. لذلك كان الدرس البلاغي العربي درسا وظيفيا؛ استثمر العلماء البلاغة في فهم الخطاب وتلقيه وتفسيره وتأويله.

وأكدت فيه على أن البلاغة العربية ضرورة خطابية نصادفها في كل الخطابات وفي كل أشكال التواصل، في كل المجالات والأوساط. فهي ليست حكرا على الشعر ولا على الخطابة ولا على المناظرة أو الرسالة، ولا على غير ذلك من الأشكال الأدبية. البلاغة توجد حيث يوجد التخاطب والتواصل في كل الحقول والمجالات التداولية للخطاب.

فالبلاغة هي التي تمدنا بأساليب التواصل الناجح، وتمكننا من آليات الفهم والتحليل والتفسير والتأويل؛إذ تؤمِّن التفسير والتأويل من الفوضى،وتضبط التلقي والقراءة من الزيغ والزلل، وتكشف حجب المعنى وأستاره؛ بما تمتلكه من آليات الكشف عن المعاني المخبوءة خلف المجازات والانزياحات الأسلوبية.

ومن جهة أخرى، فالبلاغة ذات أهمية قصوى في حياتنا اليومية، وفي تواصلنا وحواراتنا في مختلف المؤسسات وفي كل المجالات والفضاءات.

بها نتواصل فنرتقي ونتفاهم، وبفضلها نبني العلاقات الاجتماعية على أسس متينة، ونقضي على عوائق التواصل، وسوء التأويل وفساد الفهم.

لذلك أقول:

إنه قد حان الوقت لنحيا بالبلاغة... لنتواصل بالبلاغة ... لنصحح علاقاتنا التواصلية وما يطبعها من خلل.

حان الوقت لنُخرِج البلاغة من الرفوف والدهاليز، ونعود بها إلى مجال الحياة الرحب، مجال التواصل والتداول. وذلك أمر لا يتحقق إلا إذا قمنا بتبسيط الدرس البلاغي وإشاعته بين المتعلمين على الأقل، بأجمل صورة وبأحسن طريقة.

وإذا كان الباحثون والدارسون المحدثون في البلاغة قد أنجزوا بحوثا ودراسات مهمة في البلاغة وتحليل الخطاب، وفي البلاغة والحجاج، فإنه ما يزال ثمة مجالات خصبة للبحث والدراسة؛ يأتي في مقدمتها مجال البلاغة والتواصل الاجتماعي الناجح.

ومادامت البلاغة العربية على هذا القدر من الأهمية، وبهذه الفاعلية في التخاطب والتواصل والتفاهم والتنمية في أبعادها الأسرية والاجتماعية، فقد حان الوقت للنهوض بتدريسها في التعليم بمختلف الأسلاك.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- أسرار البلاغة في علم البيان للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد الاسكندراني ومحمد.بمسعود، دار الكتاب العربي، ط 1418/2هـ، 1998م.
- الأسلوبية والأسلوب، المسدي عبد السلام ،دار سعاد صابر، الطبعة الرابعة (1993).
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 (1436هـ\2015)
- الآمدي الإحكام في أصول الأحكام،علق عليه عبد الرحمن عفيفي، دار الصميعي، الطبعة الأولى (1424هـ/2003م).
- البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتح حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة.
- بلاغة الإقناع، قادا عبد العالي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1438هـ\ 2016 م)؛
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري،إفريقيا الشرق - المغرب، (يناير 2005)؛
- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة التاسعة.
- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها،محمد العمري، إفريقيا الشرق، لبنان (1999
- البلاغة الكبرى؛ نحو نظرية وجودية لصناعة الخطاب وتأويله، ج 1، محمد بازي، دار كنوز المعرفة، ط1 (1443هـ/2022م).
- البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد العمري، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى 1989، البيضاء.
- البنى الاستعارية: نحو بلاغة موسعة، محمد بازي، دار الأمان، الرباط (2017)، منشورات ضفاف؛
- البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، بدوي طبانة، مطبعة الرسالة، ط2 (1377 هـ-1958م).
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ط1، القاهرة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع (2010).
- تاريخ الأدب العربي1؛العصر الجاهلي، شوقي ضيف،دار المعارف،
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، دون طبعة ولا تاريخ.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس (1404هـ/ 1984م).
- تحليل الخطاب الشعري : استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط 3/ (1992) .
- تحليل الخطاب وتعليم مفردات العربية للناطقين بغيرها، وليد العناني، البصائر، مجلة علمية محكمة، مج 13 ع 2، آذار 2010م، جامعة البترا، الأردن

- التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، صابر الحباشة
- التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط/1 (1996)
- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري (ت538ه)، دار الكتب العلمية، ط3(1424ه/2003م).
- التواصل: نظريات ومقاربات لجاكبسون وآخرين، ترجمة عز الدين خطابي وزُهور حوتي، منشورات عالم التربية،البضاء (2007).
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني،حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3(1976م).
- الجامع لأحكام القرآن الكريم للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1413ه، 1993م.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة،بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1(2008)
- الحيوان لأبي عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، بيروت، ط/1412ه،1992م.
- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان باهي،أفريقيا الشرق، البضاء (2004).
- دراسات في الاستعارة المفهومية، الحواصي عبد الله، مؤسسة عمان للنشر والصحافة والإعلام، أبريل 2002م؛
- دراسات في البلاغة الإدراكية ، إبراهيم بن منصور التركي،نادي القصيم، الطبعة الأولى1441ه/ 2019م.
- الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب، لخذاري سعد، دار الأمان (الرباط) الطبعة الأولى 1438ه/2017م،
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة (1413ه، 1992م)
- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد بحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008
- ديداكتيك مادة اللغة العربية بالتعليم الثانوي التأهيلي (الدرس القرائي)، وزارة التربية الوطنية، الوحدة المركزية لتكوين الأطر، يونيو 2009،
- الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسون؛ ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية (2009م)؛
- الاستعارة في محطات يونانية وعربية، محمد الوالي، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1 (1426ه/2005م)
- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الافاق الجديدة ط:4، 1400ه/1980م.

- شرح المعلقات السبع،أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع، القاهرة، 2014م.

- شرح حماسة أبي تمام تحقيق: أبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري، علي المفضل حمودان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1 ، 1413هـ،1992م.

- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، الخطيب التبريزي، حشية: غريد الشيخ وفهرسة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421 هـ،2000م.

- شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي،نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ط1، 1411هـ، 1991م.

- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق، مكتبة المعارف- بيروت، ط 1

- صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، محمد بازي ،دار كنوز المعرفة، ط1 (1436هـ/2015م)

- علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق (القاهرة)، الطبعة الأولى، 1419هـ\1998م.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1/1988،1408م.

- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي،شرح وتحقيق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ط1/1402هـ،1982م.

- فلسفة البلاغة، آ .أ . ريتشاردز، ترجمة سعيد الغانمي، وناصر حلاوي، أفريقيا الشرق، 2002، بيروت – لبنان؛

- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط2 (2000م).

- في البلاغة العربية، علم المعاني –البيان – البديع، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت، دون طبعة ولا تاريخ.

- في التداولية المعاصرة والتواصل، أ. مولز – ك .زيلتمان – ك.أوريكيوني، ترجمة وتعليق د.محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب (2014).

- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، إفريقيا الشرق – المغرب، إفريقيا الشرق – المغرب، ط2 (2002)؛

- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، ط1 (1405هـ/1985م)،

- كتاب البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز، شرحه وحققه عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى 1433هـ / 2012م.

- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط/1406هـ،1986م.

- الكناية في القرآن الكريم، موضوعاتها ودلالاتها البلاغية،أحمد فتحي رمضان الحياني ،دار غيداء عمان، ط1 1435هـ/2015م).

- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، (دون رقم ولا تاريخ)

- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمان،. المركز الثقافي العربي،البضاء، ط1 (1998م)

- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي.

- اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، للدكتور أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، ط/1988م.

- اللغة والدلالة في النص الشارح، لخلافة كريم،الطبعة الأولى 2012، **Net impression**، ورزازات.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط/1411هـ،1990م.

- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولة (1374هـ/1954م).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي(ت546هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان) الطبعة الأولى (2001/1422م).

- المصنف في الحجاج، شاييم بيرلمان ولوسي أولبرخت تيتيكا،ترجمة وتقديم محمد الوالي،دار الكتاب الجديد المتحدة،(2023م).

- معجم البلاغة العربية، تأليف بدوي طبانة، دار ابن حزم، بيروت، ط4 (1408هـ-1977م)،

- معجم تحليل الخطاب، لجماعة من المؤلفين، بإشراف: باتريك شارودو – دومينيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا،تونس (2008) ص 44.

- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2/1407هـ،1987م.

- مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1(1411هـ، 1991م).

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة/ دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة (1986).

- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشرالآمدي، تحقيق السيد أحمد صقر،ط 4، دار المعارف.

- النظرية الحجاجية، مجمد طروس دار الثقافة، الطبعة الأولى (1426هـ\2005)

- النظرية المعاصرة للاستعارة، لايكوف ، ترجمة طارق النعمان، مكتبة الاسكندرية (2014)؛

- انفتاح النص الروائي: النص والسياق، الدكتور سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط/2 (2001).

- نقد الشعر، قدامة بن جعفر،تحقيق وتعليق الدكتور عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (دون تاريخ).

- الوظائف التداولية في اللغة العربية للدكتور أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط/1985م.

المقالات

- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل ،مجلة عالم المعرفة غشت 1992، العدد 164.

- الدرس البلاغي بالتعليم الثانوي التأهيلي وإشكالات النقل الديداكتيكي"، لخلافة كريم،مجلة مسالك التربية والتكوين، المجلد 3 ، العدد 2، أكتوبر 2020.

- السميائيات والبلاغة الجديدة، أحمد يوسف مقال بمجلة علامات ع 28، 2007، (المغرب) .

- وسائل التخييل وشروطه بين الفلاسفة المسلمين والسجلماسي في منزعه البديع"، لخلافة كريم، مجلة سجلماسة العالمة،العدد الرابع،ملف خاص، البلاغة والفلسفة، أوراق في المنزع البديع للسجلماسي، منشورات الكلية متعددة التخصصات بالرشيدية(2022).

المراجع الأجنبية

- **CH. Perelman, L'empir rhétorique – Rhétorique et argumentation, librairie philosophique, J. VRin paris, 2 éd/ 2002**.
- **Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts Teteca, Traité de l'argumentation – la nouvelle rhétorique, préface de Michel Meyer, Editions de l'université de Bruxelles, 6e éd/ 2008**.
- **Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, Éditions La Découverte, Paris, 3e éd /2003**.
- **Robrieux Jean Jacques, *Rhétorique et argumentation*, édition Nathan, 2eme édition, Paris, 2000.**

المو اقع الإلكترونية

- موقع تفسير آيات القرآن الكريم: **https://www.altafsir.com**، موقع متخصص في القرآن الكريم وعلومه وكتب التفسير.

فهرس الموضوعات

مقدمة	3
الفصل الأول :البلاغة العربية: مراحل النشأة والتطور	7
البدايات التأسيسية للبلاغة العربية	7
قدم بلاغة الإنجاز	7
قدم بلاغة التلقي	10
تطور الدراسات القرآنية ذات المنحى البلاغي	11
أثر علماء الكلام في التنظير البلاغي	13
إسهام الدراسات النقدية في تطور البلاغة	14
ازدهار البلاغة العربية	15
بلاغة السكاكي وبداية طور التلخيص والتهذيب والتعليم	16
الفصل الثاني: البلاغة العربية والتواصل	18
تعريف التواصل	19
التواصل عند المحدثين	19
التواصل عند البلاغيين	21
الأبعاد التواصلية لأساليب البيان	25
الأبعاد التواصلية لأساليب علم المعاني	29
الأبعاد التواصلية لمباحث الأغراض	29
الفصل الثالث: علوم البلاغة العربية وأهم أساليبها	37
علم البيان	38
التشبيه	38
أركان التشبيه	38
نماذج توضيحية	41
أنواع التشبيه	44
أسلوب الاستعارة	49
أركانها	49
نماذج توضيحية	50
أنواع الاستعارة	52
بلاغة الاستعارة	54

حجاجية الاستعارة	56
الاستعارة تعبير يومي	59
تأثير الاستعارة على المواقف والتصرفات	59
كيف نستثمر الاستعارة في بناء القيم	60
أسلوب الكناية	63
نماذج من الكناية	64
أنواع الكناية	69
أسلوب المجاز المرسل	70
نماذج من المجاز المرسل	70
أساليب علم المعاني والتواصل	73
تعريف علم المعاني	73
مباحث علم المعاني	74
الخبر وأغراضه	75
أغراض الخبر ونجاح التواصل	77
تطبيقات	78
الإنشاء في البلاغة العربية	82
دلالالات الأساليب الإنشائية وأغراضها	83
أسلوب التقديم والتأخير وأبعاده التداولية والتواصلية	88
بلاغة القصر وأبعاده الحجاجية والتواصلية	93
بلاغة الإيجاز والاطناب	95
الإيجاز والاطناب مطلبان تواصليان	99
أساليب علم البديع وتعدد الوظائف	101
الفصل الرابع: البلاغة العربية والخطاب	106
مدخل	106
مفهوم النص	107
مفهوم الخطاب	108
البلاغة وتحليل الخطاب	114
ملامح تحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة	114
مباحث البلاغة العربية وتحليل الخطاب	117

الأبعاد الوظيفية لأساليب البيان في الخطاب	118
الأبعاد الوظيفية لأساليب علم المعاني في الخطاب	122
البلاغة والتأويل	128
نماذج تطبيقية من نصوص المفسرين	132
نماذج تطبيقية من شروح الشعر	138
البلاغة العربية والحجاج	147
مفهوم الحجاج	147
البلاغة دعامة للحجاج	153
أقطاب الحجاج في البلاغة العربية	154
الحجاج في البلاغة الجديدة	153
الفصل الخامس: البلاغة العربية والتنمية	160
البلاغة وبناء القيم الإيجابية	161
تمهيد	161
كيف نستثمر البلاغة في بناء القيم الإيجابية	162
أثر البلاغة في نجاح التواصل	164
أساليب علم المعاني عمدة التواصل	166
خلاصة	166
تطبيق : الأساليب البلاغية والتعبير عن القيم القرآنية	170
الفصل السادس : تدريس البلاغة العربية بين الو اقع والمأمول	182
الدرس البلاغي : واقع التنزيل واقتراحات التطوير	185
سبل النهوض بالدرس البلاغي بالتعليم الثانوي التأهيلي	187
سبل النهوض بدرس البلاغة في التعليم العالي	192
خاتمة	194
المصادر والمراجع	196